ABU ABDO ALBAGL

ج. م. لوكليزيو

السمكة الذهبية

رواية

مدونة ابو عبدو

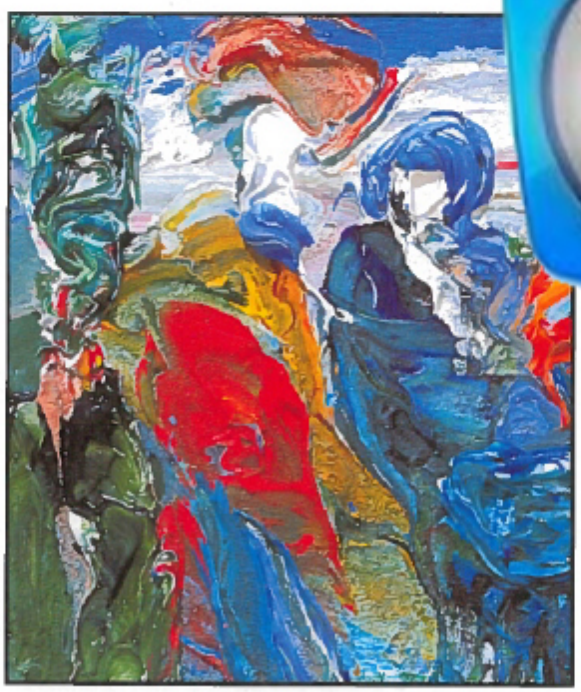

ترجمة: لينا بدر

S885

السمكة الذهبية

* ج. م. لوكليزيو
* السمكة الذهبية
* ترجمة لينا بدر
* جميع الحقوق محفوظة ©Copyright
* الطبعة الأولى 2009
* موافقة وزارة الإعلام رقم 102931
* الناشـــــر: ورد للطباعـة والنشـر والتوزيـع
سوريـة ـ دمشق ☎ 5141441
* الاستشارة الأدبية: حيدر حيدر
* لوحـة الغلاف: أحمد معلّا
* الإشـراف الفني: د. مجد حيدر
* التوزيـــع: دار ورد ☎ 5141441 ص. ب 30249

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, including photocopying, recording, or any information storage and retrieval system, without permission in writing from the publisher.

ج. م. لوكليزيو

السمكة الذهبية

رواية

ترجمة: لينا بدر

العنوان الأصلي للكتاب:

Poisson d'or

«أيتها السمكة الذهبية، احترسي، أوهاق وشباك كثيرة ممدودة إليك في هذا العالم».

ABO ABDO ALBAGL

1

حين كان عمري ست أو سبع سنوات خُطِفت. لا أتذكر ذلك فعلاً لأنني كنت صغيرة جداً وكل ما عشته لاحقاً محى تلك الذكرى. كان ذلك مثل حلم، كابوس بعيد، رهيب يعاودني في بعض الليالي ويقضّ مضجعي حتى في عز النهار. أذكر ذلك الشارع الساطع بالشمس، المعفّر بالغبار والخالي، السماء الزرقاء، صراخ طير أسود يفتت القلب، وبغتة يدا رجل ترميانني داخل كيس كبير، وأختنق. لالا أسمى هي التي اشترتني.

لهذا السبب لا أعرف اسمي الحقيقي، الاسم الذي وهبتني إياه أمي يوم ولادتي، ولا أعرف اسم والدي ولا المكان الذي ولدت فيه. كل ما أعرفه هو ما قالته لي لالا أسمى، وصلت عندها ذات ليلة ولهذا سمتني ليلى: الليل. أتيت من الجنوب، من البعيد جداً، ربما من بلاد لم يعد لها وجود. بالنسبة إليّ لم يكن هناك شيء من قبل، فقط ذلك الشارع المغبر، الطير الأسود والكيس.

فيما بعد أصبت بالصمم بإحدى أذنيّ، حدث ذلك حين كنت ألعب في الشارع، أمام باب البيت، صدمتني شاحنة صغيرة وكسرت عظمة في أذني اليسرى.

كنت أخاف الظلمة والليل. أذكر أنني كنت أستيقظ أحياناً،

وأحس بالخوف يدخل إليّ كثعبان بارد. لا أعود أجرؤ على التنفس. كنت حينئذ أنسل داخل سرير سيدتي وألتصق بظهرها البدين حتى لا أرى أو أشعر بشيء بعد. أنا على يقين أن لالا أسمى كانت تستيقظ، لكنها لم تكن تطردني، ولا مرة، ولهذا كانت حقاً جدتي.

خفت لوقت طويل من الشارع. لم أكن أجرؤ على الخروج من الفناء. حتى أنني لم أكن أريد تخطي الباب الأزرق الكبير المفضي إلى الشارع، وإذا ما حاولوا أخذي خارجاً كنت أصرخ وأبكي متعلقة بالجدران، أو أركض لأختبئ تحت أحد قطع الأثاث. كنت أصاب بصداع فظيع ونور السماء يخدش عيني، ويخترقني حتى أعماق كياني.

حتى أصوات الخارج كانت تخيفني. أصوات الخطوات في الزقاق. صوت المُلاَ أو رجل يتحدث بصوت عال، في الجانب الآخر من الجدار. لكنني كنت أعشق صيحات الطيور عند الفجر، صرير طيور الخطّاف في الربيع بمحاذاة الأسطح. في هذا الجزء من المدينة، لا يوجد غربان، حمائم ويمام فقط. أحياناً في الربيع، كانت بعض اللقالق العابرة تجثم فوق أعلى الجدار وتطقطق بمناقيرها.

لم أعرف لسنوات سوى فناء المنزل الصغير وصوت لالا أسمى تنادي اسمي: «ليلى!» كما سبق وقلت، أجهل اسمي الحقيقي، واعتدت على هذا الاسم الذي منحتني إياه سيدتي وكأنه الاسم الذي اختارته لي أمي. غير أنني أظن أنه ذات يوم سيقول أحد ما اسمي الحقيقي وسوف أجفل وأتعرف إليه من جديد.

لالا أسمى، هذا أيضاً ليس اسمها الحقيقي. اسمها أزيما وهي يهودية إسبانية. حين اندلعت الحرب بين اليهود والعرب في الجانب الآخر من العالم، كانت الوحيدة التي لم تغادر «الملاّح». اعتصمت

وراء الباب الأزرق الكبير وامتنعت عن الخروج. حتى تلك الليلة التي وصلت فيها وتغير كل شيء في حياتها.

كنت أدعوها «سيدتي» أو «جدتي». كانت تفضل أن أناديها «معلمتي» ذلك لأنها هي التي علمتني القراءة والكتابة بالفرنسية والإسبانية، وعلمتني الحساب الذهني والهندسة وأعطتني أصول الدين ـ دينها، الإله في دينها لاسم له وفي ديني يدعى «الله». كانت تقرأ لي مقاطع من كتبها المقدسة وتعلمني كل ما عليّ الامتناع عن فعله، كالنفخ على ما سأتناوله، وضع الخبز على القفا، أو أن أمسح بيدي اليمنى. وأنه يجب قول الحقيقة دائماً والاغتسال كل يوم من رأسي حتى أخمص قدمي.

في المقابل كنت أعمل من أجلها من الصباح حتى المساء في الفناء، في الكناسة وتقطيع الأخشاب الصغيرة للمنقل أو للغسيل. كنت أحب كثيراً الصعود إلى السطح لنشر الغسيل. من هناك، كنت أرى الشارع والسطوح المجاورة، المشاة، السيارات، وحتى من بين جانبي أحد الجدران طرف النهر الأزرق الكبير. من هناك في العالي، كانت تبدو لي الأصوات أقل فظاظة. كنت أحس أني في مأمن.

حين كنت أبقى لوقت طويل فوق السطوح، كانت لالا أسمى تنادي باسمي. كانت تقضي طوال النهار في الغرفة الواسعة المفروشة بالوسائد الجلدية. كانت تعطيني كتاباً كي أقرأ لها أو هي تقرأ لأقوم بالإملاء. تسألني عن الدروس الماضية وتمتحنني، وكمكافأة لي كانت تسمح لي بالجلوس إلى جوارها في الغرفة وتضع في آلة البيك آب أسطوانات لمغنين تحبهم: أم كلثوم، سيد درويش، حبيبة مزيكا، وبالأخص فيروز ذات الصوت الدافئ القوي، فيروز الحلوة الجبلية التي تغني «يا قدس» ولالا أسمى تبكي دوماً لدى سماعها اسم القدس.

مرة في النهار كان يفتح الباب الأزرق الكبير ويسمح بدخول امرأة سمراء نحيلة لا أولاد لها، كانت تدعى زُهرة وهي كنة لالا

أسمى. تأتي كي تطبخ قليلاً لحماتها وبالأخص لتتفقد المنزل، كانت لالا أسمى تقول إنها تتفقدها كمُلك سترثه ذات يوم.

نادراً ما كان ابن لالا أسمى يأتي، يدعى عبل. كان رجلاً طويلاً وقوياً، يلبس بدلة رمادية جميلة. كان غنياً، يدير مشروع أعمال عامة، ويعمل في الخارج أيضاً، في إسبانيا وفي فرنسا. ولكن بحسب رواية لالا أسمى كانت زوجته تجبره على العيش مع حمويه، أناس لايطاقون متباهون، كانوا يفضلون المدينة الحديثة في الضفة الأخرى للنهر. احترست منه على الدوام. حين كنت صغيرة، ما إن يصل حتى أختبئ وراء الستائر، وكان ذلك يضحكه: «يا لها من متوحشة صغيرة!» وحين أصبحت أكبر ازداد خوفي منه أكثر. كان ينظر إليّ بطريقة خاصة كأنني غرض يمتلكه. زُهرة أيضاً كانت تخيفني ولكن ليس بالطريقة نفسها. ذات يوم ولأنني لم أنظف الغبار من الفناء قرصتني حتى أدمتني: «أيتها البائسة الصغيرة، يا يتيمة، حتى في الكناسة لا تجدين نفعاً!» صرختُ: «لست يتيمة، لالا أسمى جدتي». ضحكت علي، لكنها لم تجرؤ على ملاحقتي.

كانت لالا أسمى دائماً تدافع عني، لكنها كهلة ومتعبة. كانت ساقاها ضخمتين، وممتلئتين بعروق الدوالي. حين تكون منهكة وتشتكي، كنت أقول لها: «هل أنت مريضة يا جدتي؟» فتجعلني أقف أمامها باستقامة، تنظر إلي وهي تردد المثل العربي الذي تحبه جداً وتنطق به باحتفائية إلى حد ما وكأنها تبحث في كل مرة عن الترجمة الفرنسية الدقيقة:

«الصحة تاج على رؤوس الأصحاء، لا يراه إلا المرضى».

الآن لم تعد تجعلني أقرأ، ولم يعد لديها المزيد من الأفكار لاختراع الإملاء. تقضي معظم نهاراتها في الغرفة الخالية بمشاهدة التلفزيون. أو تطلب مني أن أحضر لها صندوق مجوهراتها وصحونها الفضية. ذات مرة أرتني زوجاً من الأقراط الذهبية: «أترين يا ليلى، هذا القرط سيكون لك حين أموت». ووضعت

القرطين في أذني. كانا عتيقين، قديمين، لهما شكل الهلال المقلوب في السماء. وحين نطقت لالا أسمى باسم الهلال، ظننت أنني أسمع اسمي. تخيلت أنهما القرطان اللذان كنت ألبسهما حين وصلت إلى الملّاح.

ـ يليقان بك كثيراً. تشبهين بلقيس ملكة سبأ.

وضعتُ القرطين في يدها، ثنيتُ أصابعها وقبّلتُ يدها.

ـ شكراً يا جدتي، أنت طيبة معي.

نهرتني:

ـ اذهبي، اذهبي، لكنني لم أمت بعد.

لم أعرف زوج لالا أسمى، باستثناء صورة له كانت تحتفظ بها في الغرفة. تتصدر فوق كومودينو بجانب ساعة رقاص متوقفة. سيدٌ هيئته صارمة، يلبس الأسود. كان محامياً وغنياً جداً لكنه غير وفيّ، وحين توفي لم يترك لزوجته سوى بيت الملّاح والقليل من المال لدى كاتب العدل. كان مايزال حياً حين أتيت إلى البيت لكني كنت صغيرة جداً كي أتذكره.

كان لدي أسبابي التي تجعلني أرتاب في عبل. كان عمري إحدى عشرة أو اثنتا عشرة سنة، وكانت زُهرة قد اصطحبت حماتها خارج البيت بشكل استثنائي كي ترى طبيباً أو للتسوق. دخل عبل البيت دون أن أشعر، لا شك أنه بحث عني في الداخل ووجدني في الغرفة الصغيرة في آخر الفناء حيث بيت الخلاء والمغسلة.

كان طويلاً وقوياً جداً حتى أنه سدّ الباب ولم أتمكن من الهروب. كنت مرتعبة ولا أستطيع الحراك في جميع الأحوال. اقترب مني، كانت حركاته عصبية وفظة. ربما كان يتكلم لكنني أملت رأسي نحو جهة أذني اليسرى كي لا أسمع. كان طويلاً، عريض الكتفين جبهته العارية تلمع بالضوء. ركع أمامي، راح يتلمس تحت فستاني،

يلمس فخذي، وأسفل بطني، كانت يداه خشنتين من الإسمنت. كنت أشعر كأن حيوانين باردين ويابسين يختبئان تحت ملابسي. خفت لدرجة شعرت معها بأن قلبي يخفق في حلقي. فجأة عاودني كل شيء، الشارع المضيء، الكيس، الضربات على رأسي. ثم أيدٍ تلامسني، تضغط فوق بطني وتؤلمني. لا أدري كيف فعلت ذلك، لكنني تبولت من شدة الخوف مثل كلبة. وهو يبتعد، رفع يديه ونجحت بالفرار من ورائه، تسللت كحيوان، عبرت الفناء وأنا أصرخ وحبست نفسي في الحمام لأنه الغرفة الوحيدة التي تغلق بالمفتاح. انتظرت وقلبي يدق بأعلى سرعة وأذني السليمة ملتصقة على الباب. أتى عبل، طرق على الباب، في البداية بنعومة بأطراف أصابعه ثم بشكل أقوى بقبضة يديه:

ـ ليلى! افتحي لي! ماذا تفعلين؟ افتحي، لن أفعل لك شيئاً!

ثم بدا لي أنه رحل فجلست على الأرض وظهري ملتصق على المغطس الذي صنعه لأمه.

بعد وقت طال، وقف أحدهم وراء الباب، كنت أسمع صدى الأصوات لكنني لم أكن أفهم ما يقال. طرق على الباب مرة أخرى وهذه المرة عرفت يد لالا أسمى. حين فتحت الباب كان يبدو علي أنني مرتاعة جداً حتى أنها ضمتني بين ذراعيها «ولكن ماذا فعلوا بك؟ ماذا حصل لك؟» كنت أزداد التصاقاً بها وأنا أمر أمام زُهرة. لكنني لم أقل شيئاً. صاحت زُهرة: «لقد أصبحت مجنونة، هذا كل ما في الأمر». لم تطرح عليّ لالا أسمى أي سؤال لكنها ابتداءً من ذلك النهار لم تتركني وحيدة حين يأتي عبل إلى البيت.

ذات يوم، وبينما كنت منهمكة بغسل خضار حساء لالا أسمى في المطبخ، سمعت خبطة قوية في البيت كارتطام شيء ثقيل على البلاط، جعل الكراسي تنقلب. وصلت مسرعة ورأيت السيدة العجوز على الأرض متمددة على طولها. ظننت أنها ميتة ورحت أركض هاربة للاختباء في مكان ما حين سمعتها تئن وتهمهم. لم تكن سوى

فاقدة الوعي. لدى سقوطها ارتطم رأسها بزاوية كرسي وكان يسيل من صدغها شيء من الدم الأسود.

كانت تهتز مرتجفة وعيناها منقلبتان. لم أكن أعرف ماذا أفعل. بعد برهة اقتربت منها، لمست وجهها. كان خدها متهدلاً وبارداً على نحو غريب. لكنها كانت تتنفس بعناء رافعة صدرها ولدى خروج الهواء منه كان يهز شفتيها بخرخرة مضحكة كأنها تشخر.

«لالا أسمى، لالا أسمى!» همست بالقرب من أذنها. كنت متأكدة أن باستطاعتها سماعي حيث هي لكنها غير قادرة على الحركة فقط. كنت أرى ارتعاش جفنيها المنفتخين قليلاً فوق بياض عينيها وكنت أعلم أنها تسمعني. «لالا أسمى! لا تموتي».

في هذه الأثناء وصلت زُهرة وكنت مأخوذة كلياً بنَفَس لالا أسمى البطيء حتى أنني لم أسمعها قادمة.

ـ أيتها الحمقاء، الساحرة الصغيرة، ماذا تفعلين هنا؟

سحبتني بعنف من كمّ ثوبي لدرجة أنه تمزق.

ـ اذهبي وأحضري الطبيب، ألا ترين أن أمي في أسوأ حالة!

كانت هذه المرة الأولى التي تتحدث فيها عن لالا أسمى كأنها أمها. وبما أنني بقيت متحجرة عند مدخل الباب، خلعت حذاءها البالي ورمتني به.

ـ اذهبي! ماذا تنتظرين؟

حينذاك، عبرت الفناء، دفعت الباب الأزرق الثقيل وبدأت بالجري في الشارع دون أن أدري أين أذهب. كانت تلك المرة الأولى التي أكون فيها خارجاً. لم يكن لدي أدنى فكرة أين يمكن إيجاد طبيب. لم أكن أعرف سوى شيء واحد، سوف تموت لالا أسمى وستكون غلطتي لأنني لم أتمكن من إيجاد أحد يعتني بها. تابعت الجري دون أن آخذ نَفَساً على طول الأزقة الناعسة من

الشمس. كان الطقس حاراً جداً والسماء صافية وجدران المنازل ناصعة البياض.

انعطفت من شارع لآخر حتى وصلت إلى مكان يمكن رؤية النهر منه وإلى البعيد أيضاً البحر وأشرعة السفن. كان المنظر جميلاً جداً حتى أنني ما عدت خائفة أبداً. توقفت في ظل حائط ونظرت قدر استطاعتي. كان ذلك المنظر نفسه الذي كنت أشاهده من أعلى سطح لالا أسمى، لكنه أرحب بكثير. على الطريق، كان هناك الكثير من السيارات والشاحنات والحافلات. لابد أنها كانت ساعة ذهاب الأولاد إلى المدرسة بعد الظهر، كانوا يمشون على الطريق، البنات يلبسن التنانير الزرقاء والقمصان الناصعة البياض، والصبية أقل أناقة، حليقو الرؤوس. كانوا يحملون الحقائب أو الكتب المحزومة بشريط مطاطي.

حين كانوا يمرّون بالقرب مني، شعرت كمن يخرج من نوم طويل. هُيّأ لي كأنهم يضحكون ويهزؤون، وعند الإمعان فيّ كنت أبدو بنظرهم غريبة كأنني قادمة من كوكب آخر بفستاني الفرنسي الطراز الممزق الكمّ، وشعري المجعد الطويل جداً. يبدو أنني بدوت في ظل الجدار مثل ساحرة.

مشيت في الشارع على غير هدى، باتجاه تلاميذ المدارس، ثم في شارع آخر مكتظ بالناس، كان هناك سوق، وأغطية منشورة لدرء الشمس. عند مدخل أحد البيوت، كان هناك رجل عجوز في دكان مصنوع من ألواح الخشب يعمل جالساً القرفصاء فوق طاولة منخفضة محاطاً بالبوابيج. كان يغرس بمطرقة نحاسية صغيرة المسامير الدقيقة في نعل. وفيما توقفت أتفرج عليه سألني:

ـ هل تريدين بابوجاً؟

كان يرى فعلاً أنني حافية.

ـ ماذا تريدين؟ هل أنت خرساء؟

نجحت بالكلام.

ـ أبحث عن طبيب لجدتي.

قلت ذلك بالفرنسية، ثم كررت بالعربية. لأنه كان ينظر إلي دون أن يفهم.

ـ ما بها؟

ـ سقطت، سوف تموت.

ـ لا يوجد طبيب هنا. هناك السيدة جميلة في الفندق، هناك. إنها قابلة، قد تستطيع المساعدة.

ركضت بالاتجاه الذي أشار إليه. بقي الحذّاء ساكناً ومطرقته النحاسية مرفوعة. صاح بي قائلاً شيئاً لم أفهمه مما جعل الناس تضحك.

كانت السيدة جميلة تعيش في بيت لم أتخيله أبداً. بدا قصراً خرباً، له جدران ترابية مدكوكة وعالية، وباب بمصراعين مفتوحين منذ زمن طويل لا يمكن إغلاقهما بعد الآن، يسدّهما الطين والحصى. كان على الواجهة قطع كساء خشن يدل على أن المنزل كان ورديا في السابق. وهناك نوافذ خشبية بارزة وشرفات منخورة. رغم خوفي دخلت إلى الفناء.

كان داخل بيت لالا أسمى عالماً منظماً، بالغ الدقة، نظافته مفرطة، واعتقدت أن كل الفناءات هكذا. لكن هنا، داخل الفندق، كانت الفوضى عارمة. هناك الكثير من الناس الغافين تحت الأفاريز، أو تحت بعض أشجار الأكاسيا الضامرة. ماعز، كلاب، أطفال، مناقل تخبو لوحدها، وفي كل مكان أكوام من الزبالة تقحطها دجاجات عجائز شبيهات بالنسور. على الجدران حول كل الفناء، في ظل الأفاريز، كان الباعة المتجولون قد كدّسوا حزمهم، ولكي يضمنوا حراستها ناموا فوقها. لم أكن أعي ماذا يفعل كل هؤلاء الناس، حتى أنني لم أكن أعرف ما تعنيه كلمة فندق. فيما كنت أعبر الفناء ببطء

مترددة أي اتجاه أسلك، ناداني من أعلى شرفة داخلية أحدهم وهو يومىء لي بحركات واضحة. كنت مبهورة من الشمس، أمعنت النظر في ظلام الرواق. سمعت صوتاً واضحاً:

ـ عمّن تبحثين؟

رأيت أخيراً سيدة متقدمة بالسن، تلبس فستاناً لازوردياً طويلاً. كانت مستندة على الدرابزين، تدخن وهي تنظر إلي، قلت اسم السيدة جميلة فأشارت لي:

ـ اصعدي. السلم في آخر القاعة أمامك.

وإذ بدا علي أنني لم أفهم صاحت:

ـ انتظريني.

قادتني عبر غرفة كبيرة مظلمة فيها حزم بضائع أخرى وأناس يستريحون. كان هناك عجائز يلعبون الدومينو فوق طاولة منخفضة وبالقرب منهم نارجيلة كبيرة. لم يبدُ على أحد أنه انتبه إلي.

كان الرواق في أعلى الدرج مضاءً من بقع الشمس المتخللة من ثقوب مصاريع النوافذ. كل الطابق العلوي تشغله نساء غريبات. بدت بعضهن شابات وأخريات بعمر زُهرة أو أكبر. كن بدينات، بشرتهن فاتحة، شعورهن محمرة من الحناء، شفاههن مصبوغة أو بنية داكنة، يحيط بعيونهن الكحل. كن يدخنَّ أمام الغرف جالسات القرفصاء على الأرض ودخان سجائرهن يخرج من عتمة الرواق ويتراقص تحت الشمس.

ـ أبحث عن السيدة جميلة.

بقيت في أعلى الدرج أضع قدماً على أرض الطابق العلوي. أظن أن الخوف من العودة دون طبيب وحده منعني من الرحيل ركضاً. أتت النساء يحطن بي. كنّ يتحدثن بصوت عال ويضحكن. كان دخان السجائر يملأ الهواء برائحة عذبة أدارت رأسي.

رحن يداعبن شعري، يلامسنه كأنهن لم يرين شيئاً مثله من قبل.

إحداهن، امرأة شابة يداها ناعمتان وصدرها مثقل بالمجوهرات، بدأت بضفر جدائل صغيرة في أعلى رأسي شابكة خيطاً أحمر بشعري. لم أجرؤ على الحراك. «انظرن كم هي جميلة، إنها أميرة حقيقية!»

لم أكن أفهم ما يقلنه، كنت أتساءل ما إذا كانت تلك النساء الجميلات بكل حليّهن ومساحيقهن يسخرن مني، إذا ما كنّ سيقرصنني، أو يشددن شعري. كن يتكلمن بسرعة وبصوت منخفض، وبسبب أذني المريضة لم أكن ألتقط كل الكلمات.

فيما بعد وصلت السيدة جميلة. كنت قد تخيلت قابلة طويلة وقوية بوجه متجهم، فشاهدت وصول امرأة قصيرة نحيلة، شعرها قصير، تلبس على الطريقة الأوروبية. نظرت إلي برهة. أبعدت النساء، وكأنها أدركت مشكلة أذني، دنت من وجهي وقالت ببطء:

ـ ماذا تريدين؟

ـ إنها جدتي، سوف تموت. يجب أن تأتي لترينها في منزلها.

ترددت ثم قالت:

ـ صحيح، أنا هنا من أجل الأطفال ومن أجل الجدّات المحتضرات.

راحت تمشي في الأزقة بخطوات واسعة وأنا أتعثر وراءها. من دونها ما كنت سأتوصل لمعرفة طريقي، لكن السيدة جميلة كانت تعرف بيت لالا أسمى.

حين وصلنا إلى البيت انقبض قلبي، كنت أظن خلال كل هذا الوقت أن لالا أسمى ماتت وأنني سوف أسمع صرخات كنتها الحادة. لكنها كانت حية. تجلس في كرسيها، في مكانها المعتاد وقدماها مسندتان فوق مقعد أمامها. عندها فقط بقايا من الدم الجاف فوق صدغها، في المكان الذي صدمت فيه رأسها لدى سقوطها.

رأتني لالا أسمى ولمعت نظرتها. كانت ماتزال ترتجف. شدت على يدي بغاية القوة. شعرت أنها ترغب بالكلام ولا تستطيع. لم أكن أعرف أنها تحبني إلى هذه الدرجة وهذا ماجعلني فجأة أبكي للحظة.

ـ لا تتحركي يا جدتي، سأعدّ لك الشاي كما تحبينه.

ثم شاهدت السيدة جميلة عند عتبة الغرفة. إذ أن لالا أسمى لم تعد تحتضر ولاتحتاج لأحد بعد الآن. لم تكن لالا أسمى تحب أن يدخل إلى بيتها غرباء. قلت للسيدة جميلة:

ـ لقد تحسنت، لم تعد تحتاجك.

رافقتها حتى الباب. أردت دفع أجرة زيارتها من دراهم مصاريف البيت لكنها رفضت. قالت لي وهي تنظر إلى وجهي مباشرة:

ـ ربما عليك إحضار طبيب حقيقي، هناك شيء معطوب في رأسها، لهذا سقطت.

سألتُ:

ـ هل ستعاود الكلام؟

هزت السيدة جميلة رأسها:

ـ لن تعود إلى سابق عهدها أبداً. ذات يوم ستسقط ولن تعود. هكذا هي الأمور. لكن عليك البقاء معها حتى آخر نَفَس. وكررت العبارة بالعربية والتي لن أنساها: «حتى تخرج روحها».

جاءت زُهرة بعد قليل. لم أحدثها عن السيدة جميلة، كانت لتصفعني لو أنها علمت أن جلّ ما استطعته هو إحضار قابلة من أحد الفنادق القديمة. كذبت:

ـ قال الطبيب إنها ستتحسن وسوف يعود الأسبوع القادم.

ـ والأدوية؟

ـ لم يعطها دواءً؟

هززت برأسي.

ـ قال لاأهمية للأمر ستعود كما في السابق.

كانت زُهرة تتكلم بصوت قوي بالقرب من أذن لالا أسمى كأنها صماء.

ـ أتسمعين يا أمي؟ قال الطبيب إنك بصحة جيدة.

ولكن منذ عدة شهور ولالا أسمى لا توجه الكلام إلى كنتها ولم تنتبه زُهرة إلى شيء. بعد أن رحلت، ساعدت لالا أسمى على المشي حتى سريرها. كانت مشيتها مضحكة تتقافز مثل شحرور وصارت نظرتها الخضراء شفافة، حزينة وبعيدة.

فجأة، انتابني الخوف مما قد يحصل. حتى ذلك الوقت لم أكن قد سألت نفسي حين لن تعود لالا أسمى موجودة ماذا سيحصل لي؟ ماذا عن هذا المنزل، عن وراء الجدران العالية، عن الجانب الآخر من الباب الأزرق الكبير، عن رؤية المدينة من أعلى السطح حيث كنت أنشر الغسيل. شعرت حينذاك أنه لن يصيبني مكروه أبداً.

نظرت إلى معلمتي، إلى وجهها الكهل المتورم، صارت عيناها مثل فتحتين لا لون لهما، وخفّ شعرها الشائب المُحنّى.

ـ جدتي، جدتي، لن تتركيني أبداً؟

كانت الدموع تسيل على وجنتي ولم أتمكن من إيقافها.

ـ أليس كذلك يا جدتي لن تتركيني؟

أعتقد حقيقة أنها سمعت ما كنت أقوله لها، لأنني شاهدت جفنيها يخفقان وشفتيها ترتعشان. وضعت يديَّ بين يديها كي تشدهما بقوة.

ـ سأعتني بك جيداً يا جدتي، لن أدع أحداً يقترب منك، بالأخص زُهرة. سأعدّ لك الشاي، سوف أطعمك، سأذهب لأحضر لك خبزك

وخضارك الآن، لم أعد أخشى الذهاب إلى الخارج. لم نعد بحاجة لزُهرة.

كنت أتكلم ودموعي تجري بلا توقف. بإمكاني القول إنها المرة الأولى، أنا التي لم أبكِ من قبل، حتى عندما كانت زُهرة تقرصني إلى حد الإدماء.

لكن لالا أسمى لم تعد كما في السابق. على العكس، كانت كل يوم تزداد سوءاً. لم تعد تأكل. حين كنت أحاول إشرابها، كان الشاي البارد يسيل من جانبي فمها ويبلل ثوبها. تشققت شفتاها وتقشرتا. صار جلدها جافاً بلون الرمل. وعلي القول إنها كانت تفعلها تحتها. هي التي كانت في غاية النظافة واللباقة. كنت أغير لها ملابسها الوسخة. لم أكن أريد أن تراها زُهرة وعبل بهذه الحالة. كنت واثقة أنها خجلة وتعي كل شيء. حين تدخل زُهرة إلى الغرفة، كانت تقطب أنفها: «ما هذه الرائحة الكريهة؟» فكنت أقول لها إنهم يقومون بالأعمال في المنزل المجاور، يفرغون الحفرة الصحية. كانت زُهرة تنظر إلى لالا أسمى بهيئة حيرانة، وتوبخني:

ـ ذلك لأنك لا تقومين بتنظيف البيت جيداً، انظري إلى هذه الفوضى.

كانت تحاول أن تفهم ما الذي لا يجري على يرام. وكي لا تحزر حالة لالا أسمى، كنت أمشط شعرها في الصباح، أصبغ وجنتيها بالبودرة الوردية، وأضع زبدة الكاكاو فوق شفتيها. ثم أضع صينية النحاس إلى جانبها على الطاولة، مع إبريق الشاي والأقداح، وأسكب القليل من الشاي الحلو في الأقداح كأن لالا أسمى قد شربت منه.

لم أكن أتركها. في الليل، كنت أنام على الأرض إلى جانبها، ملفوفة بغطاء السرير. أذكر أنه كان هناك ناموس طوال الليل، أصغي لأزيزه في أذني، وفي الصباح أستدير كي أنام قليلاً. كنت أنسى أنفاس لالا أسمى الأليمة، أحلم بأننا رحلنا أخيراً فوق السفينة

الشهيرة التي كانت تتحدث عنها، من مليلة نحو مالاقا، وأبعد قليلاً، حتى فرنسا.

ذات ليلة، ساءت الأمور إلى حد كبير. لم أدرك ذلك فوراً. كانت لالا أسمى تختنق. راح تنفسها يحدث شخرة كمصهر الحداد، ولدى كل زفرة كان هناك صوت بقبقة. بقيت بلا حراك متمددة على الأرض، لا أجرؤ على الحراك. كانت الغرفة مظلمة مع شيء من نور القمر في الفناء. لكنني لم أتمكن من الذهاب إلى هناك. كنت أنتظر، أريد أن ينجلي الصباح. كنت أفكر: ما إن تطلع الشمس ستستيقظ لالا أسمى، ستتوقف عن الشخير والاختناق بصوتها المبقبق.

في الصباح الباكر غفوت لشدة تعبي. ربما ماتت لالا أسمى عند ذلك الوقت ولهذا تمكنت من النوم أخيراً.

حين استيقظت وقت الضحى كانت زُهرة بجانب السرير تبكي بصوت عالٍ. فجأة رأتني والتوى فمها من الغضب. راحت تضربني بكل مايقع تحت يدها، منشفة، مجلات، ثم خلعت حذاءها لتضربني وهربت إلى الفناء. كانت تصيح:

ـ أيتها البائسة، ساحرة صغيرة، ماتت أمي وأنت تنامين بهدوء! مجرمة!

اختبأت في المطبخ تحت منضدة، كما كنت أفعل عندما كنت صغيرة أرتجف من الخوف. لحسن الحظ وصلت إحدى الجارات في تلك اللحظة. كان الصراخ قد نبهها. ثم وصل عبل أيضاً وهدَّؤوا زُهرة. كانت تحمل سكيناً بيدها، كأنها تريد أن تقتلني، وهي ماتزال تصرخ: «ساحرة، مجرمة!» فأجلسوها في الفناء، وأعطوها كأس ماء.

تسللتُ خارج المطبخ، عبرتُ الفناء وأنا أدبّ على أربعة على طول الجدار في الظل. كنت حافية القدمين، وليس على بدني سوى فستاني المجعد الذي نمت فيه، مشعثة الشعر، لاشك أنني كنت أبدو كمجرمة.

نجحت بالتسلل عبر الباب الأزرق الكبير الذي بقي موارباً. ثم بدأت بالجري في الشوارع، مثل اليوم الذي ذهبت فيه بحثاً عن القابلة. كنت خائفة جداً أن يمسكوا بي ويضعوني في السجن لأنني تركت لالا أسمى تموت.

هكذا ودون رجعة غادرت بيت الملّاح. لم أكن أملك شيئاً، ولاقرشاً واحداً، بقدمي الحافيين وردائي العتيق، ولاحتى قرطي الذهبيين، الهلالان اللذان وعدتني بهما لالا أسمى بعد موتها. شعرت بأنني معوزة أكثر من اليوم الذي باعني فيه السارقون للالا أسمى.

2

كان الفندق مختلفاً عن كل ما عرفته من قبل. بدا مسكناً مفتوحاً على الجهات الأربع، يقع في شارع كثير الحركة يزدحم بالشاحنات الصغيرة، والسيارات والدراجات النارية. كان السوق على بعد خطوتين منه، مبنى إسمنتي كبير نجد فيه كل ما نريد، لحوم، خضار، وكذلك الأحذية، وسجّادات أو دلاء من البلاستيك.

لدى مغادرتي بيت لالا أسمى، لم أكن أعرف أين أذهب. لم أكن أعرف سوى شيء واحد أنه علي الاختباء في مكان لايجدني فيه عبل وزُهرة، حتى ولو أرسلوا الشرطة للبحث عني. هرولت على طول الشوارع في الظل، بمحاذاة الجدران مثل قطة تائهة. كانت ماتزال تدوّي في رأسي صرخات زُهرة: «اخرجي! مجرمة!» وكنت متأكدة أنها لو أمسكت بي لوضعتني في السجن. رغماً عني اتجهت خطواتي نحو الشارع الذي ذهبت إليه لإحضار طبيب للالا أسمى. عندما تعرفت على المبنى ببابه الكبير ذي المصراعين الكبيرين المفتوحتين، وجَفَ قلبي من السعادة. كنت متأكدة أن زُهرة لن تتمكن من العثور علي هنا.

لم تكن السيدة جميلة في الفندق، فقد استدعيت إلى مكان ما لأمر عاجل. جلست حينذاك بكل رصانة على الشرفة مسندة ظهري على الحائط وانتظرتها إلى جانب بابها.

في المرة الأولى التي أتيت فيها، كنت على عجلة من أمري، لم يتسنَّ لي الوقت لأشاهد ما يجري في الفندق. الآن أعاين كل شيء

بالتفصيل: الناس الذين يدخلون الفناء ويخرجون دون توقف، الباعة المتجولون بأسمالهم المثقلة مثل الحمير، الباعة الذين يضعون حزم بضائعهم تحت القناطر. هناك باعة خضار، باعة تمور، وشبان ينقلون حمولات غريبة تتوازن فوق دراجاتهم الهوائية، علب ألعاب بلاستيكية، شرائط موسيقا، ساعات، نظارات سوداء. كنت أعرف بضائعهم جميعها، لأنهم غالباً ما كانوا يأتون يدقون باب لالا أسمى، ربما لأنها لم تكن تستطيع الخروج للقيام بالمشتريات، فتجعلهم يبسطون سلعهم في الفناء وتشتري منهم أشياء لم تكن تحتاجها، أقلام حبر، قوالب صابون، مما كان يغضب كنتها.

ـ أمي، ماذا ستفعلين بها؟

كانت لالا أسمى تهز برأسها.

ـ ربما ذات يوم سأكون مسرورة لشرائي ذلك.

لم أتخيل أبداً أن الباعة الجوالين يمكن أن يكونوا في مكان مثل هذا الفناء.

الطابق الأعلى كانت تسكنه نساء شابات رأيتهن للمرة الأولى، كنّ في غاية الأناقة والجمال، ولسذاجتي اعتقدت أنهن أميرات. في هذه الساعة، كن ما يزلن نائمات في الغرف وراء الأبواب العالية الموارية.

تلصصت عبر الشق، فشاهدت إحدى الأميرات مستلقية فوق سرير كبير. خلال لحظة ميَّزتُ شكلها. كانت مستلقية عارية تماماً فوق الملاءات، شعرها يغطي وجهها، ودهشت من رؤية بطنها الناصع البياض، وعضوها المنزوع الشعر كلياً. لم أرَ شيئاً كهذا أبداً. لم تكن لالا أسمى تصطحبني إلى الحمامات أبداً، وحتى آخر أيامها، لم تشأ أن أراها بدون ملابس. كما أن جسدي النحيل والأسود لم يكن يشبه هذا الجسد الشديد البياض وهذا الشيء النائم. أعتقد أنني تراجعت خائفة قليلاً وراحتا يديّ تعرقتا.

انتظرت طويلاً تحت الرواق مركزة انتباهي على رواح ومجيء الباعة في الفناء. لم أكن قد أكلت منذ الأمس، كنت خائفة جداً وأكاد أموت من العطش.

في الأسفل، داخل الفناء، كان هناك بئر ولاحظت تحت القناطر رزمة من الفاكهة المجففة مفتوحة قليلاً كانت عصافير الدوري تأتي وتنقرها. تسللت عبر الدرج حتى الرزمة. كنت خجلة قليلاً لأن لالا أسمى قالت لي دوماً إنه ليس هناك شر أكبر من سرقة الآخر بسبب الخيانة وليس بسبب الشيء الذي نسرقه منه، لكنني كنت جائعة وكانت دروس لالا أسمى قد صارت بعيدة الآن.

جلست القرفصاء بجانب الكيس المفتوح وأكلت تمراً وتيناً وقبضة زبيب أخرجتها من غلاف بلاستيكي. أعتقد أنني كنت سآكل أكبر قسم من الرزمة لو لم يصل صاحب البضاعة بصمت من ورائي ويقبض عليّ. أمسك شعري بيده اليسرى وبالأخرى رفع حزاماً.

ـ أيتها الزنجية الصغيرة، ياسارقة، سوف أريك ما أفعل بأناس مثلك!

أذكر أن أكثر ما آلمني ليس لأنني أُخذتُ على حين غرة، لكن الطريقة التي كان يشبك فيها البائع أصابعه في شعري السميك ويدعوني: «سَوْدا!». إن أحداً لم يقل لي شيئاً كهذا من قبل أبداً، حتى زُهرة حين كانت تغضب، فهي تعلم أن لالا أسمى لن تتحمل ذلك.

حاولت التخلص منه، ولكي أجعله يرخي قبضته عضضته حتى أدميته. وقفت بمواجهته وصرخت:

ـ لست سارقة، سأدفع لك ثمن ما أكلت!

في اللحظة نفسها وصلت السيدة جميلة وانحنت فوق الشرفات سيدات الطابق العلوي يشتمن البائع صارخات به بألفاظ لم أكن قد سمعتها أبداً. حتى أن واحدة من الأميرات لم تجد شيئاً تقذفه به أفضل من قطع نقدية من عشر أوعشرين قرشاً وهي تصيح به:

ـ خذ، ها هو مالك، حرامي، ابن كلب!

بقي مذهولاً وتراجع تحت صخب النساء ووابل القطع النقدية الصغيرة، إلى أن أخذتني السيدة جميلة من ذراعي واصطحبتني معها نحو الطابق العلوي. أعتقد أنني كنت ماأزال أمسك بيدي قبضة الزبيب التي لم أفلتها، حتى عندما سحبني البائع من شعري وضربني بالحزام. لكن الخوف باغتني فجأة، أو بالأحرى كان ذلك بسبب كل ما حصل في الأوقات الأخيرة تلك. لالا أسمى التي وقعت فوق الأرضية وزُهرة التي طردتني وهي تسرق مني القرطين اللذين أمتلكهما. رحت أبكي وأنا على السلالم بصوت عال لدرجة أنني لم أتمكن من صعود الدرجات. السيدة جميلة التي لم تكن أطول مني بكثير حملتني حقيقةً إلى الأعلى كأنني طفلة صغيرة. كانت تردد في أذني: «يا ابنتي، يا ابنتي»، وأنا أبكي أكثر لأنني في اليوم نفسه فقدت جدتي وعثرت على أم.

في أعلى السلم، كانت الأميرات (هكذا كنت أدعوهن في سرّي، حتى حين فهمت أنهن لسن أميرات في الحقيقة) بانتظاري مع آلاف الملاطفات ومظاهر المودة. سألوني عن اسمي، ورحن يرددنه بينهن: ليلى، ليلى. أحضرن لي الشاي الداكن وحلويات بالعسل، وأكلت قدر ماستطعت. ثم هيّأن لي فراشاً في غرفة كبيرة مظلمة وباردة، فيها وسائد موضوعة على الأرض، ونمت فوراً رغم جلبة الفندق، يهدهدني صوت موسيقا من جهاز راديو في الفناء. وهكذا دخلت إلى حياة السيدة جميلة صانعة الملائكة وأميراتها الست.

3

انتظمت حياتي في الفندق بهدوء على نحو رائع، وبوسعي القول دون مبالغة بأنها كانت أسعد فترة في حياتي. لم يكن عندي أي إكراه، أي هم، ووجدت في شخص السيدة جميلة والأميرات كل الرضا وكل العطف اللذين كنت محرومة منهما حتى ذلك الحين.

حين أجوع، كنت آكل، وأنام حين أشعر بالنعاس، وعندما أرغب بالخروج (وهذا ما كان يحصل باستمرار تقريباً)، أخرج دون أن أسأل أي كان. الحرية الكاملة التي كنت أستمتع بها في الفندق هي نفسها حرية النساء اللواتي أشاركهن العيش. لم يكن لديهن توقيت، لهذا كنّ سعيدات. تبنينني مثل ابنتهن، أو بالأحرى مثل دمية، أخت صغيرة جداً. فوق ذلك، كن يناديننني هكذا. السيدة جميلة تقول: «ابنتي»، فاطمة، زبيدة، عائشة، سليمة، حورية، تغريدة، يقلن: «أختي الصغيرة» لكن تغريدة كانت تقول أحياناً «ابنتي» أيضاً، لأنها في الحقيقة كانت بسن يمكن أن تكون كوالدتي. كنت أنام بالدور في أي غرفة تشغلها أميرتان، ماعدا تغريدة التي تمتلك الغرفة الكبيرة عديمة النوافذ حيث نمت في المرة الأولى. كان لدى السيدة جميلة جناح في الجانب الآخر للرواق له نافذة على الشارع. كنت أنام هناك أحياناً أيضاً، ولكن نادراً جداً، بسبب انشغالات السيدة جميلة وعيادتها الاستشارية حيث تقيم نساء لديهن مشاكل حَمْل. حين يكون لديها مريضات كنت أعرف أنه يجب ألا أذهب وأقرع الباب. في تلك الأمسيات كانت تغلق الباب بالمزلاج، وكنت أرى من خلال

الستائر فانوساً نقالاً تتركه مضيئاً داخل العيادة. كانت تلك إشارة أفهمها بسرعة.

كانت الأميرات يحببنني. كنّ يكلفنني بحاجاتهن وشؤونهن. أذهب لإحضار الشاي لهن من الفناء أو أذهب لشراء الكاتو والسجائر من السوق. كنت أحمل رسائلهن إلى البريد. أحياناً كن يصطحبنني معهن للتسوق من المدينة، لا لحمل أكياسهن (لهذه المهمة كان لديهن دوماً صبية صغار)، إنما لأساعدهن في الشراء ولأجادل بالأسعار. كانت لالا أسمى قد علمتني الشراء بالمساومة مع الباعة المتجولين اللذين يقرعون بابها، وأنا تعلمت الدرس جيداً.

زبيدة كانت تحب جداً الذهاب معي إلى سوق الأقمشة. تختار القطنيات لفستان أو لغطاء سرير. كانت طويلة ونحيلة ذات بشرة حليبية وشعر بسواد السبج. تلف نفسها بالقماش وتتقدم نحو الضوء:

ـ كيف تجدينني؟

كنت آخذ وقتي للرد. أقول لها بكل جدية:

ـ إنه جميل ولكن الأزرق الداكن سيليق بك أكثر.

كان الباعة يعرفونني، يعلمون أنني أساوم بضراوة كأنني أنا التي ستدفع. لم يكن باستطاعتهم خداعي بشأن النوعية، هذا أيضاً تعلمته من لالا أسمى. ذات يوم منعت فاطمة من شراء حلية تعلق بسلسلة من الذهب والفيروز. رننته على أسناني.

ـ انظري يا فاطمة، إنه ليس حجراً حقيقياً، إنه قطعة معدن مطلية أترين؟ لاشيء بداخله.

ثار غضب البائع لكن فاطمة وبخته.

ـ اسكت. أختي الصغيرة دائماً على حق. عليك أن تفرح لأني لم أرسلك أمام القاضي.

ابتداء من ذلك اليوم ازداد اهتمام الأميرات بي. كن يروين اكتشافاتي أمام كل الناس، والآن حتى باعة الفندق المتجولون يسلمون علي باحترام. كانوا يأتون إلي كي يطلبوا مني التدخل لدى هذه أو تلك، بدؤوا يحاولون شرائي بتقديم الهدايا لي، لكنني لست مغفلة. كنت آخذ السكاكر والحلويات وأقول لفاطمة أو لزبيدة:

ـ احترسي منه، إنه بالتأكيد غير شريف.

كانت السيدة جميلة تعرف كل ما يجري. لم تكن تتحدث لكنني كنت أرى جيداً أنها غير راضية. حين أذهب للتسوق أو حين تصطحبني إحدى الأميرات إلى الخارج، كانت تتابعني بنظرتها وتقول لفاطمة بنوع من الملامة:

ـ تأخذينها إلى هناك؟

أو أنها تحاول منعي، تعطيني مهمات أقوم بها، صفحات لأنسخها، حساب، علوم طبيعية. كانت تريد أن تعلمني الكتابة بالعربية، إذ إن لديها طموحات من أجلي.

لكنني لم أكن أنتبه تماماً لما كانت تريد قوله لي. كنت منتشية بالحرية، لأنني عشت منغلقة لوقت طويل وكنت مستعدة للهروب لو أراد أحد ما حجزي.

حتى اليوم ما أزال أجد صعوبة بالتصديق، فالأميرات لسن أميرات. كنت ألهو معهن. بالأخص زبيدة وسليمة اللتان كانتا صغيرتين، مستهترتين، تضحكان كل الوقت. هربتا من قرية في الجبل. كانتا تعيشان داخل زوبعة من الرجال، تصعدان داخل سيارات أميركية جميلة تأتي لأخذهما من باب الفندق. أذكر ذات مساء قدوم سيارة سوداء طويلة بزجاج معتم، تحمل علمين على جانبيها، أعلام خضراء وبيضاء وحمراء مع أسود أيضاً. قالت لي تغريدة:

ـ هذا رجل ذو سلطة وغني.

حاولت رؤية داخل السيارة، لكن الزجاج كان قاتماً جداً لايسمح بإظهار شيء.

ـ هل هو ملك؟

أجابت تغريدة دون أن تهزأ بي:

ـ إنه شخص هام مثل ملك.

كنت أحب كثيرا وجه تغريدة، لم تكن صغيرة السن، كان لديها تجاعيد ظاهرة عند زوايا عينيها، كأنها كانت تبتسم، بشرتها داكنة جداً، مثلي، سوداء تقريباً مع أوشام صغيرة مرسومة فوق جبهتها. أذهب معها مرتين في الأسبوع إلى الحمّام الذي كان عند مصب النهر قرب رصيف القوارب. كانت تغريدة تعطيني منشفة كبيرة، تأخذ معها حقيبة لأغراضها النظيفة، ونذهب سوياً. في زمن لالا أسمى لم أكن أتخيل وجود مكان كهذا، ولم أتخيل نفسي أبداً أقف عارية تماماً أمام نساء أخريات.

لم يكن لدى تغريدة أي حياء. تروح وتجيء أمامي دون ملابس، تفرك جسدها بأحجار الخفان، تدعك جسدها بقفازات من الليف النياتي. كان لديها ثديان ضخمان بحلمتين بنفسجيتين وعند وركيها وبطنها يشكل جلدها ثنيات. تنزع شعر عانتها وتحت إبطيها وساقيها بعناية. كنت أبدو إلى جانبها زنجية صغيرة نحيلة، ورغم كل شيء، لم أستطع منع نفسي من تخبئة عانتي بمنشفة.

كانت تغريدة ترغب أن أدلك ظهرها ورقبتها بزيت النارجيلة الذي تشتريه من السوق والذي ينشر عطراً مغثياً من الفانيلا. في غرفة الحمام الكبيرة المشتركة، تبدو سحب الأبخرة تنزلق فوق الأجساد، كان هناك جلبة أصوات، صيحات، وهتافات. صبيان صغار عراة تماماً يركضون على طول فسقية الماء الحار وهم

يزعقون. كان كل ذلك يدير رأسي ويشعرني بالغثيان. «تابعي يا ليلى، يداك قويتان، ذلك يريحني».

لم أكن أدري إذا كنت أحب ذلك. فقد كنت أستمر بإدخال الزيت إلى جلد ظهر تغريدة، أستنشق رائحة الفانيلا والعرق. ثم لكي توقظني، كانت ترشني بالماء البارد، تضحك حين أهرب وشعر جسمي كله قد اقشعر.

غدوت جلّابة السعد للفندق. ربما من أجل هذا لم تكن السيدة جميلة مسرورة. لاريب أنها فكرت أنني أُطريت ودُللت كثيراً من قبل الأميرات وذلك قد يفسد طباعي.

لكثرة ما سمعت تلك النساء يتهللن طول النهار: «آه! كم هي جميلة!»، ويلبسنني بحسب أهوائهن، انتهى بي الأمر إلى تصديقهن. كنت أسلم نفسي إلى نزواتهن بكل غرور. يبهرجنني بالفساتين الطويلة، يصبغن أظافري بالأحمر، وشفاهي بالقرمزي، يدهنني بمساحيق التجميل، يرسمن عيني بالكحل. سليمة السودانية الأصل، كانت تهتم بتسريحتي. تقسم شعري مربعات صغيرة، تجدلها بخيط أحمر أو بلآلىء ملونة. أو تغسله بصابونة الكاكاو لجعله أكثر جفافاً ومنتفخاً كلبدة أسد. كانت تقول لي إن أجمل مافي هو جبهتي ورموشي الطويلة والمقوسة بشكل رائع وعيناي اللوزيتان. ربما تقول لي ذلك لأنني أشبهها.

كانت تغريدة ترسم على يدي بالحنّة أو تخطّ فوق جبيني وخدّي نفس العلامات التي تحملها مستخدمة طرف قشة مغموسة بهباب مصباح. وتعلمني العزف على الدربكة وأنا أرقص وسط غرفتها. حين كانت بقية النساء يسمعن صوت الطبلات الصغيرة كن يأتين وأرقص لهن حافية القدمين فوق البلاط وأنا أدور حول نفسي حتى أُصاب بالدوار.

بهذه الحركات الصبيانية كنت أمضي القسم الأكبر من أوقات بعد الظهيرة. في المساء كانت الأميرات تصرفنني لاستقبال

زوارهن، أو أذهب إلى غرفة اللواتي يخرجن بالسيارات. كانت السيدة جميلة تغسل لي وجهي بطرف منشفة مبللة: «ماذا فعلن بك! إنهن مجنونات». كنت بشعري المنفوش والكحل المنساب وأحمر الشفاه المتفشي، أشبه بدمية فاشلة الصنع، لم تكن السيدة جميلة تستطيع كبح نفسها من الضحك علي. حين أنام تهدهدني دوامة ذكريات تلك الأيام الطويلة جداً، طويلة جداً لدرجة أنني لم أعد أذكر كيف بدأت.

كانت حورية هي المفضلة لدي، الأصغر سناً وآخر القادمات إلى الفندق. وصلت قبل مجيئي ببضعة أيام. أتت من قرية بربرية بعيدة في الجنوب. تزوجت من رجل غني من طنجة يضربها وينام معها بالقوة. في أحد الأيام، جهّزتْ حقيبة صغيرة وولت هاربة. تغريدة هي التي التقطتها من شارع قرب محطة القطار وأحضرتها إلى هنا كي تتمكن من الاختباء والفرار من رجال زوجها. كانت السيدة جميلة محترسة، وافقت بشرط أن ترحل حورية ما إن يزول الخطر. فهي لم تكن تريد متاعب مع الشرطة.

كانت حورية قصيرة ونحيلة، لها هيئة طفلة تقريباً. أصبحنا صديقتين بسرعة وبدأت تصطحبني إلى كل مكان معها، حتى في المساء إلى المطاعم وعلب الليل. تقدمني إلى أصدقائها كأختها الصغيرة. «إنها أختي، ألا تشبهني؟»

كان لها وجه جميل منتظم وحاجبان مرسومان بشكل جيد وأجمل عينين خضراوين رأيتهما على الإطلاق. لم أكن أطرح عليها أسئلة عن كيفية كسبها للمال. كنت أظن أنها تتلقى الهدايا لأنها تعرف الرقص والغناء، ولأنها جميلة. لم يكن لدي أي فكرة ما هي المهنة، ما هو حسن وما هو سيء. كنت أعيش كحيوان أليف. أجد حسناً مايلاطفني ويعطف علي وسيئاً كل ماهو خطِر ويخيفني مثل عبل الذي كان ينظر إلي كأنه يريد أكلي، أو زُهرة التي أرسلت الشرطة للبحث عني بروايتها أنني سرقت حماتها.

أكثر ما كان يخيفني هو الوحدة. أحياناً وأثناء نومي، كنت أعيش من جديد ما حدث لي منذ وقت طويل عندما سرقوني، أرى النور في شارع شديد البياض، وأسمع الصرخة الضارية للطير الأسود. أو أسمع صوت العظام تطقطق داخل رأسي حين صدمتني الشاحنة.

حينذاك، أنسل إلى سرير حورية وألتصق بها بشدة، أتمسك بظهرها كأنني سأغيب عن الوعي. هي أول من حدثني عن أصولي، فعندما حكيت لها عن القرطين اللذين سرقتهما مني زُهرة، قالت لي إنها تعرف أين كان أهل قبيلتي، آل هلال، هلال القمر، في الجانب الآخر من الجبال، على ضفة نهر كبير جُفِّف. وأنا كنت أحلم بالذهاب إلى هناك، إلى تلك القرية، وأدخل إلى الشارع، وفي آخر الشارع كانت أمي هناك تنتظرني.

لكن حورية لم تبقَ طويلاً في الفندق. ذات صباح رحلت. إلا أن ذلك لم يحدث بسبب زوجها. بل حدث بسببي.

في إحدى الأمسيات، ذهبت مع حورية وأصدقائها إلى مطعم على شاطىء البحر. سرنا في الليل لوقت طويل إلى أن وصلنا إلى شاطىء كبير وخالٍ. كنت في المقعد الخلفي للسيارة المرسيدس قرب الباب، وحورية في الوسط مع رجل. كان هناك أيضاً في الأمام رجلان وامرأة شقراء. راحوا يتحدثون بصوت عالٍ بلغة لا أفهمها. اعتقدت أنها ربما الروسية. أذكر جيداً أن الرجل الذي يقود كان طويلاً وقوياً مثل عبل، شعره كثيف وله لحية. أذكر أيضاً أن له عين زرقاء وعين سوداء. مكثنا في المطعم وقتاً لابأس به، كانت الساعة تقارب منتصف الليل. وكان مطعماً فاخراً فيه نوع من المشاعل تضيء رمل الشاطىء والنُدل ببدلات بيضاء. قضيت السهرة أتفرج على البحر الأسود، وأنوار قوارب الصيد العائدة، وبريق منارة في البعيد. كانت المرأة الشقراء تتكلم وتضحك بصوت عالٍ والرجال يحيطون بحورية. راحت الريح الداخلة من النافذة المفتوحة تحمل

دخان السجائر. شربت النبيذ الأبيض خفية، سائق المرسيدس هو الذي سقاني من كأسه، نبيذ طيّبٌ جداً وحلو المذاق يدفيء الصدر. كان يحدثني بالفرنسية، بلهجة مضحكة، ثقيلة قليلاً، ويتعثر بالكلمات. كنت تعبة جداً، حتى أنني غفوت فوق مقعد صغير بالقرب من النافذة.

فيما بعد استيقظت داخل السيارة. كنت وحيدة في الخلف. وكان السائق منحنياً فوقي، أرى شعره المجعد يضيئه نور المطعم. لم أفهم فوراً، لكنه حين وضع يده تحت ثوبي استيقظت حقاً. كنت ثملة، وأريد التقيؤ. رغماً عني، شرعت بالصراخ. كنت خائفة، ولأن السائق يريد وضع يده على فمي، عضضته. رحت أزعق وأخمش وأعض.

وصلت حورية في الحال. كانت مسعورة أكثر مني. سحبت الرجل إلى الوراء وراحت تضربه بقبضات يديها. كانت تطلق الشتائم والرجل يحاول الرد متراجعاً إلى الشاطىء. التقطت حورية حجراً كبيراً. كانت ستقتله لو لم يصل الآخرون. استمرت بشتم السائق وبدأت تبكي، وأنا أيضاً كنت أبكي. احتمى السائق في الجانب الآخر للسيارة، أشعل سيجارة كأن شيئاً لم يحدث. بعد برهة، هدأت حورية وتمكنا من العودة بالسيارة. كان السائق يقود دون النظر إلينا وسيجارته في فمه، ولا أحد يقول شيئاً، حتى المرأة الروسية كانت صامتة.

أنزلتنا سيارة المرسيدس في السويقة وتابعنا المسير حتى الفندق. كان مايزال هناك الكثير من الناس في الخارج، لابد أنه مساء يوم سبت. كان شارع العشاق الواسع مكتظاً، بوجود ثنائي تحت كل شجرة ماغنوليا. اشترت حورية من الشارع كأسين من الشاي وحلويات. كنا منهكتين ونرتجف نحن الاثنتان، كأننا خرجنا من حادث. لم تتحدث عما جرى سوى ما قالته مرة واحدة:

ـ ابن الكلبة ذاك، قال لي اتركيها تنام، سأسهر عليها مثل أب.

علمت السيدة جميلة بما جرى على الشاطىء. لكن ليس هي من طلبت منها الرحيل. ففي صباح اليوم التالي أخذت حورية حقيبتها، تلك التي كانت معها حين صادفتها تغريدة هائمة في محطة القطار. ورحلت دون تفسيرات. ربما عادت إلى زوجها في طنجة. لم أعرف عنها شيئاً لمدة شهور، لكن رحيلها جعلني حزينة جداً، لأنها كانت فعلاً وإلى حد ما مثل أختي.

بعد ذلك حاولت السيدة جميلة منعي من الخروج مع بقية الأميرات، لكنني كنت قد تعودت الحرية مع حورية ولا أفعل إلا ما يحلو لي. مع عائشة وسليمة، اتخذت عادة أخرى، فقد بدأت أسرق.

بدأتُ هذا مع سليمة. حين كانت تستقبل صديقها في الفندق، أو حين تذهب إلى المطعم، كنت أرافقها. أتخذ موقعي في إحدى الزوايا منكمشة على نفسي مستندة إلى الباب مثل حيوان، وأنتظر اللحظة المناسبة. كان صديق سليمة فرنسياً، أستاذ جغرافيا في الثانوية، شيء كهذا، ذو مستوى. كان سيداً حسن الملبس، يرتدي بدلة من الصوف الرمادي، صدرة، وحذاء أسود ملمّع جيداً.

كانت له عادات مع سليمة، يصطحبها أولاً للغداء في مطعم في المدينة القديمة، ثم يرافقها إلى الفندق ويقيم في غرفة بلا نوافذ. كان يحضر لي السكاكر. أحياناً يعطيني بضع قطع نقدية. أما أنا، فأبقى جالسة أمام الغرفة، مثل كلب حراسة. في الحقيقة كنت أنتظر وقتاً طويلاً كي ينشغلا تماماً، وأدخل إلى الغرفة على أربعة. أتسلل في الظلام حتى السرير. لم أكن أهتم بما تفعل سليمة مع الفرنسي. كنت أبحث عن الملابس. كان الأستاذ رجلاً مرتباً. يطوي بنطاله ويضع سترته والصدرة على ظهر الكرسي. حينئذٍ كانت أصابعي تندس داخل الجيوب، مثل حيوان صغير رشيق، وتلمُّ كل ما تجده: ساعة رديئة، خاتم زواج ذهبي، محفظة نقود مكدّسة بأوراق نقدية

ومنتفخة بقطع النقود، أو قلم حبر أزرق جميل منقوش بالذهبي. كنت آخذ غنيمتي إلى الرواق كي أتفحصها على ضوء النهار، أختار بعض الأوراق النقدية، بعض النقود، ومن وقت لآخر، أحتفظ بغرض ما يعجبني، أزرار قمصان صدفية، أو قلم حبر أزرق صغير.

أظن أن الأمر انتهى بالأستاذ إلى الشك بشيء ما، لأنه ذات يوم قدم لي هدية: سوار فضي جميل داخل علبة صغيرة وقال لي وهو يعطيني إياها:

ـ هذه حقيقة لك.

كان رجلاً لطيفاً، شعرت بالخجل مما فعلته وفي الوقت ذاته لم أستطع ردع نفسي من معاودة الكرّة. فأنا لا أقوم بذلك جرّاء روح شريرة، إنما بالأحرى كان الأمر كلعبة. لم أكن بحاجة للمال. فقط لأشتري الهدايا لسليمة وعائشة أو للأميرات الأخريات، إذ لم يكن المال يفيدني بشيء.

مع عائشة، تابعت السرقة من المخازن. كنت أرافقها إلى مركز المدينة. أدخل معها، وبينما هي منشغلة بشراء السكاكر، أملأ جيوبي بكل ما أجده، شوكولا، علب سردين، بسكويت، زبيب. ماإن أصبح خارجاً، حتى أبدأ بالبحث عن صيد آخر. حتى أنني لم أعد بحاجة لرفقتها. كنت قصيرة وسوداء، أعرف أن الناس لاتبالي بي. كنت غير مرئية. لكن في السوق لم يكن هناك شيء للعمل، لذا كان الباعة يلاحظونني، وأشعر بعيونهم تتابع كل حركة من تحركاتي.

حينذاك كنت أذهب مع عائشة بعيداً جداً، حتى حي المحيط، هناك حيث توجد الفيلات الجميلة، ومبان كلها جديدة وحدائق. كانت عائشة تعشق التنزه في المراكز التجارية، وأثناء ذلك كنت أذهب إلى المقبرة لأتأمل البحر.

هناك أحس بالأمان. المكان هادئ وساكن بعيد عن صخب

المدينة. كان يهيأ لي أن مسكني هنا منذ الأزل. كنت أجلس فوق تلال القبور، وأستنشق عطر العسل للنباتات الصغيرة الوافرة بالزهور الوردية. ألامس التربة براحة يدي حول القبور.

في ذلك المكان، كان باستطاعتي التحدث إلى لالا أسمى. لم أعرف أبداً أين دفنت. كانت يهودية، ولهذا لايمكن أن تكون قد انتهت هنا وسط المسلمين. لكن ليس لذلك أهمية، كنت أشعر داخل هذه المقبرة، بأنني قريبة جداً منها، وبإمكانها سماعي. أحكي لها عن حياتي، ليس كل شيء، أشتات فقط، لم أكن أرغب بالدخول بالتفاصيل. «جدتي، ما كنت لتفخري بي. أنت التي قلت لي دوماً إنه يجب احترام ملك الآخرين وقول الحقيقة، وهاأنذا الآن أكبر سارقة وأكبر كاذبة على الأرض». هذا ما كان يحزنني، أن أتحدث إلى لالا أسمى عبر التراب. كنت أسكب دمعة سرعان ماتجففها الريح. كل شيء في غاية الجمال في ذلك المكان، التلال المغطاة بالزهور الوردية الصغيرة، حجارة القبور البيضاء دون أسماء حيث امّحت آيات القرآن، وفي البعيد البحر الأزرق والنوارس المعلقة في السماء، تنزلق فوق الهواء، تحدجني بنظرات حمراء خبيثة. كان هناك الكثير من السناجب في المقبرة. بدوا خارجين من القبور. يعيشون مع الموتى، ربما كانوا يقرطون أسنانهم مثل الجوز.

لم أكن أخشى الموت أبداً بعد رؤيتي لالا أسمى تسقط فوق أرضية الغرفة وهي تشخر. أعطاني ذلك فكرة أن الموت مثل نوم عميق. ليس الموتى من يجب أن نخشاهم في المقبرة.

ذات يوم، ظهر كهل نبيل له لحية بيضاء. لا شك أنه يتجسس علي منذ زمن طويل، فقد كان يقف مستقيماً بجانب قبر كأنه خرج منه. بينما كنت أنظر إليه، مدّ يده تحت ثوبه، رفعه وأظهر ذَكَره، عضو لامع بنفسجي مثل باذنجانة. كان يعتقد بأنني خفت وسأرحل صارخة. لكنني كنت أرى في الفندق رجال عراة كل يوم تقريباً،

وأسمع مزاح الأميرات فيما يخص ذَكَر الرجال، يحكمون عليه عموماً بأنه عضو ناقص إلى حد ما.

اكتفيت برمي حصاة نحو العجوز، وهربت بين القبور بينما راح يشتمني ويتعثر بحذائه وهو يحاول اللحاق بي.

ـ ساحرة صغيرة!

ـ عجوز كلب!

في ذلك اليوم أدركت فقط أنه يجب عدم الوثوق بالمظاهر، وأن عجوزاً برداء أبيض ولحية جميلة قد لا يكون سوى عجوز كلب فاسق.

كان حي المحيط مناسباً للسرقة حقاً. مخازن جميلة فيها أشياء للأثرياء فقط، لا نجد منها في جهة سوق المدينة القديمة. في السويقة لم يكن هناك سوى نوع واحد من البسكويت، نوع واحد من العلكة، ومشروب، فانتا فقط على برتقال أوببسي. بينما في مخازن شارع المحيط يوجد علب عصير بأسماء مكتوبة باليابانية والصينية والألمانية، بنكهات جديدة، غير معروفة، تمر هندي، تانجرين، فاكهة الحب، جوّافة. كنا نجد سجائر من كل البلدان. حتى السجائر الطويلة السوداء ذات الفلتر الذهبي التي كنت أشتريها لعائشة، والشوكولا السويسرية التي أحصدها عن الرفوف.

كنت أدخل إلى المخازن وراء عائشة، أقوم بجولة، ومن ثم أغادر وجيوبي ملآنة. لم يكن الناس يعرفونني أو يرتابون بي. كان لي مظهر فتاة عاقلة بفستانها الأزرق ذي الياقة البيضاء، وشريطة بيضاء في شعري الملبّد، وعيناي البريئتان. يظنون أنني جديدة في الحي، وأنني أرافق أمي التي تعمل في الفيلات. لاحظت أن كثيراً من الناس بسطاء، لم يتعلموا الدرس بسرعة مثلي، ويصدقون ما يرونه أولاً. أنا كنت في الرابعة عشرة من عمري وأبدو في الثانية عشرة ولدي معرفة مثل شيطان. تغريدة هي التي قالت لي ذلك. ربما هي

على حق. فقد كانت تتشاجر مع سليمة وعائشة وتنعتهما بالقحبتين، وبالقوادتين.

أظن أنه لم يكن لدي أي حس للحدود أو للسلطة. كنت أخاطر بأسوأ المتاعب. خلال تلك الفترة من حياتي، تكونت شخصيتي، وأصبحت غير صالحة لأي شكل من أشكال الانضباط، أميل لاتباع رغباتي، وصارت نظرتي قاسية.

كانت السيدة جميلة مدركة أن الأمور لا تسير على ما يرام. لكنها ليست معتادة على الأولاد، إضافة إلى أن الأميرات كن إلى حد ما بمثابة أولادها. ومحاولة منها لإصلاح الميل الرديء الذي أتداعى إليه، أرادت تسجيلي في المدرسة. لم أكن أتحدث العربية بشكل كاف كي أدخل مدرسة عامة وكنت كبيرة بحيث لا يُسمح لي أن أدخل مدرسة أجنبية. زيادة على ذلك لم أكن أملك أقل بطاقة هوية. اختارت لي إحدى الدورات، نوعاً من التعليم الداخلي حيث هناك سيدة هزيلة وفظة تضع على عاتقها مسؤولية اثنتي عشرة فتاة حالاتهن صعبة. في الواقع بدا ذلك أشبه بإصلاحية. كانت السيدة روز راهبة فرنسية، خلعت ثوب الرهبنة وتعيش مع رجل أصغر منها يهتم بالإدارة وبالأمور المالية.

كان لدى معظم الفتيات ماضٍ أكثر ثقلاً من ماضيّ. كنّ قد هربن من بيوتهن، أو لديهن عشاق، أو وعدن بالزواج وحجزتهن عائلاتهن ليكونوا مطمئنين في النهاية، وكنت إلى جانبهن حرة، لامبالية، لا أخاف شيئاً. لم أبقَ لدى الآنسة روز سوى بضعة أشهر.

كان أساس التعليم في المدرسة الداخلية يرتكز على إشغال الفتيات بأعمال الخياطة والكي وقراءة كتب الأخلاق. وكانت الآنسة روز تتصدق علينا ببعض حصص الفرنسية ومديرها الوسيم، بمزيد من البخل أيضاً، بمبادىء علم الحساب والهندسة.

حين أصف للأميرات استعباد الفتيات المكرهات على كنس وشطف أرض المدرسة، أو حين يحرقن أصابعهن بالمكاوي وأيدي الطناجر، كنَّ يستنكرن. بالنسبة إلي، كان من المحال أن أقوم بالتطريز مهما يكن، أو أن أقوم بأعمال التنظيف. لقد قمت بهذه الأعمال من قبل في سبيل لالا أسمى، لأنها جدتي وأدين لها بحياتي. ويستحيل أن أبدأ من جديد لأنال رضا آنسة عجوز، وزد على ذلك، يُدفع لها. كنت أكتفي بالبقاء جالسة على كرسي، لسماع دروس الآنسة روز التي تقرأها بصوتها المبحوح «الزيز والنملة» أو «حلم الفهد». لم أتعلم الشيء الكثير لدى الآنسة روز، لكني تعلمت تقدير حريتي، ووعدت نفسي حينذاك أنه مهما حصل، لن أتخلى عن هذه الحرية أبداً.

في نهاية ذلك الفصل الدراسي في المدرسة الداخلية، جاءت الآنسة روز شخصياً إلى الفندق، كي تتأكد دون شك من الوسط الذي أنتج وحشاً مثلي. كانت السيدة جميلة في جولة، فاستقبلتها سليمة وعائشة وزبيدة في الرواق، يلبسن أثوابهن البيتية الطويلة من الموسلين الملّون، ويصبّغ عيونهن الكحل الفاحم. «نحن خالاتها» قلن. وأمام الآنسة روز التي لم تصدق أذنيها وعينيها انهلن علي بالشكاوى: كنت كاذبة وسارقة ومجاوبة وكسولة، وإذا ما بقيت عندها، سأخاطر بتهريب كل بنات الداخلي، وقد أُشعل النار في المدرسة بالمكواة. وهكذا طُرِدْتُ. آلمني ذلك قليلاً بسبب المال الذي خصصته السيدة جميلة لتعليمي، إلا أنه ليس بإمكاني أن أكون محكومة بالأشغال الشاقة فقط لأنال إعجابها.

هكذا، بعد شهور من الانقطاع، استعدت حياتي الحرة، التسكع في السويقة، حي المحيط الغني، والمقبرة الكبرى فوق البحر. لكن سعادتي دامت لفترة قصيرة.

عند ظهر أحد الأيام وبينما أنا عائدة من مهمة وجيوبي مليئة

بأشياء الأميرات التافهة، أَمسكَ بي عند باب الفندق رجلان يلبسان البدلات الرمادية. لم يكن لدي الوقت لأصرخ، أو لاستدعاء النجدة. تأبطني كل واحد من ذراع، رفعاني ورمياني داخل شاحنة زرقاء صغيرة لها نوافذ من الشبك. كأن كل شيء بدأ من جديد، كنت مشلولة من الخوف وأنا أرى الشارع الأبيض ينغلق والسماء تختفي. تقوقعت في آخر الشاحنة، ركبتاي مضمومتان إلى بطني، يداي مشدودتان فوق أذنيّ، عيناي مغمضتان، عدت مرة أخرى داخل الكيس الأسود الذي يبلعني.

4

لم يكن لدي أدنى فكرة عمّا حصل. فيما بعد، فهمت ما جرى. كانت تلك عناصر دَرَك زُهرة هي التي لحقت بي ونصبت لي فخاً. فهي تبحث عني في كل المخازن التي سرقتها. مَثَلْتُ أمام قاضٍ للأطفال، وهو رجل هادىء جداً يتحدث بصوت منخفض جداً كي أسمعه. وبما أنني أجبته بنعم على كل الأسئلة، بدوت له مطيعة. لكنه أراد أن يستجوبني أيضاً عن الفندق، وعما كانت تفعله السيدة جميلة والأميرات. ولأنني لم أجب بشيء، انتابه الغضب ولكن بهدوء دائماً.

كان فقط يكسر قلم الرصاص الذي يديره بين أصابعه وهو ينظر إلي، وكأنه يريد إفهامي أنني أنا أيضاً يمكنه كسري بحركة. استُجوِبْتُ لعدة أيام وفيما بعد أرسلوني من جديد إلى غرفتي التي كانت نوافذها شبكية. بدت مثل مدرسة أو ملحق مشفى.

بعد ذلك سلّمني إلى زُهرة. لو أنه ترك لي الخيار بين زُهرة والسجن لاخترت السجن، لكنه لم يقدم لي الخيار.

كانت زُهرة وعبل يسكنان الآن في عمارة جديدة عند مخرج المدينة، وسط الحدائق الكبيرة. باعوا بيت الملّاح ورضيت زُهرة بترك والديها للمجيء والعيش في هذا الحي الفاخر.

في البداية، كانت زُهرة وعبل لطيفين معي. كأنهما قررا محو كل الشكاوى، كل الماضي وسنبدأ على أسس جديدة. ربما كانا خائفين من السيدة جميلة ويشعران بأنهما مراقبان.

لكن الطبع غلب التطبع. فبعد زمن قصير عادت وأصبحت زُهرة خبيثة معي. كانت تضربني، تصيح بوجهي بأنني لست سوى خادمة. في الحقيقة لا أنفع لشيء. كان ينتابها غضب أعمى لأقل حجة: لأنني كسرت زبدية زرقاء، لأنني لم أغسل العدس، لأنني تركت آثاراً فوق بلاط المطبخ.

لم تكن تسمح لي بالخروج. كانت تقول إن هناك أمراً من القاضي وعلي التوقف عن معاشرة رفاق السوء. حين كانت تخرج، تغلق علي بالمفتاح داخل الشقة مع كدسة من الغسيل للكي. ذات يوم شيّطت قليلاً ياقة قميص عبل ولكي تعاقبني زُهرة حرقت يدي بالمكواة. امتلأت عيناي بالدموع، لكنني كزرت على أسناني بكل قواي كي لا أصرخ. توقف نفسي كأن أحداً راح يشد على حنجرتي، كاد يغمى علي. مايزال على يدي اليوم مثلث أبيض لن يمحى أبداً.

كنت أظن أنني سوف أموت. إذ لم يكن لدي شيئاً آكله. كانت زُهرة تطبخ أرزاً لكلب صغير تقتنيه، كلب «شيتزو» له وبر أبيض مصفّر قليلاً. تسكب فوق الرز مرق الدجاج، وكان هذا كل ما تعطيني. كان نصيبي أقل ما لكلبها الصغير لآكل. ومن وقت لآخر، كنت أختلس قطعة فاكهة من المطبخ. بدأت أخاف مما سيحصل لو لاحظت ذلك. فاللون الأزرق بات يغطي ساقيّ وذراعي بسبب ضربات الحزام. لكنني كنت أجوع لدرجة أستمر بالسرقة من خزانة المطبخ. السكر والبسكويت والفاكهة.

ذات يوم، كان لديها ضيوف على الغداء، فرنسيون اسمهم دولاهي. اشترت من أجلهم من مخزن شارع المحيط عنقوداً جميلاً من العنب الأسود. وبينما هم يتناولون المقبلات، كنت أنتظر في المطبخ وآكل من حبات العنقود. بعد قليل لاحظتُ أنني أكلت كل الحبات التي في أسفل العنقود. حينئذٍ وكي أؤخر اللحظة التي سيكتشفون فيها الجرم، وضعت تحت العنقود كتلاً من الورق، بشكل يبدو معه العنقود مايزال مليئاً في الصحن. كنت أعلم أنه، عاجلاً أم

آجلاً، سوف يُرى لكن ذلك لم يكن يشكل فرقاً عندي. كان العنب لذيذاً وحلواً ومعطراً مثل العسل.

في نهاية الوجبة أحضرتُ العنب، وحينها طلب المدعوون أن أبقى. كانوا يلقبونني أمام زُهرة بـ «ربيبتك الصغيرة».

كانت زُهرة تتظارف. خلعتْ عني أسمالي البالية وألبستني الفستان الأزرق ذا الياقة البيضاء الذي كان لدي عند لالا أسمى. بدا قصيراً قليلاً وضيقاً جداً لكن زُهرة تركت سحابه مفتوحاً وربطت فوقه مئزراً، رغم أنني كنت قد نحلت كثيراً.

«إنها فاتنة، إنها رائعة! كل التهاني». بدا لي الفرنسيون لطفاء. كان للسيد دولاهي عينان زرقاوان برّاقتان جداً تبرزان فوق وجهه البرونزي. أما السيدة شقراء فكانت بشرتها حمراء قليلاً لكنها ماتزال نضرة. كنت أود جداً أن أطلب منهما أخذي للتبني، لكنني لم أعرف كيف أقول لهما ذلك. وددت لو يقرآ يأسي في نظرتي، أن يفهما كل شيء.

من الطبيعي أن تكتشف زُهرة في وقت التحلية أسفل العنقود المأكول كلياً كما اكتشفت كتل الورق. صرخت باسمي. بدت أطراف خصل العنقود الخالية من العنب منتصبة مثل الوبر. حتى العنقود كان يبدو مخجلاً. قالت السيدة دولاهي:

ـ لا توبخيها. إنها طفلة. ألم نقم جميعاً بشيء مماثل حين كنا أطفالاً؟

كان زوجها يضحك علناً وعبل يرسم ابتسامة غامضة. لم تتظاهر زُهرة بالضحك، رمقتني بنظرة خبيثة، وبعد رحيل الفرنسيين أحضرت الحزام ذا البكلة النحاسية الثقيلة.

ـ من أجل كل حبة! يا مخجلة.

وضربتني حتى أدمتني.

بفضل عائلة دولاهي استطعت الخروج من الشقة. كانت السيدة دولاهي تتصل بزُهرة وتقول:

ـ اسمعيني يا عزيزتي، أعيريني ربيبتك الصغيرة قليلاً، أنت تعرفين كم أنا بحاجة للمساعدة في البيت، وفي الوقت نفسه يمكنها أن تكسب القليل من مصروف الجيب.

في البداية، رفضت زُهرة متذرعة بحجج مختلفة، لكن السيدة دولاهي لامتها:

ـ آمل أنك لاتحتجزينها!

خافت زُهرة وظنت أنها تلمح إلى تهديد بلغة المزاح، فسمحت لي بالذهاب. مرة، ثم مرتين في الأسبوع.

كان آل دولاهي يستأجرون شقة جميلة في حي المحيط من المشروع الذي اشتغل فيه عبل بأعمال الدهان والترميم. منطقة هادئة فيها بستان مزروع بأشجار البرتقال والليمون وأسيجة من الورد المعرش. كان هناك الكثير من الطيور. بدأت أشعر بالراحة في منزل آل دولاهي. بدا لي أنني أستعيد السلام الذي عرفته في طفولتي في الملّاح، حين كان العالم يُختصر بالفناء الأبيض لدار لالا أسمى.

كانت جولييت دولاهي لطيفة معي. حين أصل، نحو الساعة الثانية من بعد الظهر، تقدم لي الشاي وقطع الكاتو الصغيرة من علبة معدنية حمراء جميلة. لابد أنها كانت تشك بأنني لم أكن آكل كفاية عند زُهرة، حين تراني أنهال على البسكويت الجاف. أعتقد أنها تعرف ماضيّ، لكنها لم تتحدث عنه. حين كنت أمسح غبار غرفتها، كانت تترك كل حليها معروضة على الكومودينو، كذلك كؤوس الفضة التي تحتوي قطع نقدية. أعتقد أنها تضعني تحت الاختبار، وحاذرت ألا ألمسها. كانت تعد النقود بعد مروري، ومن لهجة صوتها عرفت أنها سعيدة لعثورها عليها كلها. لكن بينما تقوم بذلك، كان باستطاعتي البحث في جيوب سترة زوجها المعلقة على مشجب عند المدخل.

السيد دولاهي كان كبيراً في السن إلى حد ما، له أنف كبير ونظارتان تكبّران عينيه الزرقاوين. حسن الهندام دائماً، يلبس بدلة رمادية قاتمة تزين كل عروة كرية حمراء صغيرة، وحذاؤه من الجلد

الأسود الملمع جيداً. ربما كان في الماضي رجلاً مهماً، سفيراً أو وزيراً، لم أعد أدري.

لقد أثّر بي فهو يناديني «صغيرتي» أو «آنستي». لم يكلمني أحد هكذا قط. إنه يرفع الكلفة، لكنه لم يكن يعطيني السكاكر أو المال.

كان التصوير شغفه. هناك صور في كل مكان في البيت، في الممرات، في الصالة، في الغرف، حتى في المرحاض.

ذات يوم، دعاني إلى الاستديو الخاص به وهو عبارة عن بناء صغير دون نوافذ في طرف الحديقة. ربما كان في الماضي مرآباً ورتبه. هناك كان يظهّر صوره ويسحبها.

ما أدهشني داخل الاستديو هي صور زوجته المعلقة بملاقط على الجدران. بدت صوراً قديمة إلى حد ما، تظهر فيها أصغر سناً. وهي بلا ملابس، وفي شعرها الأشقر أزهار مشكولة، أوبملابس السباحة على شاطئ البحر. التقطت هذه الصور في بلد آخر، في جزيرة نائية، فقد كانت تظهر أشجار النخيل والرمل الأبيض والبحر اللازوردي. قال لي الأسماء. يُهيأ لي أنها جزيرة مانروفيا أو اسماً شبيهاً به. هناك على الجدار أيضاً شيء مضحك من الجلد الأسود، مزين بمسامير نحاسية، ظننته في البداية سلاحاً أو نوعاً من النقافات أو الكمامات. لكن لدى النظر إلى الصور كنت مندهشة لتأكدي أن ذلك ما كان يغطي عورة السيدة دولاهي وقد علقه زوجها هناك مثل تذكار نصر.

كنت معتادة على رؤية نساء عاريات في حمام البخار مع تغريدة، أو حتى عندما كانت عائشة وفاطمة تتبختران في الغرفة. مع هذا كنت خجلة من رؤية تلك الصور التي تبدو فيها السيدة دولاهي دون ملابس نهائياً. ففي إحدى الصور بالأسود والأبيض بدت ممددة عارية تماماً فوق شرفة تحت الشمس، وتشكل عانتها في أسفل بطنها بقعة كبيرة سوداء مثلثة تتنافر مع لون شعرها. كانت

السيدة دولاهي تراقبني من وراء نظارتها السوداء بابتسامة مبهمة. عرفت أن ذلك اختباراً وأخفيت خجلي. كنت أرغب بشدة بنيل رضاها.

عدتُ عدة مرات إلى الاستديو. كان السيد دولاهي يشرح لي تقنية سحب الصور، حمّام الحمض، كيف نأخذ المسودة بملقط ونعلقها على حبل لنتركها تجف. أصبحتُ شغوفة بإظهار الوجوه بالوعاء الخشبي، وهي تزداد سواداً أكثر فأكثر وببطء. كان هناك وجوه نساء وأطفال ومشاهد من الشارع. كذلك فتيات بوضعيات غريبة، بثوب ينزل عند الكتف وشعر منفوش.

كان السيد دولاهي يقول لي إنني ذكية وموهوبة بالتصوير. يتحدث عني إلى السيدة دولاهي بحماس، يقول إنه يجدر تسجيلي في مختبر وبإمكاني امتهان التصوير. بالنسبة إلي كنت أنظر إلى تلك السيدة المتميزة جداً وأرغب أن أمحوَ من رأسي قطعة الجلد ذات المسامير المتدلية فوق جدار الاستديو. كنت أقول لنفسي أن لاأهمية للأمر، فلاشك أنهما نسياها مثلما نعلق قبعة على مسمار بشكل عابر.

بعد ظهر أحد الأيام، في بداية الصيف، كان الطقس حاراً جداً في الخارج، ذهبت كالعادة بعد إنهاء مهامي لأعمل على سحب المسودات. كان السيد دولاهي بالقميص، وقد علّق سترته على علاّقة. لم يكن قد أضاء النور الأحمر. قال لي: «اليوم أريد أن أصوّرك». كان ينظر إلي بغرابة. ويقول ذلك كأنه أمر مفروغ منه. لم أكن أرغب أن تؤخذ لي الصور. لم أحب ذلك قط. أذكر أن لالا أسمى كانت تقول إنه من السوء أخذ الصور، فذلك يتلف الوجه.

في الوقت ذاته كنت مزهوة لأن رجلاً مثل السيد دولاهي يرغب بتصوير فتاة سوداء صغيرة مثلي.

أضاء مصابيحه ذات الملاقط، ووضع مقعداً أمام ملاءة بيضاء كبيرة مثبتة على الجدار بمسامير. كان قد أعدّ كل تجهيزاته، لاشك أنه فكر بذلك منذ زمن طويل. بدا وجهه جدياً، منهمكاً، تلمع جبهته

بالعرق من حرارة المصابيح. أجلسني على المقعد منتصبة الجذع جيداً.

بعد ذلك بدأ بالتقاط الصور بوساطة آلة لها ساق يلمع فيها ضوء أحمر صغير. كنت أسمع صوت سدّادة الكاميرا. خيّل إلي أيضاً أنني أسمع صوت تنفسه، زفيره مثل مريض بالربو. كان ذلك غريباً، لم أخف منه أبداً، وفي الوقت ذاته كنت أحس بقلبي يوجف بشدة، كأنني أقوم بعمل محرّم وخطير.

توقف. رأى تسريحتي غير ملائمة. أوبالأحرى، رآها ليست مهملة كفاية. جعلني أنزع العصابة التي تجبرني زُهرة على لبسها، بلّل شعري برشه بالماء البارد وجعله ينتفخ بوساطة مجفف شعر كهربائي. كنت أشعر بالزفير الحار فوق عنقي، وفي الوقت ذاته الماء البارد المنساب على رقبتي يبلّل ثوبي. أصبح السيد دولاهي غريباً فعلاً، كان يشبه عبل حين حشرني قرب المغسلة في فناء لالا أسمى. كان يتعرق، نظرته تلتمع، تتفحص، وبياض عينيه احمرّ قليلاً. كنت أفكر بأن زوجته يمكن أن تصل بين لحظة وأخرى وهذا ما يقلقه. في أحد الأوقات ذهب نحو الباب، نظر إلى الخارج، ثم أعاد إغلاقه وأدار المفتاح في القفل. كان غريباً مثل الجميع، مثل السيدة جميلة وحتى الآنسة روز وزُهرة، كلهم يريدون حبسي بالمفتاح. ابتداء من تلك اللحظة شعرت بالسوء، راح قلبي يضرب بسرعة كبيرة، وشعرت بعرق القلق يخزني على جانبيّ وعلى طول ظهري.

بدأ السيد دولاهي بالتقاط الصور. قال لي شيئاً ما بخصوص ثوبي، بأنه غير ملائم ومبلل جداً. كان يريد شيئاً يتناسب مع وجهي، شيئاً أكثر بربرية، أكثر وحشية، وأكثر حيوانية. فكّ سحاب ثوبي، قوّر الياقة. كنت أشعر بيديه فوق عنقي وكتفي، أحسست بأنفاسه، تنحيت وهو مايزال يحرّك جذعي كمن كان يبحث عن حركة أو وضعية. لاشك أن الغضب ظهر في عينيّ لأنه تراجع وأخذ مجموعة من الصور السلبية وهو يكرّر:

ـ هنا، هذا رائع، أنت رائعة!

بين الحين والآخر كان يمر ورائي، يفكّ زراً ويسدل ثوبي أكثر قليلاً فوق كتفي. لكنه بالكاد يلمسني، كنت أشعر فقط بأنفاسه قرب رقبتي.

فجأة ما عاد بوسعي الاحتمال، كنت أشعر بالغثيان. نهضت، دون حتى أن أصلح ثوبي، وركضت حتى الباب. بما أن المفتاح لم يكن في القفل استدرت. كان السيد دولاهي واقفاً أمام آلته، يبدو متفكراً وعلى وجهه تعبير غريب، كأنه في غاية الألم. لاأعرف ماذا قلت بصوت حانق:

ـ لو منعتني من الخروج، سوف أصرخ.

فتح لي الباب، وابتعد عني كأنني عقربة. وقال:

ـ لكن ما بك؟ ماذا فعلت؟ لاأريد إخافتك، أريد فقط التقاط الصور لك.

لم أصغِ إليه. خرجت راكضة. تركت المنزل دون أن أودع السيدة دولاهي. كان قلبي يخفق بشدة، وأحسُّ بالنار على وجنتيّ وعنقي، حيث مرّر ذلك الرجل أطراف أصابعه.

انتهى بي الأمر بالعودة إلى بيت زُهرة. لم يكن هناك أحد. انتظرت عودتها فوق المصطبة. من الغريب أنها لم تضربني ولم تطرح علي أي سؤال. بكل بساطة لم أعد لرؤية آل دولاهي. أظن أنني ابتداء من ذلك اليوم قررت الرحيل، الرحيل إلى أبعد مكان ممكن، إلى آخر العالم ولا أعود أبداً. في تلك الفترة بالذات أيضاً قررت زُهرة خطبتي.

لم أستوعب فوراً أنها خططت لذلك المشروع، لكنني لاحظت أنه منذ توقفي عن الذهاب إلى بيت دولاهي صارت زُهرة لطيفة معي. استمرت بحبسي داخل الشقة، لكنها لم تعد تضربني. كما أنها كانت تعطيني المزيد لآكله وأكثر من المعتاد الذي أشارك فيه الكلب شيتزو. صار لي الحق، بين الحين والآخر، بقطعة فاكهة، موزة،

تفاحة، تمور محشوة. كذلك أعادت لي ذات يوم بكل وقار العلبة الصغيرة التي تضم قرطيَّ الذهبيين، الهلالين اللذين يحملان اسم قبيلتي وتركهما سارقو الأطفال حين باعوني للالا أسمى.

ـ هذا لكِ، احتفظت به خشية أن تضيعيه. كانت هذه إرادة أمي، كيف يمكنني مخالفتها؟

تساءلت دوماً لماذا تتصرف على هذا النحو. التفسير الوحيد الذي وجدته هو أن لالا أسمى ظهرت لها في الحلم وقالت لها أن تفعل ذلك. كانت زُهرة متطيرة بقدر ما هي خبيثة.

جاءت السيدة دولاهي عدة مرات كي تطلبني، لكن زُهرة لم ترغب أن أراها، وكنت سعيدة بذلك جداً. تعلمت فجأة أن أحقد على هؤلاء الناس، الذين هم في غاية الجمال والرهافة، وعلى قصصهم كغطاء العورة والصورالشاذة.

بعد ذلك كان هناك ذاك الرجل الذي صار يأتي إلى البيت.

كان رجلاً في عمر الشباب، موظف بنك أو شيء من هذا القبيل. بدا احتفائياً جداً. لابد أن زُهرة قالت له إنني أتحدث العربية بشكل سيء، فكان يتوجه إلي بلغة فرنسية بالية ووقورة تدفعني للضحك. كانت زُهرة تقدم له الشاي في الصالة وتحضر منفضة كي لا يوقع رماد سجائره على السجادة. إذ إن له طريقة خاصة بإمساك السيجارة، مستقيمة تماماً، مثل قلم، بهيئة خرقاء وصادقة.

حين يأتي، كانت زُهرة تلبسني ثوبي الأزرق ذا ياقة الدانتيلا، ذاك الذي يكرهه السيد دولاهي وأراد نزعه عني يوم الصور. كنت أحمل صينية الأقداح المذهبة والسكرية، وكان السيد جمعة (الذي سميته السيد جاميه) ينظر إلي بعينين هادئتين. كان وجهه الأبيض الناعم يعبر عن الكثير من العواطف، وحين أجلس أمامه فوق الوسائد، أفاجأ بنظرته الخاطفة التي يوجهها إلى ساقيّ. استمر الأمر بضعة أشهر، وانتهى بي الأمر إلى الاستمتاع بتلك اللقاءات.

كنت ألعب دور المغناج، أتفوه بعبارات مضمرة فقط ليسترسل أكثر قليلاً. في الوقت ذاته، أصبح عبل غيوراً، خسيساً، وكان ذلك بمثابة لعبة بالنسبة لي، وسيلة للانتقام من كل ما فعله بي في الماضي. رحت أتلاعب لجعله يعتقد بأنني سعيدة بهذه الخطبة المعلنة. فحين يكون حاضراً، أستفسر مطولاً من زُهرة عن السيد جمعة، ثروته، بيت عائلته، أوضاع أخوته، إلخ...

ذات يوم، رمقني بنظرة خاطفة حقودة. قال لي:

ـ على كل حال، لن تبقي طويلاً هنا، اتخذنا إجراءات التقدم للخطوبة، في شهر تشرين الثاني. ثم أضاف، بما أنك تحبين الفنادق، ستتم الخطوبة في فندق على شاطئ البحر وتم حجز الصالة.

لم أهيْ حقائبي كي لاألفت الأنظار. وضعت كل مدخراتي في ملابسي، كل ما سرقته وكل ما كسبته بالعمل لدى آل دولاهي والذي خبأته تحت نعلة الجدار في الغرفة التي أنام فيها. وضعت قطع النقد في جيوبي وخيطت الأوراق على قميصي عند معدتي. وعلّقت قرطيّ الهلالين تحت عصابة رأسي.

كي أخرج انتظرت عودة زُهرة من السوق وأوقعت الغسيل من نافذة غرفة الغسيل إلى الفناء. قلت لزُهرة إنني ذاهبة لإحضاره. كان قلبي يخفق، ولم أرد أن تحزر من نبرة صوتي. بدت بعد الظهر نعسانة، ترددت قليلاً لكنها كانت متعبة جداً، فأعطتني المفتاح.

ـ لا تستغلي الأمر للتسكع في الخارج!

لم أصدّق عيني. كان الأمر سهلاً جداً.

ـ لا يا خالة. سأعود في الحال.

كانت تتثاءب.

ـ أغلقي الباب جيداً. ستعاودين غسل كل شيء.

خرجت إلى مصطبة الدرج. وكي أنتقم أخذت معي الكلب وأقفلت

الباب بالمفتاح مرتين. كان المفتاح الآخر مع عبل وأعرف أنه لن يعود قبل هذا المساء.

عند أسفل الدرج طردت شيتزو بدفعة من قدمي، ورميت المفتاح في سلة المهملات. أقحمته بين النفايات لأتأكد من عدم العثور عليه من قبل أحد، ثم رحلت عبر الشوارع الخالية تحت الشمس، دون استعجال.

5

كان همي الأول كما تتخيلون العودة إلى الفندق لرؤية السيدة جميلة والأميرات. عما قريب سيكون قد مضى عام على إيقافي من قبل دَرَك زُهرة وعبل. حين وصلت أمام الفندق، لم أتعرف على شيء. كأن زلزالاً حدث. كان جدار السور العالي والباب ذو المصراعين قد اختفيا، ومكان الساحة حيث يقف الباعة الجوالون عُبّدت الأرض ونظّم موقف للسيارات والشاحنات الصغيرة القادمة إلى السوق. غرف الطابق السفلي سدّت بالجدران أو أغلقت بالستائر المعدنية. الطابق الأول وحده بقي على حاله، إلا أنه كان يبدو غير مأهول، قديماً ومهجوراً. كان إكساء الواجهة يتساقط ومصاريع النوافذ متكسرة. حتى أن طيور سنونو عششت في سقف الرواق. بقيت واقفة دون أن أفهم. شعرت بالخيانة.

عند مدخل الموقف هناك حارس يقوم بعمله. رجل نحيل طويل، وجهه محروق كوجه جندي، يلبس رداء رمادياً طويلاً ويعتمر نوعاً من العمامات المتدلية. كان في الساحة وراءه صبية صغار مشغولون بغسل زجاج السيارات معهم دلاء ماء رغوي وخرق عتيقة. كان الحارس يراقبني بهيئة حذرة. لم أتجرأ على طرح الأسئلة عليه. في جميع الأحوال ماذا يمكنه أن يعرف؟ ما يحزنني هو التفكير بأن الفندق لم يعد موجوداً بسببي. فالمالك وضع تهديداته قيد التنفيذ، أبعد السيدة جميلة والأميرات بسبب الطعن بالأخلاق، وباع المنزل للصيارفة.

رمانة العجوز، البائع الذي كنت أذهب دوماً إليه لشراء السجائر الأمريكية لتغريدة، هو الذي أخبرني. أُوقفتْ السيدة جميلة ووُضعتْ في السجن ورحلت كل الأميرات، لكنه كان يعرف أن تغريدة ذهبت للعيش في الجانب الآخر للنهر، في مجموعة من المخيمات تدعى دوار تبريكه. كانت حورية تعيش معها. اشتريت لها بعض السجائر، خصيصاً لذكرى الأيام الخوالي. لكن لم يكن بإمكاني التأخر في هذا المكان. من المؤكد أن زُهرة ستأتي للبحث عني أولاً في نواحي الفندق.

ركبتُ العبّارة، كان ذلك بعد الظهر ويبدو مجرى النهر هائلاً. كانت قوارب الصيد قد بدأت بالعودة مع المد. تطير حولها طيور النورس، وأفق المدينة يتلاشى داخل الضباب. على الجانب الآخر كانت الضفة ماتزال في الظلام، ثمة أنوار تتلألأ. للمرة الأولى شعرت بأنني حرة. لم يعد لدي روابط، كنت راحلة نحو المستقبل. ماعدت أخاف الشارع الأبيض وزعيق الطير، لن يكون هناك أبداً أحد يرميني داخل كيس ويضربني. طفولتي بقيت هناك، في الجانب الآخر لهذا النهر.

وجدت صعوبة في إيجاد بيت تغريدة. كان دوار تبريكه بعيداً عن النهر، في حي عالٍ يعترضه شارع كبير قيد الإنشاء تسير عليه الشاحنات. كان حياً فقيراً جداً. لاشيء فيه سوى أكواخ من عوارض خشبية مغطاة بصفائح معدنية أو ألياف إسمنتية مدعّمة بالحجارة لمقاومة الرياح. الشوارع كلها متشابهة. الدروب الترابية المستقيمة تماماً تعج بزوابع الغبار. والشارع الكبير أيضاً يحدث سحابة حمراء أكبر فوق المدينة.

مشيت في الأزقة على غير هدى، بشعري الأشعث وثوبي الممزق، والكلاب تنبح باتجاهي. عند صنبور ماء كان هناك

مجموعة من النساء والأطفال يملؤون أوعيتهم البلاستيكية، وصبية متوازنون فوق دراجاتهم ينزلون الطريق مع أوعية الماء أو حطب للنار. دلّتني امرأة على بيت تغريدة. رافقتني حتى بداية الطريق بينما وعاؤها يمتلئ وحده تحت خيط الماء. أشارت لي في آخر الشارع إلى بيت صغير مطلي بالأخضر. كان هناك.

كنت منقبضة الصدر، لأنني لا أعرف فيما إذا كانت تغريدة وحورية ستستقبلانني بعد الذي جرى. فكرت أنهما قد لا تريدان استقبالي وربما ترشقانني بالحجارة.

لم أكن بحاجة لقرع الباب، لاشك أن أحداً ما سبقني وأعلمهما، خرجت حورية في اللحظة التي وصلت فيها. قبلتني وهي تعانقني بشدة، كانت تردد: «ليلى، ليلى!» وهي تبكي. تغيرت كثيراً، أصبحتْ أكثر شحوباً، رمادية إلى حد ما، تحيط بعينيها دوائر التعب. كان ثوبها ملطخاً بالوحل، وقدماها حافيتين داخل صندلها البلاستيكي المفتوح دون أن تربط سيوره.

سمعت صوت تغريدة الخفيض في آخر الفناء. كان هناك نوع من واقية الريح، بلاستيكية، خضراء، متدلية، كالتي نراها في الحدائق، والتي تحمي الموقد. وصلت تغريدة. هي أيضاً تلبس الأخضر. لم تتغير كثيراً. التجاعيد الصغيرة عند زاوية عينيها وعند جانبي فمها والتي كنت أحبها، أصبحت أكثر وضوحاً قليلاً. لاحظت أنها تعرج قليلاً. بدت إحدى ساقيها ملفوفة بضماد.

تعانقنا، كنت سعيدة بالعثور عليها من جديد، بتنشق رائحتها. شعرت بسعادة كمن عثر على أقربائه أو عائلته، بعد سنوات وسنوات من الغياب. صنعت تغريدة الشاي من ماركة «غن بورد» الشهيرة التي تحبها مع النعنع الذي زرعته في أصص قرب مطبخها. كان لدي أسئلة كثيرة أطرحها عليها حتى إنني لم أعرف من أين أبدأ. حدثتني حورية عن السيدة جميلة. بعد فترة قصيرة في السجن غادرت

المدينة. إلى مليلة ربما أو إلى فرنسا. رحلت الأميرات، كل واحدة إلى صوب. زبيدة وفاطمة تزوجتا. سليمة أقامت مع أستاذ الجغرافيا، وعائشة تعمل بالتجارة. بقي الفندق مغلقاً لزمن طويل، ثم هُدم الجدار. وفيما كنت أقول أن كل هذا بسببي، لأنه تم توقيفي، طمأنتني العجوز تغريدة: «لابد أن يحدث ذلك. فقد مضى وقت طويل لم تدفع فيه السيدة جميلة الأجرة، والباعة أيضاً. كان منزل الجميع، لابد وأن ينتهي على هذا النحو». خفف ذلك عني، لكن في الوقت ذاته، لم يكن بوسعي التصديق إلا أن يكون سبب كل ذلك هو خبث زُهرة التي كانت لعنتي.

قلت لتغريدة وأنا أشير إلى ساقها:

ـ ماذا حلّ بك؟

هزّت كتفيها كأن سؤالي أزعجها:

ـ لا شيء، أظن أن عنكبوتاً لدغني.

لكن، فيما بعد، قالت لي حورية الحقيقة:

ـ تغريدة مريضة بالسكري.

في المشفى فحص الطبيب ساقها واعترف لحورية:

ـ إنها مريضة جداً، في ساقها غرغرينا، يجب بترها.

لكن حورية لم تشأ إخبارها.

ـ ماتزال تعتقد أنها لدغة عنكبوت، تضع لبخات الأعشاب، تقول إنها تتحسن، إنما لم تعد تتألم لأن ساقها في طور التموت.

كان ذلك فظيعاً ولكن ربما من ناحية أخرى بدا من الأفضل ألا تعرف الحقيقة إذ لاأمل بشفائها.

لم تكن الحياة في دوار تبريكه بهذه السهولة، بالأخص بالنسبة إلى من لم يعرف الفقر فعلياً. حتى عند زُهرة، كنت آكل كل يوم وكان لدي الماء والكهرياء. هنا في تبريكه كنا جياعاً معظم الوقت،

حتى الأشياء الأكثر بساطة كنا نفتقدها، كإمكانية الاغتسال كل يوم، أو امتلاك القليل من الحطب لغلي الماء للشاي. الذين يبيعون الحطب الجاف كانوا أطفال صغار يحضرونه من بعيد، من الجانب الآخر للطريق، من الهضاب. فتيات صغيرات بأسمال بالية يحملن فوق ظهورهن عيداناً محزومة أثقل منهن.

غير أن بيتنا حاشا أن يكون الأفقر. كانت تغريدة فخورة به، لأن ابنها عيسى هو الذي بناه وحده، بإحضاره قوالب الطوب كل واحدة لوحدها. كان عيسى بنّاء، يعمل في ألمانيا الآن. في الغرفة التي تستخدم كصالة وضعت تغريدة صورته، صورة كبيرة مبقعة قليلاً. كان يشبهها، عيناه واسعتان مشقوقتان مثل صيني. تغريدة هي التي اختارت طلاء المنزل بالأخضر، فهو لونها المفضل. طلت كذلك أصص الأزهار التي تزرع فيها النعنع والمريمية. وأيضاً الكراسي والطاولة المنخفضة، كما أنها عثرت على إبريق شاي إنكليزي لازوردي اللون له مقبض من الخيزران ورأس غطاء دائري كحبة بازيلاء.

كان المنزل واسعاً كفاية للجميع. فيه فناء ترابي، سقيفة مطبخ، غرفة لتغريدة، والغرفة التي كنت أنام فيها مع حورية فوق وسائد موضوعة على الأرض مباشرة. وهناك غرفة لعيسى، فيها سريره وخزانته في حال عاد على حين غرة . كانت تغريدة قد ابتكرت غرفة حمّام من العوارض الخشبية، إلى جانب المطبخ حيث بالإمكان سكب المياه بدلو من التوتياء وتجميعه في حوض بلاستيكي لغسل الملاءات والشراشف الكبيرة. كنا نذهب أنا وحورية لملء الدلو من صنبور الشارع ونتراشق بالمياه ونحن نطلق الصيحات العالية. لم يكن هناك في الدوار حمّام للعموم، كان الناس مدقعي الفقر والمياه نادرة جداً. ولكن بوجود حمّام تغريدة ودلوها التوتياء، كنا نعيش مترفين.

منذ إصابة تغريدة في ساقها لم تعد تعمل. حورية هي التي استلمت عملها. تقوم بأعمال الخياطة والرتق لمصبغة أحد الفنادق.

ترحل كل صباح قبل السادسة، تركب العبّارة للذهاب إلى المدينة. فطلبتُ منها:

ـ جِدي لي عملاً أيضاً.

هزّت رأسها.

ـ لن يكون لصالحك، يجب أن تعملي شيئاً آخر، عليك أن تذهبي إلى المدرسة.

اشترت لي كتباً فرنسية وإسبانية وإنكليزية ودفاتر. كانت تغريدة من رأيها.

ـ لا يجدر بك أن تصبحي مثلنا، لا بدّ أن تصبحي شخصاً هاماً، طالبة أو طبيبة وليس خادمة مثلنا.

لم أكن أعرف لماذا يقلن ذلك. فهذه هي المرة الأولى التي لايريد فيها أحد تزويجي.

كانت المرة الأولى التي يرون في شخصي شيئاً آخر غير الخادمة التي لاتنفع لشيء، فقط للطبخ لزوجها. يمكنني القول إنني تأثرت حتى البكاء. كانتا حقاً أميرتيَّ الطيبتين. فعانقتهما.

لكن، ما كان بوسعي البقاء في البيت لأدرس. فذلك فوق طاقتي. أخذت حينذاك كتبي المحزومة بشريط مطاطي مثل الأولاد الذين يرتادون المدارس، ورحت أبحث عن مكان أقرأ فيه بهدوء.

في البداية، عندما كان طقس تشرين الأول رائعاً، كنت أذهب إلى المقبرة الكبيرة على البحر، حيث يمكن رؤية الأفق جيداً وأُمضي الصباح بالقراءة وسط القبور. أحياناً كانت الطيور البحرية تهوّم أمامي، معلّقة داخل تيار الهواء. أو السناجب الصهباء اللطيفة تخرج من الأكمات وتنظر إلي بجسارة. لكنني لم أكن مطمئنة كثيراً بعد الذي حدث مع ابن الكلب. كنت أخشى أن يبلّغ الشرطة انتقاماً مني. عندذاك بحثت عن مكان آخر، وعثرت على مكتبة في أحد الأحياء بالقرب من متحف الآثار. مكتبة صغيرة فيها فقط بضعة طاولات

كبيرة للقراءة وكراسٍ قديمة ثقيلة جداً. كانت تفتح كل الأيام عدا الأحد والإثنين، وفيما خلا الأوقات التي كان طلاب الثانوي يأتون فيها للقيام بفروضهم بعد الدروس، تبقى خالية تقريباً. هناك وخلال تلك الأشهر، تمكنت من قراءة كل الكتب التي أريد، بمحض المصادفة، دون أي ترتيب، وعلى هواي. قرأت كتب جغرافيا، عن الحيوانات، وبالأخص روايات، «نانا» «جيرمينال» لإميل زولا، «مدام بوفاري» و«ثلاث حكايات» لفلوبير، «البؤساء» لفيكتور هوغو، «حياة» لموباسان، «الغريب» و«الطاعون» لكامو، «آخر الأبرار» لشوارتز بارت، «واجب العنف» ليامبو أوولوغيم، «طفل الرمال» لبن جلون، «بييرو صديقي» لكينو، «قبيلة مورامبير» لإيكزبرايا، «جزيرة بيوت الصيادين» لباشلوري، «بلا ترتيب» لفانسنو، «مارافاجين» لساندراس. قرأت أيضاً ترجمات، «كوخ العم توم»، «ولادة جالنا»، «قال لي إصبعي الصغير»، «القديسون الأبرار»، «الحب الأول» لتورغينيف التي أحببتها كثيراً. كان الطقس مايزال حاراً في الخارج والمكتبة مكان هادئ وبارد، وكنت أشعر أنه لن يبحث عني أحد هناك. تعرفت في المكتبة على الأستاذ رشدي الذي كان أستاذاً للغة الفرنسية في إحدى الثانويات. حين كنت أتعب من القراءة، أخرج من المكتبة، أجلس فوق حائط صغير، في الحديقة الترابية الصغيرة، وكان الأستاذ رشدي يأتي ليدخن لفافة ويدردش. لم يسألني شيئاً، لكنني أظن أنه كان منشغل البال لرؤيتي أقرأ الكثير من الكتب. هو الذي أرشدني، قال لي ماذا أقرأ أولاً، وحدثني عن المؤلفين العظماء، عن فولتير وديدرو، وكذلك عن المعاصرين مثل كوليت، عن شعر رامبو الذي لاأفهمه لكنني أجده جميلاً. كان الأستاذ رشدي فقيراً لكنه أنيق ببدلته البنية المكوية دائماً، قميصه الأبيض وربطة عنقه الزرقاء الداكنة. كان يدخن كثيراً وشاربه الرمادي مصفرّ من التبغ. لكنني كنت أحب جداً طريقته بإمساك السيجارة، بين السبابة والإبهام، كأنه يشير إلى شيء بالمسطرة.

حين يخفت الضوء أعود إلى دوار تبريكه. وأثناء عبور القارب

منزلقاً فوق مياه المصب الباهتة، كان رأسي يعجّ بالكلمات التي قرأتها للتو، وبالشخصيات والمغامرات التي عشتها منذ بعض الوقت. فيما بعد، كنت أسير في شوارع المخيم، كأنني قادمة من عالم آخر. كانت تغريدة تعد الحساء والبلح الباكوري القاسي والجاف مثل قصب السكر، وتخبز رغيفاً دائرياً في فرنها الحجري الذي تغلقه بقطعة طوب، وقد بدا لي أنني لم آكل أطيب من ذلك ولم أعش حياة أهنأ من تلك. أنسى زُهرة وكل ماعشته في الماضي.

لم تكن حورية تصل إلى البيت إلا ليلاً وهي منهكة، خداها مشتعلان من بخار المكاوي، وعيناها محمرتان من كثرة الخياطة طوال النهار. كانت تئن قليلاً، ثم تشرب عدة أقداح من الشاي وتستلقي، لكنها لا تنام. كنا نتحدث أثناء الليل مثلما كنا نفعل في الفندق. أي كنت أتكلم لوحدي، لأنني لم أكن أسمع ما تقوله، وليس بوسعي قراءة شفاهها.

كانت تخرج بين الحين والآخر، السبت مساء. يأتون لاصطحابها بالسيارة. لكنها لم تشأ أن يعرف أصدقاؤها أين تسكن. كانت تنتظر تحت شجرة أكاسيا هزيلة، عند مدخل الدوار. تأخذها السيارة داخل غيمة من الغبار، يتبعها صبية يرشقونها بالحجارة.

في إحدى الأمسيات، بينما تغريدة منشغلة في الخارج، وشوشتني حورية في أذني السليمة عما ستفعل: ما إن تمتلك المال الكافي، ستركب السفينة وترحل إلى إسبانيا ومن هناك إلى فرنسا. أرتني مدخراتها، رزم من الدولارات الملفوفة والمربوطة بمطاطة، تخبئها في محفظة الزينة تحت الوسائد. قالت لي إنه لا ينقصها سوى القليل من الرزم كي تدفع أجرة السفر والعبّارة. كانت تتحدث بصوت منخفض وبانفعال كأنها ثملة. أما أنا فقد انقبض قلبي لدى رؤية كل هذا المال، لأن ذلك يعني أن حورية سترحل قريباً. استفزتها تكشيرتي، كأنني على وشك البكاء.

ـ ما بكِ؟

ـ ماذا سيحلّ بي إذا رحلتِ؟ لا أريد البقاء هنا مع تغريدة.

ضمتني إليها. كانت تحاول مواساتي بالكلام المعسول، لكنني بتُ على يقين بأنها صممت على كل شيء. لم يعد قلبها معنا منذ مدة.

كانت واثقة من نفسها بمظهرها كدمية. كانت حورية رهيفة الجسم جداً، يداها صغيرتان، ووجهها ذو الجبهة المحدّبة احتفظ بسيماء الطفولة العنيد. وقد صممت على الهروب من كل هذا، من تلك الشوارع الترابية، من ذلك الطريق الذي تهدر فوقه الشاحنات، من الأسطح الإسمنتية الليفية، حيث المطر يحدث ضجيج سيل، والشمس تحرقك مثل حديد محمّى. الجدران التي تنبعث منها رائحة البول من التعفن، الآبار حيث المياه سوداء سامّة، الأطفال العراة الذين يلعبون فوق أكوام القمامة، الفتيات الصغيرات ذوات الوجوه الملطخة بالسخام، منحنيات تحت أحمالهن مثل العجائز. كل ما يذكرها بطفولتها، البؤس في الريف، حيث مياه الشرب لها مذاق الفقر. وأكثر ماكانت تريد الهروب منه هي الحفلات مع سادة المجتمع الراقي في سياراتهم الليموزين السوداء ذات النوافذ الداكنة، حيث يجدر بها الضحك والمرح والسعادة، لأن التعاسة لا تعجب أحداً. وتهرب دوماً من الذين يرسلهم ذلك الرجل العنيف. لأنهم زوجوها إياه، فهو يظن أن لديه كل الحق على جسدها إلى حد التعذيب.

ذات مساء عادت ثملة. بدت نظرتها تائهة، معتوهة إلى حد ما، أخافتني. شاهدتها على ضوء مصباح الكيروسين تعدّ رزم الدولارات المخبأة. لاحَظَتْ أنني لم أكن نائمة وأنني أنظر إليها. دنت مني وقالت:

ـ لن تمنعيني من الرحيل، لا أنت، ولا أحد!

حدّقتُ بها دون أن أنبس ببنت شفة.

ـ سوف أقتلك لو حاولت، سأقتل نفسي لو كان علي البقاء هنا.

قالت ذلك ووضعت فوق عنقها السكين الصغيرة التي تحملها معها دائماً، كي تدافع عن نفسها ضد «القحبات».

بعد ذلك، لم تتحدث في الموضوع أبداً. وأنا أيضاً، لم أقل لها شيئاً. كنت على يقين أنها سترحل، وأنها التقت مهرِّب الحدود. عندئذ راودتني الفكرة بالهروب أنا أيضاً. العبور والرحيل إلى الجانب الآخر للبحر، إلى إسبانيا، إلى فرنسا، إلى ألمانيا، أو حتى بلجيكا. أو إلى أمريكا.

لكنني لم أكن مستعدة. فيما لو رحلت سيكون ذلك للأبد، دون عودة. كنت أفكر بذلك ليل نهار. أمشي في أزقة دوار تبريكه، لكنني لم أعد هناك. أقفز فوق برك الوحل، ألتف حول تجمعات الأولاد، أو أملأ أوعية البلاستيك من الصنبور، في آخر الشارع الرئيسي، لكنني كنت أفعل ذلك كأنني في حلم.

بدأت بقراءة كتب الأطلس لأعرف الطرق وأسماء المدن والمرافئ. تسجلت في أحد المعاهد لدروس الإنكليزية، وفي معهد غوته لدروس الألمانية. كان من الطبيعي أن أدفع الرسوم، وثمن كل أنواع المراجع. لكنني ارتديت فستاني الأزرق الشهير ذا الياقة البيضاء والذي أطلته قليلاً وأعدت ترتيب مواضع أزراره، رفعت شعري الأشعث المحمرّ تحت عصبة رأس بيضاء في غاية الأناقة، وصرت أروي لهم حكايتي، بأنني يتيمة، لاأملك المال، صمّاء قليلاً بإحدى الأذنين، ومستعدة لكل شيء كي أتعلم، كي أسافر، كي أصبح شخصاً هاماً. كان بإمكاني الدفع عن طريق أعمال التنظيف، أو كتابة المغلفات، أو ترتيب الكتب في المكتبة، أو أي شيء. في مكتب الخدمات الثقافية الأمريكية، رقتُ في عيني السكرتيرة، وهي امرأة سوداء بدينة. في المرة الأولى التي دخلت فيها إلى مكتبها، صاحت:

ـ أوه، يا إلهي، يعجبني شعرك!

مرّرتْ يدها فوق شعري المنفوش والمنتفخ تحت العصابة المطاطية وسجلتني دون أن تسألني شيئاً آخر.

كان في الدورة الألمانية الأستاذ جورج شون، وهو شاب طويل نحيل، شعره أشقر خفيف ومجعد، له نظرة رمادية رزينة وحزينة. كنت أعجبه. أخذني إلى صفه على سبيل التجربة. بدأت أعيد سرد لائحة طويلة من الكلمات والإعرابات. أفعل ذلك بصوت شديد الوضوح، كمن يفهم ما يقول، مثل الشعر. فقال لي السيد شون إن ذاكرتي خارقة، وربما كان ذلك بسبب أذني المصابة.

في المساء، كنت أحضر الدروس عند تغريدة. أقرأ على نور الشمعة، أكتب وظائفي. وفي أحد الأيام عرض السيد شون وظيفتي أمام كل الصف.

ـ ما هذا؟ هل أكلتِ أثناء الدراسة؟

صار بقية الطلاب يهزؤون.

ـ لا، أستاذ، إنها بقعة شمع.

لم يبدُ أن السيد شون قد فهم.

ـ ذلك لأنه ليس عندنا كهرباء. أكتب على ضوء الشمعة. هل تريد أن أعيد نسخ كل شيء؟

نظر إلي بهيئة مرتبكة.

ـ لا، لا، الأمر على ما يرام.

لكنه بعد ذلك أصبح غريب الأطوار قليلاً. كان يتطلع إلي كأنه يفكر دوماً ببقعة الشمع فوق دفتر وظيفتي. لم أتمكن من إدراك ما يشغله. كان يبقيني مراراً بعد الدرس، يطرح علي أسئلة عن المكان الذي أسكن فيه، الناس الذين يعيشون هناك. كنت أخاف أن يشي بي للشرطة. كانت نظرته مغشّاة مضحكة، حزينة على الدوام، وحين يتحدث إلي يمسك بيدي يمسُّها بأصابعه. كان يذكرني بالسيد دولاهي، لكنه ألطف وأرق. إذ لديه طريقته نفسها بالنظر موارباً وهو يرف برموشه. يقول لي إنه سيحصل على منحة من أجلي كي

أذهب إلى دوسلدورف، مدينته ومسقط رأسه. وهو يريدني أن أذهب لملاقاته هناك. كان يقول بأنني سأقوم بأشياء هامة بالتأكيد. سأصبح مشهورة وغنية، وستكون لي صور في الصحف.

كان الأستاذ رشدي يتابع كل ذلك. وماعدت آتي إلى المكتبة كثيراً بسبب دروس الألمانية والإنكليزية، لكنني حين آتي أجده هناك يقرأ كتبه الفلسفية في آخر القاعة. بعد وقت قصير كان يخرج ليدخن سيجارة، وأنا أذهب وألحق به في الحديقة. عندما حدثته عن السيد شون هزّ كتفيه وقال:

ـ إنه واقع في حبك، هذا هو السبب.

نظر إلي بطريقة صارمة قليلاً.

ـ وأنت يا آنسة؟ هل أنت واقعة في حبه؟ أضحكني سؤاله. أنتِ صاحبة القرار، فأنت شابة والحياة أمامك. ختم الأستاذ رشدي.

ثم طلب مني أن أقرأ كتاب «ضمير زينو» لإيتالو سفيفو. وقال بغموض:

ـ من لم يقرأ هذا الكتاب، لم يقرأ شيئاً.

بعد ذلك حدثني بطريقة مختلفة. كان يقرأ لي أشعار جورج شحادة وأدونيس. ذات يوم قلت له كي أغيظه:

ـ أعتقد أنني سوف أتزوج حقيقة من الأستاذ شون.

بدا فجأة مهدود القوى. قال لي:

ـ لا أنصحك بذلك.

كان هذا يرضي غروري، لأني كنت واثقة من أن الأستاذ رشدي مغرم بي، وأنا أتسلى برؤية وجهه يتغير حين أحدثه عن زواجي.

استمرت حياتي الدراسية ستة أشهر حتى الربيع. قررت عدم

الذهاب إلى المعهد. كانت هناك مصاعب في المنزل. تغريدة تتخاصم طوال الوقت مع حورية، تتهمها بالاستغلال وعدم تقديم المال لها، حتى اتهمتها بسرقتها. وكانت حورية تثور غضباً، تطلق الشتائم البذيئة، تخرج صافقة الباب. كانت تختفي ليالٍ بحالها، وأنا أبقى دون نوم أترقب، كأنني سأتمكن من سماع وقع خطواتها في الزقاق.

ثم حصل ما حصل. ففي بعد ظهر أحد الأيام كنت قد مكثت في الصف بعد الدرس كالعادة لأنها تمطر، كي أراجع تصاريف الأفعال. كان الأستاذ شون واقفاً ورائي، يتابعني من وراء ظهري. كنت ألبس ثوباً أسود أعارتني إياه حورية، مكشوف الظهر بشكل كبير. تلك المرة الأولى التي ألبس فيها هذا الثوب، إذ إنه الربيع، ولم يكن لدي كفاية من المعاطف والكنزات. فجأة مال علي الأستاذ شون وقبّلني على رقبتي، قليلاً جداً، وبخفة شديدة. كان الأمر سريعاً جداً لدرجة أنه لم يتسنَّ لي الوقت كي أستوعب، قد تكون ذبابة حطت وطارت. لكنني شاهدت الأستاذ شون ورائي. كان أحمر اللون كلياً، يلهث كمن يركض. أما أنا، فقد تصرفت كأن شيئاً لم يحصل، وجدت ذلك سخيفاً إلى حد ما، لا بل مضحكاً، فهذا الرجل الحزين والبارد جداً تصرف فجأة مثل صبي صغير.

أما هو فقد تراجع. بدا شاحباً تماماً وأكثر حزناً. كان ينظر إلي من بعيد، من خلال بؤبؤيه الرماديين، كأنني شيطان. لا أعرف ماذا غمغم، لم أسمع الكلمات، لكنني فهمت بأن علي الرحيل بسرعة. كان ذلك لا يصدق، ذلك الرجل الشديد الوقار والأهمية، أستاذ الألمانية في جامعة دوسلدورف، يتداعى لتقبيل عنق فتاة صغيرة سوداء جداً من دوار تبريكه.

عندئذ جمعت دفاتري وكتبي وهربت تحت المطر الناعم المنساب إلى ظهري عبر الياقة الشهيرة المكشوفة التي كان لها تأثيراً عظيماً على الأستاذ شون.

بعد بضعة أيام التقيت مصادفة وأنا أتنزه بالقرب من باب الريح بألين بوسترو، تلميذة الدروس الألمانية، فقالت لي إن الأستاذ متأسف جداً لمغادرتي، ويأمل عودتي، وإنني على لائحة الطلاب الذين يعوّل عليهم من أجل منحة دراسية في ألمانيا. لم أعرف لماذا كانت تلك الفتاة تروي لي كل ذلك. ربما كانت تخرج مع الأستاذ شون ويبوح لها بأسراره. فهي تبدو لطيفة وساذجة ولا يمكن التصديق بأنه روى لها ماحصل.

قلت نعم، بالتأكيد سأعود في أسرع وقت ممكن، لكنني حالياً مشغولة جداً. أردت التخلص منها، كنت أنظر في كل الاتجاهات، وقلت في نفسي، لو تابعت الوقوف فإن شرطة زُهرة ستأتي لتوقفني. قرأت ألين في نظرتي شيئاً ما، في اضطرابي وخوفي. مالت عليّ وقالت:

ـ ليلى، هل عندك مشاكل؟

كانت ابنة تاجر فرنسي كبير، يحتكر تجارة كل الدراجات الصينية في أفريقيا. كيف بوسعها أن تدرك شيئاً من حياتي؟ كنت خائفة جداً أن ألفت النظر بسببها، هي الشقراء جداً والأنيقة. قلت، لا، لا، كل شيء على مايرام، وهربتُ، وتهتُ في الزحام، قمت بدورة كبيرة كي أصل إلى العبّارة.

بعد تلك الحادثة توقفت عن العبور. كنت أشعر بالأمان في ذلك الجانب من النهر. توقفت عن كل الدروس، تركت مكتبة المتحف والأستاذ رشدي. خلال أسابيع لم أجرؤ على الخروج من دوار تبريكه. أمكث في بيت تغريدة، داخل الفناء الصغير، تحت المظلة البلاستيكية، أصغي لصخب المطر فوق الإسمنت الليفي، وأتفرج على سيول الماء تملأ الأسطوانات.

كان ذلك الوقت طويلاً وبائساً. فحورية تنتظر طفلاً، لهذا السبب تشاجرت مع تغريدة. لم أسأل شيئاً، لكنني أعتقد أن حبيبها كان

يأتي ليأخذها بالسيارة. تفاقمت فجأة حالة تغريدة. صارت تؤلمها أربية فخذها ليل نهار، كانت عقدها قاسية وسوداء مثل حب الزيتون. أصبحت ساقها رمادية ومنتفخة، لا تحسّ بها، كأنها من الخشب. تُمضي النهار جالسة تتطلع إلى ساقها وتلعن العنكبوت الذي لدغها والفتيات الأخريات أيضاً، سليمة، فاطمة، عائشة، بسبب مشاجراتهن الماضية. كانت تقول إنهن جميعاً ساحرات، يرمين اللعنات. الكلمة ذاتها التي كانت تقولها لي زُهرة: ساحرة. كانت تهذي، تدعي أنهن وضعن لها شوكة في حذائها. فكرت أنه عاجلاً أم آجلاً، سوف أكون أنا المتهمة.

للمرة الأولى شعرت برغبة الرحيل، بعيداً جداً. الرحيل للبحث عن أمي، عن قبيلتي، عن بلاد بني هلال، وراء الجبال. لكنني لم أكن مستعدة. ربما لم يكن لكل هذا وجود، وأنا اخترعته إذ أنظر إلى قرطيّ.

في تلك الليلة، التصقت بحورية، أسندت أذني إلى بطنها كأنني سأسمع خفقان قلب الطفل.

ـ متى سنرحل؟ سألت.

لم ترد، لكن بيديّ أحسست أنها كانت تبكي أو تضحك بصمت. بعد ذلك قالت لي في أذني:

ـ قريباً سنرحل. قريباً. ما إن يتوافر مكانان في السفينة إلى مالاقا.

أصبحنا حينذاك متواطئتين. كنا بعد الظهر، بينما تغريدة تستريح في غرفتها، عوضاً عن الانشغال بمهام المنزل نعقد جلسات تآمر. تتلو حورية أسماء المدن التي سنذهب إليها، والناس الذين ستراهم. ولم أكن أعرف سوى أسماء كتّاب ومغنين. قلت لها:

«جوزيه كابانيس، كلود سيمون وسيرج جينسبورغ بسبب أغنية إليزا». فقالت حورية:

ـ لو أردت، سنذهب لرؤيتهم أيضاً.

كانت تظن أنهم أناس مثلها ومثلي، أناس يمكننا رؤيتهم.

كانت تغريدة تخرج من غرفتها وهي تعرج. تشتمنا. أدركتْ أننا سنرحل. فراحت تصرخ:

ـ اذهبا حيث تريدان، إلى فرنسا، إلى أمريكا، إلى الشياطين إذا أردتما! لكن لا تعودا إلى هنا!

اشتريت بمدخراتي مذياعاً من سوق الحرامية قرب النهر. جهاز صغير أسود اللون، لاشك أن صاحبه كان دهاناً، لأنه ملطخ بالدهان الأبيض. ماركة رياليستيك. في المساء كنت أستمع إلى جيمي هندريكس من راديو طنجة. كان هناك أيضاً في فترة العصر برنامج جيما. كنت أحب الاستماع إلى صوتها الفتي والمرح والساخر قليلاً. بدأت أشعر بأنها صديقتي، وتشاركني حياتي. كنت أفكر «أريد أن أصبح مثلها». أدوّن على دفتر صغير أسماء كل المغنين الذين تقدمهم، أحاول كتابة كلمات الأغاني بالإنكليزية، «فوكسي ليدي». كان غريباً ذلك الربيع، ربيعي الأفريقي الأخير. المطر ينهمر شلالاً فوق المظلة البلاستيكية في الفناء، وتطوف الأسطوانات بالمياه. صوت جيما يرن في أذني، موسيقا الراديو، نينا سيمون، بول مكارتني، سايمون وغارفونكل، وكات ستيفنس الذي كان يغني للقوارب الطويلة، كان كل ذلك أشبه بانتظار. وحورية التي تنتظر أيضاً، متمددة فوق الوسائد، يداها فوق بطنها. كانت قد بدأت تمشي مترنحة مثل بطة، في حين لم تكن حاملاً سوى بشهرها الأول بالكاد. ودوار تبريكه من حولنا، الذي كان يبدو منتظراً شيئاً ما لن يصل أبداً. الأولاد المتسخون الهائمون بين المستنقعات، أصوات النساء اللاتي يصرخن. وفي المساء، الدعوة إلى الصلاة التي تدوي فوق النهر، تختلط مع صيحات النوارس

العائدة من الصيد. ومن وراءنا، في الليل المعفّر، الطريق الذي تتقدم عليه الشاحنات مثل حشرات ضارة.

في إحدى الأمسيات، كانت تغريدة في أسوأ حالاتها. أرسلتني حورية كي أتصل بابنها. أنا التي أتحدث الألمانية. حين عدت، كانت تغريدة قد ذهبت إلى المشفى حيث سيبترون ساقها. جرى كل شيء بسرعة. في اليوم التالي، في نهاية النهار، تهيأنا للرحيل. كانت هناك شاحنة ستقلنا إلى مليلة، وفي الليلة ذاتها، سيُصعدنا المهرّب على ظهر السفينة الراحلة إلى مالاقا.

أحصينا المال بعصبية. احتفظت حورية معها بالمال الضروري لتدفع للعبارة وأعطتني الباقي، رزمة من ألفي دولار مربوطة بشريطة مطاطية كبيرة. وفيما كنت أنوي وضعها في جيبي، قالت لي حورية:

ـ ليس هنا، سيُسرق منك كل شيء.

أخذت إحدى حمالات صدرها، وصغّرتها بثني الحمالات وحشت الجيبين بالرزم الملفوفة بالمناديل. وألبستني حمالة الصدر.

ـ تبدين الآن امرأة حقيقية، سوف يقع كل الرجال في حبك!

كنت أشعر كأنني أحمل كيسين ضخمين على صدري.

ـ لن أحتمل ذلك أبداً يا خالتي، إنها تؤلمني. سوف أضيّع كل مالك.

ثار غضب حورية.

ـ كفي عن التباكي، عليك أن تعتادي، أنت ستحتفظين بالمال، ما من طريقة أخرى.

ـ ربما علينا الذهاب لرؤية تغريدة في المشفى؟

حين كنت أفكر فيها أشعر بالندم والاستعداد للتراجع. لكن نظرة حورية كانت قاسية وحازمة. بدت هيئتها تشبه اليوم الذي وضعت فيه السكين في عنقها.

ـ لا، سنقول لها أن تلحق بنا لاحقاً، ما إن نجد مكاناً.

انتظرنا الشاحنة الصغيرة على جانب الطريق حتى منتصف الليل. كنا قد تعفرنا بالغبار وبدونا كشحّاذتين.

في إحدى اللحظات مرت الشاحنة أمامنا. تمهلت ثم توقفت بعيداً عنا قليلاً وأنوارها مطفأة. كنت خائفة، لكن حورية سحبتني بعنف تقريباً. نزل السائق. أشار لي قائلاً إلى حورية:

ـ هل هي بالغة؟

قالت حورية:

ـ ألا ترى صدرها؟ أم أنك أعمى؟

أظن أنه كان مدهوشاً من لوني بشكل خاص. لاريب أنه ظنني قادمة من السودان أو من السنغال. أصعدتني حورية إلى خلف الشاحنة وصعدت بدورها. لم يكن معنا حقائب، وهذا متفق عليه. كيس فقط لكل واحدة، مع القليل من البياضات ومذياعي الشهير.

حين لم ينطلق السائق فوراً قالت له حورية:

ـ ماذا تنتظر يا مغفل؟

غمغم بلغة نصفها إسباني والآخر عربي. قالت لي حورية:

ـ إنهم هكذا في مليلة.

وصلنا إلى الميناء نحو الرابعة صباحاً. لحظة المرور أمام الجمارك دقّ السائق على زجاج النافذة الخلفية وأشار لنا بالاستلقاء. كانت أرضية الشاحنة معبأة بعلب مسحوق غسيل كُتب

عليها كلمة «بلانكو» أي أبيض. بالنسبة لنا نحن السمراوات بدا الأمر هزلياً.

مرت الشاحنة أمام مركز الجمارك ببطء. شاهدت عبر النافذة الخلفية عبور المصابيح الصفراء، ثم عاد كل شيء مظلماً. نهضت كي أنظر فشاهدت مدينة حديثة، بشعة، أبنية كبيرة فوق أعمدة. وكان المطر رذاذاً.

فوق الرصيف سبقنا الكثير من الناس بانتظار السفينة، رجال بالأخص، كذلك بعض النسوة يتلحفن بمعاطفهن، يبدون بردانات جداً. لم يكن هناك أولاد.

جلست أنا وحورية نسند ظهرينا على جدران الرصيف بمنأى عن المطر الخفيف. وعلى كتفي غفت حورية. كانت تنتظر هذه اللحظة منذ وقت طويل وفجأة لم يعد بوسعها مقاومة التعب. حاولت تشغيل مذياعي، لكن في هذه الساعة، لا تتحدث جيما. ما كان هناك سوى قرقعات تجفلني مثل حشرات من آخر العالم.

قبل الفجر بقليل لامست السفينة الرصيف. قارب كبير يغطي سطحه غطاء. بدأ الناس بالركوب. كانوا يستعجلون للحصول على مكان في الحجرة، وكنا آخر من صعد. جلسنا على سطح القارب عند حاجز الحراسة.

كان المهرّب يسير دون أن يقول شيئاً. يمدّ يده ليستلم بقية المال. يقبض على الأوراق النقدية بسرعة كبيرة. يقول بين الحين والحين بصوته المخنخن: حسناً، حسناً. ماعدا ذلك، لم يفكر أحد بالكلام. كان الجميع يصغون لاهتزاز العنفة بانتظار اللحظة التي ستتسارع فيها للرحيل.

خلال بضع دقائق بدا كل شيء على أهبة الاستعداد. رفع البحار

حبل المركب وانزلقت السفينة ببطء نحو مدخل الميناء وهي تتهادى فوق اليم.

هكذا رحلنا. كنا مغادرين دون أن نعرف إلى أين، دون أن نعرف متى سنعود. كل ما كنا نعرفه راح يرحل ويختفي. كنت أفكر ببيت الملاّ الصغير جداً وسط تجمع البيوت عند ضفة النهر والذي صار بعيداً الآن وسيطلع النهار عليه، دوار تبريكه، والنساء اللاتي يقفن بالدور أمام صنبور الماء البارد. ربما سنموت هناك، في الجانب الآخر للبحر، ولن يعرف عنا شيئاً أحد هنا أبداً.

6

كيف جرت بقية الرحلة حتى باريس. هذا ما لن أعرف كيف أقوله لكم. أنا التي، إذا أمكنني القول، لم أخرج من بيتي أبداً، وأمضيت كل طفولتي في فناء لالا أسمى، وأبعد ماذهبت اليه فيما بعد كان آخر جادة في حي المحيط وبالعبّارة حتى ساليه ودوار تبريكه، هأنذا أركب سفينة كبيرة وسريعة، وأعبر إسبانيا بالحافلة حتى «فال دوران» (اسم لن انساه أبداً)، ثم مشياً على الأقدام في الجبل الثلجي، معطية يدي لحورية التي تتنهد.

دون أن نعرف أين نحن ذاهبتان، كنا نتعثر فوق الدرب عبر الجبل مع الآخرين، حتى دون أن نعرف أسماءهم. كل واحد بحاله. كان المرشد صبياً فتياً يلبس الجينز وحذاء رياضياً، له سمرة الناس الذين يرشدهم. ورغم التعليمات، كان البعض يحمل حقائب، متاع سفر وكيس حوائج بحمّالة.

عند حلول الليل عبْر الممر الجبلي، كان قاع الوادي مفروشاً بالضباب الحليبي، دخان بلا نار. قلت لحورية:

ـ انظري، هذه فرنسا، إنها جميلة...

كانت شاحبة جداً. بطنها يؤلمها. جاء الصبي. نظر إليها وقال بالإسبانية:

ـ هل تنتظر طفلاً؟

قلت:

ـ لا أعرف إنها تعبة.

هز كتفيه. تركتهم حورية يرحلون. رأيت الموكب الصغير ينزل في تعرجات الدرب. ما كانوا يتحدثون أو يصدرون أدنى صوت. بدا المنظر جميلاً جداً، ذلك الوادي الرحب ونهر الضباب. فكرت أنه حتى لو متنا الآن ليس لذلك أهمية، لأننا أصبحنا هنا، في أعلى الجبل، وشاهدنا هذا الوادي الشاسع مثل باب.

لا أدري لماذا، للمرة الأولى، فكرت حقيقةً ببلادي، كأنها هنا، في هذا الوادي الذي كنت أرحل عنه بعيداً جداً، وأتركه ورائي كلياً. بقيت في الخلف أتمهل. تسحرني الوداعة، بسبب الضباب والليل الآتي. كانت حورية قد نفد صبرها:

ـ هيا، تعالي، سوف نضيع.

قرب سفح الجبل كان الموكب ينتظر عند أطراف غابة صغيرة. بدأنا نسمع صخب شلال يخفيه الليل. حين وصلت، توجه الإسباني إلي كأنه كان ينتظرني كي أترجم له.

ـ سوف ننام هنا، لايمكنكم إصدار صوت ولاإشعال النار أو السجائر، مفهوم؟

رددت ما قاله بالعربية، ثم أضاف:

ـ غداً سوف تنقلكم شاحنة إلى تولوز، حتى قطاركم.

ذهب دون أن ينتظر الرد. ووجدنا أنفسنا وحيدين داخل الغابة.

أتذكر تلك الليلة. بعد حرارة النهار عند تسلقنا الجبل حلّ برد فظيع ورطب، كان يخترقنا حتى العظم. حاولت أنا وحورية النوم فوق الأوراق الإبرية، بين أشجار الصنوبر لكن البرد المتصاعد من الأرض كان يجعل أسناني تصطك. لم يكن معنا شيء ولا حتى غطاء. بعد قليل جلسنا الواحدة ملتصقة بالأخرى حتى لانشعر ببرودة الأرض. وكي لا ننام رحنا نحكي لبعضنا البعض الحكايات، أي

شيء، عما كان يجري في الفندق، أقاويل، افتراءات، ونبتدع النكات. لايمكنني تذكر ماكنا نقوله لبعضنا، أتذكر فقط أننا كنا نتكلم الواحدة بعد الأخرى، ونحن نهمس ونضحك، أحياناً كنا ننسى، فيعتدل الآخرون: «هس! سكوت!».

الآخرون هم أيضاً لم يناموا. شاهدتهم ينهضون، يسندون ظهورهم إلى الأشجار. وبين الحين والآخر كنا نسمع وقع أقدام فوق إبر الصنوبر، إذ إن أحدهم يجلس القرفصاء ليتبول.

تمكنا من النوم في الشاحنة التي تقلنا إلى تولوز. عند مطلع النهار كانت على الطريق عند أطراف الغابة، وأصعدنا الإسباني بسرعة كبيرة ثم رحل نحو الجبل دون حتى نظرة أو إشارة وداع. غفوت داخل الشاحنة الصغيرة على كتف الشاب الجزائري عبدول. كدت أنام وأنا أمشي لشدة تعبي. كان الطريق يلتف ويلتف. شاهدت عبر فتحة الغطاء أشجار التنوب السوداء الباسقة، شوارع القرى، وأحد الجسور. بعد ذلك محطة تولوز للقطارات، البهو الكبير بسقفه المرتفع، والأرصفة التي ينتظر عليها الناس قطار باريس. أعطى السائق البطاقات والتعليمات: «لا تظلوا معاً. اذهبوا كلٍ على حِده، لاتثيروا الشبهات». أخذتُ حورية من يدها، جررتها حتى نهاية الرصيف، هناك حيث كانت الواجهات الزجاجية تسمح بمرور الشمس. لدى رؤيتي السماء الزرقاء شعرت بالتحسن. أكلنا ما تبقى من خبز تغريدة مع البلح، جالستين على مقعد. فعلنا ما بوسعنا كي لا نلفت الأنظار. كان الناس ينظرون إلينا. أعترف بأننا لم نكن نشبه بقية الناس، حورية بثوبها الأزرق الطويل ومنديلها الأبيض، وأنا ببشرتي السوداء وشعري المشعث من النوم. بربريتان حقيقيتان.

حتى أن صبياً صغيراً، جاء وتسمّر أمامنا كي يتفرّس في وجهينا بشكل أفضل بهيئة وقحة. أخفضت حورية رأسها، أما أنا فقد ثار غضبي وقلت له: «ماذا تريد؟» وعندما لم يذهب تظاهرت

بالمشي نحوه، ففرّ هارباً. كان على الرصيف أناس بغرابتنا. رجال ونساء بشرتهم داكنة وشعورهم سوداء بلون القار. كان لباسهم رثاً، يتحدثون لغة مضحكة مع كلمات بالإسبانية. همست لي حورية:

ـ إنهم غجر، يسافرون كل الوقت، ليس لديهم مسكن.

لم أكن قد رأيت مثلهم فيما مضى أبداً. كانوا فقراء، في نظرتهم نوع من الغطرسة. أحدهم شاب حاد الوجه، حدّق بي، كأنه لا يستطيع نزع نظره عني، وللمرة الأولى شعرت بقلبي يخفق من الخوف، من التوجس، أو شيء من هذا القبيل. فشدتني حورية من ذراعي:

ـ يجب ألا تنظري إليه، سيجلب لنا المتاعب.

اقترب الغجري منا وقال:

ـ من أين أنتم؟ هل تذهبون إلى باريس؟

كانت أسنانه البيضاء تلمع فوق وجهه الداكن. يمشي وهو يهز كتفيه مثل أزعر. جرتني حورية نحو الطرف الآخر للرصيف، وهي تردد:

ـ أنت مجنونة يا ليلى، أنت مجنونة، إنه خطير.

ثم وصل القطار، وعند الأبواب أحاطنا الحشد من كل صوب. وجدنا مكاناً في مقصورة خالية، ورحل القطار فوق السكة مغادراً المحطة. كنت أتفرج على البيوت تنسل نحو الخلف وأفكر بكل ما تركته، الشوارع الصاخبة، البيوت المتراكمة في تبريكه، فناء بيت لالا أسمى والفندق مع الباعة الذين كانوا في الماضي يملأون الغرف والقناطر مع حزمهم وأكياس فاكهتهم المجففة. فكرت أنني ربما سأعود ذات يوم ولن يكون هناك شيء أو أحد من ذكرياتي. انقبض قلبي وشعرت برغبة البكاء وأنا أفكر بتغريدة في غرفتها بالمشفى وساقها مبتورة. بدا لي أنني برحيلي فقدت آخر شخص من عائلتي.

كانت حورية قد غفت قبالتي فوق مقعدها، مستندة على أكياسها. بدأ نور الشمس يضيء للحظات وجهها وعينيها بأهدابهما الطويلة جداً، وثغرها الذي تلمع فيه أسنانها البيضاء.

ذهبت إلى الممر كي أدخن سيجارة. كنت قد بدأت التدخين على ظهر السفينة، إذ إن السجائر الأمريكية تباع دون ضريبة في مليلة. أحب التدخين في الخلاء، أتفرج على الدخان يدوّم في الهواء. وكنت لأخجل لو رأتني حورية وهي تقول:

ـ أتدخنين الآن؟

كان القطار طويلاً، لم يكن في المقطورات الكثير من الناس. فبدأت بالتنقل من عربة إلى عربة، وفجأة رأيت الغجري. لاشك أنه كان يتبعني، لأنه بدا وحيداً في آخر الممر. تظاهرت بأنني لم أره وأردت العودة إلى مقصورتي. سدّ علي الطريق. كان طويلاً، داكن البشرة، له حاجبان شديدا السواد يلتقيان وسط جبهته. كان يبتسم. قال على ماأظن:

ـ ما اسمك؟ بلهجة فرنسية غريبة مثل أمريكي جنوبي. وأردف:

ـ أتخافين مني؟

ما أحببت في حياتي المغرورين. فقلت له:

ـ ولماذا أخاف منك، من فضلك؟

في الوقت نفسه، عَبرْتُ من تحت ذراعه مثل طفلة. مشى ورائي، لم أكن أريد أن يعرف أين حورية. توقفت في الممر قرب المراحيض وأشعلت سيجارة أخرى. بقي الغجري بقربي، ينظر عبر نافذة البوابة. كانت الارتجاجات على وشك أن توقعنا، والضجيج الآتي من الممرّ يصم الآذان. قال وهو يصرخ:

ـ اسمي ألبونيكو! وأنت؟

كان الهواء قد عبث بشعره واعترضت وجهه خصلة سوداء طويلة. رأيت بلمحة أن لديه سناً ذهبياً، وقرطاً ذهبياً في أذنيه. لم يكن يبدو خطراً. أعطيته اسماً من خيالي، ديزي على ما أعتقد، وبدأ بالكلام قليلاً. في نهاية الأمر كنا على القطار نفسه نرحل إلى باريس، ولقتل الوقت، كان ذلك جيداً مثل النظر عبر النافذة أو قراءة مجلة. كما لم أكن أشعر بالنعاس، على العكس، كنت أشعر بنفاد الصبر، ممتلئة بالطاقة. كان يتحدث عن الموسيقى لأنها مهنته. قال بأنه يعزف ويغني. وفي إحدى اللحظات قال:

ـ انتظريني.

ذهب نحو مقدمة القطار، عاد ومعه غيتار. وضع إحدى قدميه على طرف البوابة وراح يعزف. كان يعزف موسيقى غريبة مثل قرع يمتزج بهدير القطار، ثم أنغاماً صادحة تتفجر بسرعة. لم أسمع في حياتي مثل هذا، ولا حتى في مذياعي العتيق. راح يعزف وفي الوقت نفسه يتكلم، يغني، أو بالأحرى يدمدم كلمات بلغته، أو غمغمات، همهمات، آهم، همم. هكذا، ثم توقف.

ـ هل أعجبتك؟ أتحبين موسيقاي؟

يبدو أن عينيّ كانتا تبرقان لأنه تابع العزف. كان هناك أناس قد أتوا ليشاهدوا، أولاد خرجوا من الطرف الآخر للعربة، لا بل إن هناك مفتش ببدلة زرقاء داكنة وقبعة، توقف برهة ثم تابع. توقف ألبونيكو لحظة بين ائتلافين. قال بسرعة:

ـ أترين؟ حين أعزف لا يطلبون بطاقتي.

ربما لهذا السبب أحضر لي غيتاره. كنت أرغب بالرقص، تذكرت أيامي الأولى في الفندق، حين كنت أرقص للأميرات، حافية القدمين فوق بلاط الغرف البارد وهنّ يغنين ويصفقن بأياديهن. هكذا كانت موسيقى الغجري تخترقني وتمنحني قوى جديدة.

وصلت حورية، وكما يمكنكم أن تتصوروا، لم تكن مسرورة برؤيتي مع هذه الصحبة. قالت لي بالعربية وهي تكزّ على أسنانها:

ـ تعالي، لا يجدر بك البقاء مع هذا الرجل.

كانت قد خرجت من المقصورة مع أكياسنا ومذياعي خشية أن يُسرقوا. بدت خرقاء بكنزتها البنية وثوبها الأزرق الطويل الذي يمنحها هيئة حامل حقيقية. أثّرت بي. كانت في الحقيقة عائلتي الوحيدة، أختي. سحبتني من يدي، والغجري يتطلع إلينا نرحل وهو يضحك. حقدت عليه لأنه هزأ بي وبها، فقد كان مغروراً جداً! لم تكن حورية خائفة عليّ من الضياع. استيقظتْ وحيدة في المقصورة وكانت خائفة جداً على نفسها. هي من كانت ستضيع من دوني. فعانقتها بقوة فوق المقعد كي أطمئنها.

ـ أتعلمين؟ أنت في فرنسا الآن، لا تخاطرين بشيء. لا يمكن لأحد أن يعثر عليك.

كنا في الموقف نفسه، هي، يبحث عنها زوجها، وأنا تبحث عني كنّة معلمتي. وكل طرقة من عربة القطار فوق تقاطع السكة الحديدية كانت تبعدنا عن جلاّدينا، وتوسع البحر الذي يفصلنا عنهم.

حين وصل القطار إلى باريس كنت نائمة بعمق. بقيت حورية مستيقظة حينذاك. كلمتني برقة:

ـ استيقظي يا ليلى، لقد وصلنا.

كان الليل قد حلّ، ورأيت عبر النافذة أضواء تتراقص بينما القطار يتهادى وهو يئز فوق تقاطع السكك. كانت تمطر، تمعنت في القطرات المتراكضة فوق الزجاج، دون أن أتمكن من الحركة. يبدو أن هيئتي كانت تعبة جداً، حتى أن حورية خافت وثار غضبها.

ـ لكن، ماذا حلّ بك؟ استيقظي، يجب أن ننزل.

لم أكن قادرة على التصديق أن الأمر انتهى، وهذه نهاية الرحلة. رغم إعيائي، وددت لو أعطي أي شيء كي يتابع القطار رحيله إلى الأبعد لأتمكن من العودة للنوم بطمأنينة.

ها نحن في باريس نمشي تحت المطر، متقوقعتين تحت مظلة حورية المتلوية، مع حوائجنا، شبكة البرتقال ومذياعي الشهير «رياليستيك». على طول الرصيف، نواحي المحطة، نبحث عن مسكن للّيلة، في شارع جان بوتون، في شقة الآنسة مايّر المفروشة والتي أظنها اليوم لم يعد لها وجود.

7

باريس في البدء كانت رائعة. كنت أركض في الشورع دون توقف. حورية تبقى سجينة الشقة المفروشة، تطبخ وتراقب. تخشى كل شيء. مثل الماضي، حين كانت في الفندق. في الصباح كنت أتسوق وأذهب إلى كل مكان. أخرج نحو السابعة أو الثامنة ومعي أكياس من النايلون، أشتري البطاطا (أكثر ما كنا نأكل البطاطا المسلوقة)، الخبز، البندورة، الحليب، كان اللحم غالي الثمن جداً، كما أن حورية تخشى أن تُطعم لحم خنزير.

كان علينا الادخار. الغرفة تكلف خمسمائة فرنك في الأسبوع، إضافة إلى الكهرباء. لم نكن نتدفأ. كان المطبخ مشتركاً لجميع المستأجرين. كلهم سود، تؤويهم الآنسة ماير، كل أربعة في غرفة واحدة. هي نفسها تسكن في فسحة درج المنزل وتأتي كل لحظة لتراقب ما يجري. بعد عدة أيام، تعرفتُ على ماري إيلين الغوادولوبية التي تعمل في مشفى بوسيكو، وعلى صديقها جوزيه، الأنتيلي أيضاً، وعلى كل الأفارقة، نيمباي، مادي، أنطوان، نونو الأصغر مني، الداكن البشرة والذي يلعب الملاكمة. كنت أحبهم جداً، كانوا مسلين، يمرحون بأي شيء، ويتكلمون عن المالكة، الآنسة ماير يلقبونها بـ «العجوز الشمطاء»، أو «الشيبانة» كما سمتها فاطمة التي كانت قبلنا في الغرفة. كانت الآنسة ماير قد قالت حين رأتنا: «أساساً، لاأؤجر لعرب أبداً». لكنها قامت باستثناء، ربما بسبب لوني.

في الأيام الأولى عشقت هذه المدينة. كانت تخيفني قليلاً لأنها كبيرة جداً، لكنها مليئة بالأشياء الرائعة، بالناس الغريبي الأطوار. هكذا كنت أراها.

ما أثار دهشتي في البداية الكلاب. إنهم في كل مكان: كبار، ضخام، صغار، بعضها قصير القوائم، وأخرى طويلة الوبر لدرجة لا تعرف معها رأسها من ذيلها، مجعدة كأنها خارجة من عند المزين، وأخرى أوبارها مسترسلة مثل أسود، أو ثيران، أو خراف، أو فقمات. بعضها كان صغيراً جداً حتى لتظنها جرذان، ترتعش ومظهرها خبيث مثلها. وأخرى مثل العجول أو الحمير، براطيلها مضرجة وخدودها متدلية، وحين تهز رؤوسها، تطرش كل شيء بلعابها. قسم منها كان يعيش في شقق الأحياء الجميلة ويركب السيارات الأمريكية والإنكليزية والإيطالية، وبعضها كان يبرز من بين أذرع صاحباته بشرائط وصدرات صغيرة من القماش المربع. حتى أنني شاهدت أحدها يتنزه مربوطاً بطرف رسن طويل علقته صاحبته بسيارتها.

لا أريد القول إنه لا يوجد عندنا كلاب. هناك الكثير منها، لكن جميعها متشابهة بلون التراب وعيونها صفراء، غائرة البطن حتى لتبدو كالدبابير. هناك تعلمت مراقبتها. حين كنت أرى كلباً يتقدم كثيراً، أو لا يبتعد عن طريقي بسرعة كافية، كنت أختار حجراً مدبباً جيداً وأرفع يدي فوق رأسي، وعموماً يكون ذلك كافياً لإبعاد الحيوان. أفعل ذلك عفوياً بلا تفكير. كنت معتادة على ذلك إلى حد أنني في المرة الأولى في حديقة النباتات، لما اقترب مني كلب كبير نحيل في طرف رسن طويل جداً يبدو مزوداً بنابض، يشم كعبي، قمت بالحركة ذاتها. لم يكن معي حجر، إذ في باريس ليس من السهل العثور على الحصى في الشوارع. نظر إلي الكلب بدهشة، كأنني كنت ألعب بالكرة. لكن صاحبته فهمت، وشتمتني كأني أردت رمي الحجر عليها.

فيما بعد اعتدت على الأمر، لكنني قلما اهتممت بالكلاب. فهي ملكُ لأناس يمسكونها بالرسن وبالتالي ليست خطيرة، برازها فقط الذي يمكن أن ننزلق فوقه ونكسر عظامنا.

كانت تبدو لي شوارع باريس لا نهاية لها. وبعضها فعلاً كأنه دون نهاية، جادات، شوارع عريضة تغيب داخل سيل السيارات التي تختفي بين المباني. بالنسبة إلي، أنا التي لم أعرف سوى عالم الملّاح ومدينة أكواخ تبريكه، أو شوارع حي المحيط الصغيرة المحفوفة بالياسمين، بدت هذه المدينة واسعة الأرجاء لا تنضب. كنت أفكر أنه حتى لو أردت أن أجوب الشوارع، الواحد تلو الآخر، لن تكون حياتي كافية. لن أتمكن من رؤية سوى حيز صغير، وعدد حصري من الوجوه.

كنت أحدق في الوجوه. فمثلما كان للكلاب العديد من الأنواع كذلك وجوه البشر، بدينة، كهلة، فتية، مخروطية، شديدة الشحوب، بلون التراب الأبيض، شديدة السواد، أكثر سواداً من وجهي، تبدو عيونها مضاءة من الداخل.

في الأيام الأولى، لم أكن أتوقف عن التفرس في الوجوه. كنت أشعر أحياناً أن نظرتي جذبت انتباه الآخر ونفذت إليه، ولم يكن بوسعي نزع نظري عنه. جربت حينذاك نظارة سوداء مثل قناع، لكن لم يكن هناك الكثير من الشمس ولم أكن أحب أن أضيّع تفصيلاً أو تعبيراً أو بريق نظرة.

بسرعة كبيرة حصلت لي المتاعب. كان يلاحقني رجال تفرست في وجوههم. أعتقد أنهم يظنونني عاهرة، مهاجرة صغيرة من الضاحية تبحث عن الذهب في شوارع مركز المدينة. كانوا يدنون ولايجرؤون على الاقتراب مني فهم يخشون من فخ ما. وذات يوم أمسكني رجل عجوز من يدي قليلاً. «إذا أتيت إلى سيارتي، سنذهب لشراء الكاتو اللذيذ».

كان يشد ذراعي بقوة، وله نفس عينا الرجل الذي ضايقني فيما

مضى في المطعم مع حورية. كنت على بينة كما تتصورون تماماً. شتمته بالعربية، «كلب، قوّاد، ملعون دين أمك!» ثم بالإسبانية: «مغفل، ابن زنى، سافل!» وهذا ماأذهله كفاية كي يترك ذراعي، فتمكنت من الفرار.

فيما بعد، صرت أحسّ فوراً حين يلاحقني رجل. كنت موهوبة جداً بالتملص. ولكن كان هناك نساء أيضاً أكثر مكراً. كنّ يتحايلن لملاقاتي في مكان لايمكنني الخروج منه، ممر محمي، على السلم المتحرك في متجر، أو في عربة مترو. كنت أخاف منهن. طويلات القامة، بيضاوات، يلبسن خوذات من الشعر الأسود، سترات جلدية وجزمات. كانت أصواتهن خشنة بشكل مضحك، مبتذلة قليلاً. لم أكن أتمكن من شتمهن. أرحل وقلبي يخفق، أعبر الشارع بين السيارات وأنا أركض مضطربة.

ذات يوم، في حمامات أحد المقاهي، خفت جداً. كان الحمام عبارة عن غرفة كبيرة تحت الأرض فخمة جداً، فيها مرآة ومصابيح صغيرة حولها. كنت منهمكة بغسل يديّ ووضع القليل من الماء فوق جبهتي، كما هي عادتي، كي أمسّد شعري المنفوش، وجاءت عن يساري امرأة، تميل إلى الصبا، بدينة قليلاً، أنفها كبير وتخطّ خديها شقوق صغيرة وشعرها أشقر مرفوع. بدأت بالتبرج. نظرتُ إليها مرة أو مرتين في المرآة، الوقت الكافي لرؤية عينيها الزرقاوين المائلتين للخضرة. كانت تضع الكحل على رموشها بريشة صغيرة.

فجأة ثارت غضباً، سمعتُ صوتها يقول بلهجة غريبة، خبيثة وقاسية، لهجة زُهرة حين كانت تغضب:

ـ لماذا تنظرين إلي؟ ماذا بي؟

التفتُّ نحوها. لم أكن أفهم ماتقول.

ـ أجيبي أيتها العاهرة الصغيرة، لماذا تنظرين إليَّ هكذا؟

كانت عيناها جاحظتين قليلاً، شديدتي الشحوب، لدرجة أنني

كنت أرى البؤبؤين في وسطهما، بديا لي كأنهما ينفتحان وينغلقان مثل بؤبؤي هرّ. فتمتمت:

ـ لم أنظر إليك.

لكنها تقدمت نحوي، ممتلئة بحنق بارد أرعبني.

ـ بلى، نظرت إلي، حين لم أكن أنظر إليك شعرت بعينيك اللتين تأكلانني بشراهة.

تراجعتُ نحو الطرف الآخر للحمام، بينما هي تمشي باتجاهي. أمسكتني من شعري بكلتي يديها، وأمالت رأسي إلى الأمام نحو المغسلة. ظننتُ أنها ستضربني وتدق رأسي على لوح الرخام، فصرخت. تركتني. «قذارة، زبالة صغيرة!» أخذت أغراضها.

ـ لا تنظري إليّ. غضي طرفك، قلت لك، غضي طرفك! لو نظرت إلي سوف أقتلك!

وخرجت. كنت خائفة ألا أتمكن من الوقوف على رجليّ. كان قلبي منقبضاً داخل صدري، شعرت بالغثيان. لم أعد بعدها أبداً إلى حمامات تحت الأرض.

هكذا كنت أتعلم شيئاً فشيئاً حياتي الجديدة. أما حورية، فلم يكن بوسعها السعي ورائي. كان حملها يثقل عليها، لاتتحرك تقريباً، لاتخرج من الغرفة إلاّ للذهاب كي تطبخ، حين لا تكون ماري إيلين موجودة. كان الأنتيليون يخيفونها. تقول بأنهم سحرة. لكن أظن أنها تقول ذلك لأنهم سود مثلي. كانت حورية تعدّ مدخراتها كل مساء. لم يمضِ على مغادرتنا مليلة سوى ثلاثة أشهر وقد نقصت المدخرات إلى النصف. على هذه الحال قبل الخريف لن يكون معنا شيء.

كانت حورية تبدو مكتئبة جداً وأنا أواسيها قدر استطاعتي. أعانقها وأقول لها:

ـ سنتدبر أمرنا، سوف ترين.

كنت أعِدُها بآلاف الأشياء: سنجد عملاً، وشقة جميلة على ضفة قنال الأورك، وسنتمكن من العيش حياة طبيعية، بعيداً عن كوخ الآنسة ماير القذر.

ماري إيلين هي التي أنقذتنا. في نهاية الصيف، حين لم يبق معنا كي ندفع الإيجار، وبينما كنت أتخيل معاودة مهنتي القديمة كسارقة، سألتني الأنتيلية ذات يوم في المطبخ:

ـ هل يلائمك العمل في المشفى؟ سألت ذلك دونما اهتمام، لكنني فهمت من عينيها أنها أدركت كل شيء وتشفق علينا.

كان عملي هناك جيداً، تنظيف الغرف. وُظفت فوراً. بما أنني سوداء، قدمتني على أساس أنني ابنة أختها، قالت بأنني من الغوادولوب ومعي أوراق. كان الآخرون يندهشون من عدم فهمي لغة الكريول. لكن ماري إيلين شرحت كل شيء: «ولدتْ هناك، إلا أن أمها أتت فوراً إلى العاصمة، حينذاك نسيت كل شيء». حتى أنني لم أضطر لتغيير اسمي الأول حيث أن ليلى اسم موجود هناك. سجلتني باسم عائلتها: مانجان.

كنت أعمل في بوسيكو من السابعة حتى الواحدة، أقبض نصف راتب، لكنه كان لدفع الإيجار وبعض النفقات. أصبح من الممكن أن يبقى مال حورية لمدة أطول. كما أصبح بالإمكان أن آكل في مطعم المشفى. صارت ماري إيلين تحتفظ لي بمكان إلى جانبها وتملأ صينيتها من أجلي. كانت في غاية الرقة، وأنا أحب نظرتها الدامعة قليلاً. إنها قادرة على الثوران بغضب مخيف أيضاً. في أحد الأيام، بينما كانت الآنسة ماير تلوم حورية على شيء لم أعد أذكره وتهددها بالطرد، تناولت ماري إيلين من المطبخ سكين جزار ومشت مباشرة باتجاه المالكة:

ـ لا أنصحك بطرد أي كائن كان. لديك كل المال الذي ندفعه لك، أيتها العجوز الشمطاء الرذيلة!

ماكنت أعشقه بشكل خاص هي الحفلات. بين الحين والآخر،

بمناسبة عيد ميلاد أو أية مناسبة أخرى، كان السود يغلقون كل الستائر وتغرق الشقة في الظلام. يقرع الأفارقة على الطبول، طبول من الخشب والرق، يعزفون بنعومة بأطراف أصابعهم، والشبان يرقصون على ضوء الشموع. نونو، الملاكم الكاميروني، يرقص في وسط الممر عارياً تقريباً وأحياناً عارياً تماماً. تُسمع الضحكات في الغرف، صوت ماري إيلين يلعلع داخل لسانها البنفسجي. كان جوزيه صديق ماري إيلين يخرج الساكسوفون ويعزف لحن جاز بطيء مع شيء من النشاز بين الحين والحين. في تلك الأيام، كانت الآنسة ماير تتمترس في غرفتها لا تجرؤ على الخروج طالما الاحتفال قائم. حورية أيضاً لم تكن تخرج لكنها تستمع للموسيقى. وأنا كنت أمضي وقتي بالدخول والخروج، أشمّ رائحة الدخان والمطبخ، أنسل بين الراقصين، أساعد ماري إيلين بجمع الكؤوس. آخذ لحورية صحون الطعام، أرز بجوز الهند، يخنة السمك، لسان الحمل المقلي. كنت أرقص مع الأفارقة أيضاً أو مع أنتيلي طويل القامة أخضر العينين يدعى دنيس. وحين يشدني إليه أكثر من اللازم، كانت ماري إيلين تبعده بكلام لاذع:

ـ انتبه، هذه فتاة شريفة، إنها ابنة أختي!

حين انتهى الاحتفال ساعدت ماري إيلين بالتنظيف. كانت تجد صعوبة بالانحناء لالتقاط صحون الكرتون والمناديل الورقية. قالت ضاحكة:

ـ حسناً، لن أكون الوحيدة.

بينما كنت أنظر إليها دون أن أفهم

ـ نعم الوحيدة التي ستلد طفلاً، ماذا، ألم يساورك الشك؟ نظرت إلي بشفقة. أنت حقاً ساذجة، لا تعرفين شيئاً في الحياة. ماذا علمتك أمك؟

فهمت أنها تقصد حورية.

ـ إنها ليست أمي، تعلمين؟

شرعت ماري إيلين بالضحك.

ـ نعم، في جميع الأحوال، أياً كانت، سوف تلد طفلها قبلي.

كانت تلك المرة الأولى التي نتحدث فيها بهذا الشكل. راودني شعور قوي بالتحدث إليها عن أشياء، أن أبوح لها، لكنني لم أكن أعرف القيام بذلك، لم أكن أعرف سوى ابتكار القصص، لأنني مذ فقدت سيدتي، هذا كل ما تمكنت من القيام به. بدأتُ ذات مرة:

ـ ألم أقل لكِ إنه ليس لدي أهل؟

قاطعتني ماري إيلين فجأة:

ـ اسمعي يا ليلى، ليس الآن. ذات يوم سنتحدث. لكن ليس الآن. لا أرغب بسماع هذا، وأنت لا ترغبين بالكلام عنه.

كانت على حق. ربما أدركت أنني لن أقول الحقيقة.

تابعتُ استكشاف باريس طوال الصيف. كان الطقس بديعاً، سماء زرقاء لا تعكرها غيمة، والأشجار ماتزال يانعة الخضرة تلمع. كانت عواصف شهر آب قد أفاضت نهر السين. بعد الظهيرة، عند خروجي من المشفى، كنت أمشي على طول النهر، أذهب إلى الجسور التي تصل الضفتين، أمام الكنيسة الكبيرة. أذهب بعيداً. أحياناً أركب المترو، وأحياناً كثيرة الحافلة. لم أتمكن من الاعتياد على المترو. كانت ماري إيلين تسخر مني وتقول لي:

ـ أنت غبية، على العكس، إنه جيد، في الصيف يكون بارداً، ودافئاً في الشتاء. ليس عليك سوى الجلوس في إحدى الزوايا والإمساك بكتاب، لا أحد يلتفت إليك.

ولكن ليس بسبب الناس، كان البقاء تحت الأرض يعطيني شعوراً بالغثيان. أرقب ضوء النهار وأشعر بثقل فوق صدري. لم أكن أحتمل سوى الخط الخارجي، قرب محطة أوسترليتز، أو قرب كاميرون. كنت أركب الحافلة بلا هدف، وأذهب حتى نهاية الخط. لم

أكن أقرأ أسماء الشوارع. أكثر ما أحاول النظر إليه هم الناس، الأشياء، المباني، المخازن، والحدائق الصغيرة العامة.

فيما بعد، رحت أمشي في كل تلك الأحياء: باستيل، فيديربشاليني، شوسيه دانتان، روشرو سان جاك، سان أنطوان، سان بول. هناك أحياء بورجوازية، أنيقة، تبقى نائمة حتى الثالثة من بعد الظهر، وأحياء شعبية، وأخرى صاخبة، جدران قرميدية طويلة شبيهة بأسوار السجون، أدراج، درابزينات، ميادين خالية، حدائق ترابية مليئة بأناس غريبي الأطوار، حدائق صغيرة لعصرونية الأطفال، جسور سكك حديد، فنادق مشبوهة تعج بفتيات يلبسن الجلد الأسود، مجلات فاخرة تعرض الساعات والمجوهرات، حقائب اليد والعطورات. كنت قد وصلت بصندل جلدي. في الخريف، راح يتناثر قطعاً. اشتريت من مخزن بالقرب من بوابة إيطاليا حذاء رياضياً، أبيض بلاستيكياً، بشعاً جداً، لكنني كنت أتمكن من المشي به لكيلومترات عديدة.

أمشي دون أن أتكلم مع أحد. من وقت لآخر، كان بعض الناس ينظرون إلي، يتظاهرون بالتقرب مني. بعد الذي حدث معي في حمامات ريجنسي ما عدت أنظر إلى الناس في عيونهم. كنت أمشي بهيئة ساهية، كمن يعرف أين يذهب. وفي الحالات التي يلاحقني فيها أحد، أدخل إلى المباني، أنتظر في العتمة، في آخر الممر، أعد حتى المئة وأعاود الرحيل.

هناك أماكن غريبة، بالأخص قرب المحطات. في شارع جان بوتون، على رصيف المحطة، كان هناك شباب يافعون يلبسون البلوزات الواسعة جداً، وفتيات نحيلات بالجينز والسترات، شعورهن مبيّضة بالكلور، وجوههن حادة ونظراتهن ساهية وفارغة. في أحد الأيام، أثناء عودتي إلى البيت، علقتُ وسط مشاجرة. كان الأمر مرعباً ولا يمكن فهمه. في البداية كان هناك رجال ونساء يركضون وهم يتدافعون ويطلقون صرخات عالية، أتراك على ما أعتقد، أو روس، لا أعرف. بعد ذلك، مجموعة شبان بسترات جلدية وبأيديهم

مطارق وعصي بيسبول، مرّوا جميعهم بجانبي. وفيما بقيت مسمّرة على ناصية الرصيف دفعني أحد الشبان من ذوي السترات الجلدية براحة يده. رأيت وجهه المتشنج، وفمه وعينيه اللتين حدقتا بي لوهلة، كانتا قاسيتين وحاقدتين مثل عيني عظاية. ثم رحلوا. ركعت على ركبتي أمام مسرب المياه لاأجرؤ على الحراك. سمعت إنذار الشرطة وكان لدي الوقت الكافي كي أركض حتى بوابة مبنى الآنسة ماير.

داخل الشقة كانت حورية ترتجف. عندما دخلت الغرفة المعتمة أضأت النور فلم أتعرف على نظرتها، نظرة حيوان عالق في الفخ. أثر ذلك بي لأني أعرفها لامبالية جداً وشديدة المرح.

ـ ما بك؟

لم ترد. كانت تنظر إلى ساقي، ولاحظت أنها تحدق ببنطالي الممزق عند الركب، وبقعة دم تمتد فوق القماش. قلت لها:

ـ لقد وقعت، يبدو أن قدمي زلّت.

لكنني أعرف أنها ليست مغفلة. قالت بصوت مخنوق:

ـ أريد الرحيل، لم أعد أحتمل.

قاطعتها مثلما فعلتْ هي قبل الرحيل:

ـ هذا مستحيل، لا يمكنك العودة. أنا وأنت نصلح للسجن. حتى طفلك لن تربيه، سينتزعونه منك.

كنت أقول هذا لصالحي أيضاً. كي لا أنسى ما فعلوه بي، حين كنت طفلة. خُطفت، دُسست في كيس، ضُربت، وباعوني. الأيادي التي مرّت فوقي، والحريق في جوفي. عادت لي الذكرى فجأة مثل حريق في حنجرتي. «أفضّل الموت». قلت ذلك كما قالت في تبريكه وهي تضع سكيناً فوق عنقها.

نحو نهاية الصيف تعرفت على الدكتورة فروميجا. أظن أنها ربما لمحتني حين كنت أجر عربة الغسيل في الممرات. كانت

الدكتورة فروميجا دكتورة أعصاب، تعاين في الطابق الثالث، لكنها تأتي وتذهب دون توقف من مركز لآخر. سألت ماري إيلين عن اسمي ومعلومات أخرى. في أحد الأيام أخذتني ماري إيلين على انفراد وقت الطعام. كانت تتحدث دوماً بنفس الصوت، البطيء الرخيم، لكن من أعماق عينيها الذهبيتين، كان بوسعي قراءة مشاعرها. انزعاج، نوع من السخرية، وريبة. قالت:

ـ تعلمين يا ليلى، افعلي ما تشائين، ولكن أريد أن ألفت نظرك أن هناك شخصاً مرموقاً يهتم بك.

وفيما كنت أنظر إليها دون أن أفهم، قالت:

ـ الدكتورة فروميجا، مديرة قسم العصبية، تريد مساعدتك. هي مستعدة لإيجاد عمل لك، ويمكنك مقابلتها إذا أردت.

كنت مترددة، لأنني بالضبط لم أكن أرغب بالتعرف إلى أي كان، أو مقابلة أي شخص من جديد. أريد الاستمرار بالتسلل بين الناس، بين الأشياء، مثل سمكة تصعد سيلاً جارفاً.

اغتاظت ماري إيلين:

ـ يجدر بك التفكير في مستقبلك أيضاً، لا يمكنني الاستمرار بإحضارك إلى هنا دون أوراق، في هذا مخاطرة كبيرة، فأنا التي أخاطر بفقدان عملي.

كانت تلك المرة الأولى التي تشعرني فيها بأنها تخدمني. لو كان بوسعي لتركت المشفى بكل بساطة، لكن حورية كانت يائسة ووحيدة، وكنا بحاجة ماسة للمال. قلت:

ـ ماذا علي أن أفعل؟

لكزتني ماري إيلين من كتفي.

ـ أخيراً، ماذا تتصورين؟ تقترح عليك هذه السيدة أن تعملي عندها. ستعملين كل يوم، وبإمكانك تناول الطعام عندها وقت الغداء. باستطاعتك البدء فوراً. أليس هذا ماتبحثين عنه بالضبط؟

أخفضت رأسي. لم أكن أرغب بمخالفة ماري إيلين. صحيح أنها فعلت الكثير. وكذلك لأنها لطيفة وتحب جداً شعري وبشرتي السوداء وعينيّ الشبيهتين بعينيها، عيون الغزلان، كما كانت تقول معلمتي. عانقتني.

ـ اسمعي، إذا أردت سآتي معك كي أعرّفك بها. سوف أطلب من سيسيل أن تحل محلي غداً بعد الظهر.

فعلت مثلما قالت. لا أظن أن نواياها سيئة. كانت تعتقد أنها تساعدني، وربما في أعماقها باتت حسودة قليلاً، هي أيضاً تودّ أن يلاحظها شخص مهم. كانت ماري إيلين شديدة التواضع لكن الحياة خانتها بابنتها وبالسنوات التي كان يضربها فيها زوجها كل مساء. لقد فقدت سناً قاطعاً في اليوم الذي دفعها فيه زوجها إلى الأمام نحو مرآة الخزانة. ولم تكن تريدني أن أتورط.

ـ انظري إلي، حياتي لاشيء على الإطلاق.

تريدني أن أترك حورية وأصبح شخصاً مهماً.

كان بيت السيدة فروميجا يقع في باسي، في شارع صغير هادئ، له بوابة حديدية كبيرة وعمودان، ورقم 8 من الحديد المشغول. واجهته بيضاء وسطحه مقرّن وله نافذة صغيرة تحت السطح، أحببتها في الحال.

قدمتني ماري إيلين إلى الدكتورة فروميجا. كنت قد سمعتهم يتكلمون عنها الكثير ولكنني كنت خائفة من لقائها، ظننت أنني سألتقي بواحدة من سيدات العالم الراقي، مثل السيدة دولاهي في الرباط، بحليها الذهبية وبذلتها الرمادية اللاعيب فيها ووجهها الشاحب وعينيها الباردتين. هيأت نفسي لفكرة الهروب عند أول كلمة غير مستحبة. لكن السيدة فروميجا كانت على العكس تماماً. قصيرة جداً، حيوية، شديدة السمرة، وعيناها تلمعان بالمكر، إضافة إلى أنها تلبس بغرابة، سروالاً كاكياً واسعاً جداً، ورداءً أزرق سماوي طويل مثل مئزر ريفي. حين رأتني قبّلتني. قالت

متعجبة: «لكنها رائعة!» كانت قد حضرت لنا الشاي والكاتو، لم تكن تبقى في مكان واحد، بل تتقافز عبر الشقة مثل عصفور الدوري.

ـ ليلى، عليك الاهتمام بي جيداً، أترين؟ ليس عندي أولاد، ستكونين ابنتي، أنت التي ستنظمين كل شيء في هذا البيت. قالت لي ماري إيلين إنك كنت تهتمين بسيدة عجوز مشلولة؟ حسناً، أنا لست كبيرة في السن جداً ولست مشلولة على الإطلاق، لكنني بحاجة إلى أن تعامليني على هذا الأساس، أتفهمين؟

كنت أشرب الشاي وأهزّ برأسي. صَعُب عليَّ تصديق ما كانت تقوله عن سيدتي، كأن عملي فعلاً الاهتمام بعجوز مشلولة. وفي أعماقي كنت أدرك أن ذلك صحيح، كان ذلك عملي فعلاً مذ كنت فتاة صغيرة.

أحببت كثيراً العمل لدى السيدة فروميجا. كنت أبقى عندها طول النهار، أنظف البيت. استعدت الحركات التي كنت أقوم بها في الماضي، في بيت الملاّ عند لالا أسمى. كنت أبدأ بكناسة الفناء ثم المدخل، أجمع الأوراق المتساقطة من أشجار الكستناء والعيدان اليابسة ونفايات المباني المجاورة. ثم أغسل البلاط وأنفض السجاد. أنظف الموكيت بمكنسة من الجذور وجدتها في القبو. ذات صباح جاءت السيدة وانفجرت ضاحكة:

ـ لكن ليلى، لا، عليك استخدام الشفاطة.

كنت أخاف من هذه الآلة التي تزمجر وتصفر وتبتلع كل شيء حتى الجوارب والستائر الشفافة. فيما بعد اعتدت عليها.

كنت أذهب للتسوق في الحي. وبما أن مخازن الركن كانت شديدة الغلاء، كنت أركب الحافلة وأذهب إلى سوق أليغر حيث أشتري البرتقال برزم 2 كيلو، والبندورة والكوسا والبطيخ. كان المطبخ يفيض بالفاكهة والسيدة مبتهجة. فهي تترك ورقة نقدية من فئة المائة فرنك على طاولة المدخل الصغيرة، وأنا أضع الباقي في صحن صغير. كنت أعمل جهدي كي أنفق أقل ما يمكن. أحضّر

السَلَطة، كل يوم نوع، مع الزيتون التونسي، الزبيب، التين، اليقطين، الكيوي، الأفوكاتو، الأوكرا، الرشاد. مع أوراق الخس الكبيرة، المجعدة، والخس الصيفي، وخس النعجة، والهندباء البرية، أوراق القرع والشايوت والملفوف الأحمر. أملأ قصعة بيضاء كبيرة، أضعها على الطاولة وسط مفرش أبيض جميل، مع الفضيات اللماعة وإبريق الماء البارد. بعد ذلك، كنت أذهب، أعود إلى شقة الآنسة ماير، وهناك كان يبدو كل شيء رمادياً، كئيباً وتعيساً. حورية منبطحة على الأريكة تقضم الخبز. وتشكو بفظاظة.

ـ تتخلين عني، تتركيني وحيدة وأنا أقضي حياتي أنتحب. ألهذا أحضرتك إلى هنا؟

كانت غيورة وحسودة.

ـ الآن، حين ماعدتِ بحاجة إلي، الآن، حين وجدت أفضل مني، سترحلين، ستنسينني، وأنا سأموت في هذه الحفرة المظلمة دون أن ينجدني أحد!

كنت أحاول طمأنتها، أعدها بأنني حالما أدخر المال الكافي سنرحل إلى الجنوب، إلى مرسيليا، إلى نيس. كنت أتحدث إليها كمن يتحدث إلى طفلة.

ربما كانت على حق. أريد الرحيل. أريد أن أكون أبعد ما يمكن عن شارع جان بوتون وعن الفنادق البائسة وتجار الكوكايين فوق الرصيف وعصابات الشباب المتراكضة مع عصيها كي يضربوا العرب والسود لدى مرورهم.

لم أكن أشعر بأنني بحال جيدة إلا عندما كنا أدفع البوابة الحديدية رقم ثمانية وأدخل إلى البيت الهادئ القديم الذي رتبتُ ونسقتُ فيه كل شيء، كأن لالا أسمى ماتزال هنا وكأنها هي سيدة البيت الفعلية.

كنت أفكر أنني منذ كنت طفلة لم يتوقف الناس عن إيقاعي في

شباكهم، يعلقونني بالدبق، يرمون لي شباك عواطفهم وضعفهم. لالا أسمى، ثم كنتها زُهرة، السيدة جميلة وتغريدة، والآن حورية. كنت أشعر بالاختناق. معها لم يكن باستطاعتي الخلاص. كان عليّ العودة والعيش من جديد في دوار تبريكه، سجينة لدى تغريدة مع أفق آخر الزقاق الوحيد المحفّر وجسر الطريق السريع القادم، والجرذان التي تصرّ فوق الأسطح.

ما كان لائقاً مني ذلك، أتفق معكم على هذا، لكنني ما عدت أحتمل. عندما حانت ساعة عودتي إلى بيتنا في شارع جان بوتون، بقيت عند السيدة. تابعت ترتيب المطبخ. لمعت الطناجر وبلاط الخزف والصنابير. كنت أقوم بذلك كي لا أمعن في التفكير.

عادت السيدة أبكر قليلاً. عندما رأتني لم تقل شيئاً، فهمت كل شيء. عانقتني حتى قبل أن تخلع معطفها وتترك مفاتيحها. قالت:

ـ يسعدني ذلك يا عزيزتي، كنت بانتظار هذا اليوم، كنت واثقة أنه سيأتي.

لم أكن أعرف الكثير عما تقصده. دلتني على غرفة في الداخل بجانب المطبخ، تلك التي لها مخْرَج على مصطبة درج الخدمة. وضعت حقيبتي هناك، مع مذياعي القديم. كل ما أملك. لم تطرح علي السيدة الأسئلة، تصرفت في الحال كأن كل شيء متفق عليه، كأنني كنت أقيم هنا منذ شهور وسنين. من بعد حورية، كان الأمر مريحاً. حتى ماري باتت متعِبة. كانت تريد أن تعرف، أن تتدخل. كما أنني ما عدت أفكر بنونو. هو أيضاً راح يسجنني في شباكه. يريد أن نخرج معاً وأقبل أن أكون خطيبته. كان لطيفاً، ضحكته حلوة وأمرح معه كثيراً لكنني أخاف دوماً أن تلتقطه الشرطة لأنه كاميروني وبلا أوراق. كنت أشعر أنه عاجلاً أو آجلاً، سوف يُقبض عليه ولا أريد أن يأخذوني معه.

عند السيدة، كانت الطمأنينة. كنت أعرف أن لا شيء يمكن أن يحصل هنا. كان الحي راقياً. شارع صغير منحني، بيوت صغيرة

لها حدائق، مبان فخمة، أطفال شقر بملابس المدرسة، والشرطة لاتأتي وتجول هنا. في الأيام الأولى بعد إقامتي في باسي كنت أنام كل الوقت. أشعر أنه قد مضت سنوات لم أنم فيها، لأنني كنت أعيش تحت وطأة واجب الرحيل، أو لأنني أخشى أن تقبض علي شرطة زهرة. وفي شارع جان بوتون كانت مشاجرات السود والآنسة ماير، واليانك المهرولون في الأزقة مسلحون بالعصي كي يضربوا العرب. صفارة إنذار الشرطة تدوي عالياً، وفي الليل نعيب سيارات الإسعاف المشؤوم.

كنت أنام والحالة هذه حتى التاسعة أو العاشرة. أحياناً كانت السيدة هي من توقظني. تزيح الستائر وينسلّ ضوء الشمس. أرى من بين جفنيّ شجرة الكرمة الحمراء عبر النافذة، وأسمع العصافير تزقزق. كنت أبقى متكورة على نفسي في السرير كي أؤخر لحظة النهوض، فتجلس السيدة عند الحافة تمرر راحة يدها بلطف فوق خدي كأنني هرّ صغير. كان صوتها أيضاً يلاطفني. تقول كلمات في غاية الرقة، تمرّ كأنني في حلم. «يا عزيزتي، لا تتحركي، ابقي هكذا، إنه بيتك، دعيني أحضنك، أنت ابنتي الصغيرة، أنت من كنت بانتظارها، دعيني أحميك، لا تخشي شيئاً معي، سوف أعتني بك جيداً، أنت ابنتي، طفلتي الصغيرة...» كانت تقول كلمات كهذه، قريبة جداً، في أذني، وأشياء أخرى أيضاً بصوتها الأجش القوي والعذب ويدها الدافئة والخشنة تمر فوق وجهي، تداعب شعري عند العنق، تلتف أصابعها على خصلات شعري. لم أكن أدري فيما إذا كنت أحبذ ذلك. كان الأمر غريبا، حلم يطول، أشعر كمن يطفو فوق سحابة. كنت أرتعش، أحسّ بموجة تسري في ظهري وتستقر في جوفي، أشعر بنبض كل عصب في جلدي، من قدميّ حتى يديّ ولاأستطيع الحراك. ثم أغفو، وحين أفتح عيني من جديد، يكون النهار جلياً والسيدة رحلت إلى العمل. حينذاك أنهض وأذهب إلى الحمام، آخذ حماماً طويلاً وبارداً كي أستيقظ.

لم أكن أذهب بعيداً للتسوق. صرت أخاف مغادرة هذا الحي والابتعاد عن الشارع الهادئ وأن تضيع عن بصري البوابة رقم 8. كنت أذهب إلى الجزّار في آخر الشارع بالقرب من محطة المترو، أشتري الفاكهة والخضار والأجبان. لم يكن المال كافياً حينذاك، وكي لا أطلب كنت أسحب من مدخراتي الخاصة. أظن أن السيدة فروميجا وظفتني لأنني ماكرة وماهرة بالشراء، ولم أكن أرغب أن تعرف بأنني أصبحت كسولة وماعدت أوفرّ لها. بعد ذلك، عدة مرات، سرقت أشياء لأنه لم يكن معي المال الكافي، رزم سمك السلمون، بسكويت، أو حتى بياضات للمنزل. لم أفقد خفة يدي، كنت ماأزال ماهرة كما أن بائعي الحي ساذجون، لم يشكّوا بأمري. مرة وحيدة حدثت معي مشكلة. لم أفهم في الحال، لكن ذلك ترك لدي انطباعاً غريباً، كأن هناك سرّاً، مغزى خفياً لم أتمكن من إدراكه. بائعة في السوبر ماركت، امرأة شابة هزيلة، شعرها أشقر باهت، حين مررت حدّقت بي وظننت أنها كشفتني، لقد فاجأتني وأنا أسرق منفضة سجائر. كنت أهمّ بإخراجها من جيبي كي أدفع ثمنها، لكنها قالت فقط ببطء شديد وهي تشدد على كل كلمة:

ـ حسناً، أنت الجديدة إذاً؟

تمتمتُ: «جديدة ماذا؟»

كانت تمعن النظر بي بعينيها الباهتتين الباردتين. قالت:

ـ نعم، نعم، يا طيبة القلب.

ووضعتْ كل شيء في الكيس ومدته لي دون أن تأخذ مالي. فهرولت هاربة كأنها ستمسك بي.

كنت أحياناً أتصل بحورية بعد الظهر. ولكي توصل لها الآنسة ماير المكالمة كنت أقول لها إنني في مكان بعيد، في إنكلترا أو في أمريكا. فتقول:

ـ آه، هكذا؟ بصوتها الناعم الضعيف.

بعد لحظة كنت أسمع صوت حورية الخشن الخفيض. كانت تكلمني بالعربية وأنا أجيبها بالفرنسية.

ـ أين أنت؟

ـ في باريس وليس في أمريكا.

ـ متى تعودين؟

ـ لا أعلم، اسمعي أنا مشغولة جداً بعملي.

ـ أووا...

ـ نعم، أؤكد لك ذلك. ليس عندي وقت بتاتاً. كما إنني بعيدة، في الطرف الآخر للمدينة.

ـ أوا، أوا.

ـ لماذا تقولين أوا؟ ألا تصدقينني؟

صمت.

ـ اسمعي سآتي لرؤيتك ما إن أتمكن من الفرار. ألست بحاجة لشيء؟ هل مايزال معك مال؟

ـ لا بأس. مايزال معي القليل.

ـ علي أن أتركك، سأعاود الاتصال بك.

ـ لماذا تكذبين؟ لن تعودي حتى موتي.

ـ اسمعي، أنا لا أكذب عليك. لا يمكنني المجيء الآن. لكن سأتصل بك.

ـ حسناً.

ـ إلى اللقاء.

ـ مع السلامة ليلى.

ـ مع السلامة خالتي.

كنت أشعر بالخجل. نصف ساعة في المترو كافية لأكون هناك. لكن لاشيء كان يشعرني بالغثيان مثل الدخول إلى شارع جان بوتون. إذ إن هناك جدار يفصلني عن ذلك المكان.

ذات صباح أتى نونو. لاأعرف كيف وجد المكان. لا شك أنه استدرج ماري إيلين بالكلام. لكنها كانت ترتاب به، لذا قد يكون استعلم من المشفى. ربما كان هناك عندما خرجت للتسوق. يبدو أنه انتظر طويلاً عند زاوية الباب، بسترته الجلدية نفسها، في ريح الخريف الباردة. كان ينشُق لأنه مصاب بالرشح. بدا سعيداً حقيقة برؤيتي، ولم أتمكن من التخلص منه. بدا خجولاً.

ـ لقد تغيرت.

ـ صحيح؟ نحو الأفضل؟

كان يبتسم: «تبدين كسيدة الآن».

قال ذلك بسبب ملابسي التي اشترتها لي السيدة فروميجا. بنطال أسود ملتصق بالجسم، بلوزة ياقتها مقوّرة، ومنديل أحمر عقدته حول عنقي. كنت أظن نفسي سأرتعب من لقاء شخص من حياتي الماضية، لكنني دُهشت، لأنني كنت سعيدة جداً برؤية نونو من جديد.

رافقني أثناء التسوق. كان يحمل العلب. فهو عريض المنكبين، ثخين الرقبة، ومع ذلك له وجه طفل. كنت مدهوشة بقامته. كان يبدو لي أقصر بكثير. والباعة يجدونه لطيفاً ويمزحون معه. قال أحدهم: «هل هو شقيقك؟»، وللمرة الأولى منذ أسابيع رحت ألهو. كنت أخرج من حلم.

أخبرني نونو أخباراً عن شارع جان بوتون. كانت الآنسة ماير تعاني من المتاعب. قامت الشرطة بمداهمة. لم تكن قد صرحت عن كل مستأجري الشقق المفروشة. فهددوها بغرامة نقدية. العجوز

الشمطاء صارت تبكي وتقول: «هذا ليس ذنبي، هؤلاء الزنوج كلهم متشابهون! وأنا لا أتعرف إليهم!».

ـ وخالتي؟ هكذا كنت أدعو حورية.

لم تقل شيئاً. فتحت الباب قليلاً وأعادت إغلاقه فوراً. إنها تخاف الشرطة. فهي تظن أنهم قادمون لإرسالها إلى زوجها. لكن كان لدى الشرطة مايكفي للقيام به مع الأنتيليين والأفارقة. هرب نونو عن طريق مزراب تصريف المياه لهذا جاء إلى هنا.

ـ أين تسكن الآن؟

قام بحركة باتجاه الطرف الآخر للمدينة كأن بالإمكان رؤية المكان من هنا.

ـ أعارني أحد الأصدقاء مرآباً، أنام هناك.

ـ أين؟

فكر.

ـ اسم غريب، شارع جافلو.

ثم أخرج ورقة صغيرة خربش عليها عنوان: 28، شارع جافلو. فكرت أنه اسم جميل لمحارب كاميروني.

ـ في الليل لابأس به، لكن في النهار، معتم جداً، عندئذ أذهب إلى التدريب في النادي الرياضي. عندي مباراة الشهر المقبل، قال لي الوصي إنني قد أقوم بها رسمياً، سوف يعطيني كل الأوراق.

عندما وصلنا إلى البوابة رقم 8، كان يبدو متجمداً، أدخلته كي يشرب القهوة. بدا مذهولاً بالبيت. يمشي بهدوء كأنه خائف من كسر الأرضية. عبرنا الصالة حتى المطبخ الكبير الأبيض. كان انذهاله يسليني. أنا التي أعرف منازل الأثرياء منذ زمن طويل، منذ فيلا السيدة دولاهي، لم يعد يبدو لي شيئاً خارقاً. لكن نونو كان مثل طفل أمام ألعاب جديدة. راح يتفحص غلاية القهوة الكهربائية، محمصة

الخبز، يزلق الجوارير فوق عجلاتها الدائرية، ويقلب سلال الإينوكس المعدنية.

ـ المكان مترف بالفعل هنا.

ـ صحيح، هل يعجبك؟

ضحك ضحكته الرنانة.

ـ أفضّل المرآب الذي أسكن فيه.

وضعت ذراعي حول عنقه.

ـ إذا أصبحتَ ملاكماً مشهوراً، تستطيع أن تشتري منزلاً مماثلاً.

أمعن في التفكير.

ـ إذا حدث ذلك، أريد أن أتزوجك.

بدا جاداً إلى حد جعلني أقهقه.

ـ توقف عن حماقاتك. إذا أصبحت ملاكماً مشهوراً، لن تعود للتفكير بي، ستتزوج دمية شقراء جميلة!

نظر إلي نونو بملامة.

ـ لماذا تقولين هذا؟ أريد الزواج منك.

صار لديه عادة المجيء كل صباح عدا في نهايات الأسبوع، لأن السيدة فروميجا كانت تبقى في المنزل. كان يساعدني بحمل المشتريات، وأنا أحضر له غداء دسماً من البيض والشطائر المحمصة وفناجين الحليب الساخنة الكبيرة.

لم تكن السيدة فروميجا تقول شيئاً، لكن في أحد الأيام، يبدو أن أحداً وشى لها، لأن وجهها تغير. تحولت فجأة إلى شريرة، وراحت توبخني إن أجبت بنعم أو بلا. أو تعود بغتة بهيئة حانقة،

كأنها نسيت شيئاً، محفظة، مفاتيح، ملف، أي شيء. فقط كي ترى فيما إذا كنت مع نونو، كي تباغتنا. فهمت كل شيء، وقلت لنونو ألا يأتي بعد الآن وأن ينتظرني في الشارع. كان يهزأ بي: «سيدتك غيورة!».

أزعجني الأمر كثيراً لأنها أصبحت هكذا. شعرت بأن شيئاً ما يتم تحضيره. لم أكن أعلم ماهو في ذلك الوقت. أعطتني السيدة فروميجا رسالة غامضة كُتب عليها: «الشرطة الوطنية، مخفر الدائرة السادسة عشرة». كانت دعوى للنظر بتسوية وضعي، والسيدة فروميجا تعرف تماماً ما الأمر. تدبرت كل شيء، هي صديقة المأمور، وكانت قد قدمت سندات الإقامة، شهادات حسن السلوك، وأصبح كل شيء جاهزاً. تظاهرتُ بمحاولة الفهم. فقالت لي:

ـ أظن أنهم سيوافقون على طلب تسوية وضعك وستحصلين على الجنسية.

كنت مصعوقة، وأوشكت أن أقول:

ـ لكنني لم أطلب أخذ الجنسية.

ثم تذكرت زُهرة وزوجها وشقتهم حيث حبسوني لأشهر، وتذكرت دوار تبريكه والجرذان المتراكضة فوق الأسطح وهي تصرّ بمخالبها فوق الصفائح المعدنية. قلت: «شكراً». وعانقتني.

ربما ندمت السيدة. حين عدت من مفوضية الشرطة، متوردة قليلاً لأن الطقس كان حاراً، كما كان الموظف مندفعاً إلى حد ما، توجب علي أن أحكي كل شيء، الأوراق التي وقعت عليها، بصمات أصابعي، التلقين، ثم الاسم الذي اختاره: «ليز هنرييت». إذ رأى أنه يناسبني. ضحكت السيدة فروميجا، صفقت بيديها، كانت متحمسة كأن كل هذا لها. بالطبع لم أحكِ لها عن الموظف الذي انحنى فوقي، ويده على عنقي، وحين سأل برقة: «كيف نقول أحبك بالعربية؟» أجبت «سافل»، وهي أكبر كلمة أعرفها لأن حورية كانت تقولها

للرجال الذين يضايقونها في تبريكه. لن تفهم، لن تفهم أن كل هذا لا يعنيني وأنه قد فات الأوان وليس أنا من يجب إعطاؤه هذه الأوراق إنما لحورية.

رقّت السيدة قليلاً، وقالت لي:

ـ لن ترحلي؟ قولي إنك لن تخذليني؟

كانت تتكلم مثل حورية ومثل تغريدة. كلهم متشابهون. أعتقد أنني كنت سأمكث معها لو لم يحدث ذلك الشيء في الليل. فقد وجدت صعوبة في إدراك كيف حصل هذا. كنا نتحدث بعد العشاء منذ بعض الوقت، أدخن معها سجائرها الأمريكية، ونشاهد التلفاز من طرف أعيننا دون أن نتابع فعلياً. كان الطقس حاراً، في نهاية شهر أيلول. النوافذ مفتوحة على اتساعها ومطر خفيف ينهمر فوق أوراق الأشجار. بدا كل شيء وادعاً في شارع أشجار الكستناء. ولايمكن الظن أبداً بأن أشياء رهيبة تحدث في مدينة كبيرة جداً.

كانت السيدة فروميجا قد حضّرت مشروبها المسائي من الشاي وأوراق النباتات والأزهار، وطعم الفلفل والفانيليا المغثي قليلاً. غفوت على الأريكة، لا، لم أكن غافية لكنني كنت أشعر بجسدي خفيفاً جداً وما عاد بوسعي تحريك ذراعيّ أو ساقيّ. خيّل إلي أن وجه السيدة كان قريباً جداً مني، لامعاً مثل نجم، بابتسامة غريبة وعينيها المتطاولتين الشبيهتين بعيني هرّة. كانت تتكلم بصوت ناعم، تردد: «طفلتي الصغيرة، طفلتي الصغيرة» كأنها تخرخر. وكنت أشعر بيدها الهزيلة والحارة تنزلق فوق جلدي عبر القميص المفتوح الأزرار، تداعب زريّ حلمتيّ. كان قلبي يخفق بشدة. سمعت صوتها تغمغم: «طفلتي الصغيرة» وأنا أريدها أن تتوقف وتصمت، كنت أريدها أن تختفي، كنت أريد العودة إلى مكان لا يوجد فيه أحد، إلى المقبرة التي كنت أذهب إليها المطلة على البحر، والشمس التي تصنع فوق العشب نجوماً بيضاء، نجوماً لا اسم لها، والطيور تتأرجح في الهواء بأجنحتها القاطعة مثل المناجل.

في الصباح، حين استيقظت، كان فمي جافاً ويؤلمني. لم أكن أذكر ما حدث، كنت نائمة على أريكة الصالة لكنني مغطاة بمبذل السيدة المصنوع من الحرير الياباني. أول ما صدمني رائحة الجلد الروسي المغثية. همتُ على وجهي في البيت الخالي وأنا أصطدم بقطع الأثاث. لم أكن أدري عما أبحث، ما كنت قادرة على التفكير بشيء. سخنت الماء لقهوتي. كانت الشمس داخل المطبخ، والجو لطيفاً في الخارج، والكرمة العذراء بدأت تحمرّ داخل إطار النافذة، ورف من طيور الدوري يزقزق هناك.

هكذا، وبشكل فجائي، بينما كنت أشرب قهوتي، بدا الأمر جلياً. كان علي الرحيل من هنا. أحسست بقلبي يخفق بشدة والألم يضرب جبيني بعنف. درت حول نفسي، قلبت الكراسي ورحت أقول: «العجوز الشمطاء! العجوز الشمطاء!» مثل ماري إيلين حين تتحدث عن الآنسة ماير.

أتذكر الآن ماكانت تحكيه لي لالا أسمى، كانت تقول: «لا تشربي الشاي من أحد لا تعرفينه، لأنك قد تشربين شيئاً لا تريدينه» وتحكي عن رجل يدعو الفتيات للشرب في مقهى، يشرّبهن مشروباً، وحين يغفون يأخذهن إلى بيته، يغتصبهن ويقطع أعناقهن.

وأتذكر الشاي الذي كانت تقدمه لي السيدة، وعيناها السوداوان تبرقان بينما رأسي يترنّح. لاشك أنها زادت العيار البارحة وفقدت وعيي. كنت أمقتها. لقد خدعتني. لم تكن صديقتي. هي شخص مثل الآخرين، مثل زُهرة والسيد دولاهي وموظف قسم الشرطة. كنت أكرهها، كنت سأقتلها. «المغفلة، العجوز المغفلة!».

ارتديت ثيابي. لبست الجينز والقميص اللذين كنت أرتديهما عند وصولي. رميت كل مااشترته لي السيدة فروميجا. السلسلة الذهبية الصغيرة، مع القطعة التي نُقش عليها اسمها، رميتها في المرحاض، وسحبت الماء فوقها. لكن المضخة لم تفلح بابتلاعها. بحثت عما يمكنني القيام به كي أنتقم. لم أكن أرغب بالسرقة، ولا أريد شيئاً من

بيتها. كنت أرغب فقط بمحوها من ذاكرتي، هي وذرائعها. ذهبت إلى مكتبها، ورحت أرمي كل كتبها على الأرض، آخذها من المكتبة، أنظر إلى العنوان وأرميه وسط الغرفة. بعد ذلك انتابني نوع من الهيجان، فرحت أطيّر الكتب أسرع فأسرع، مما أحدث ضجيجاً عالياً من تمزيق الورق، فقد كانت تصطدم بالجدران. فعلت الشيء نفسه بصورها ورسائلها وأوراقها. أظن أنني كنت أتكلم في الوقت نفسه، أصرخ، أشتمها، بالعربية، بالفرنسية، بكل ما أعرفه. وهذا ما أراحني.

حين انتهيت، كان مكتب السيدة وصالتها شبيهين بحقلٍ بعد إعصار. حينذاك أخذت حقيبتي ومذياعي العتيق ورحلت.

8

شارع جافلو هو المكان الأكثر غرابة في باريس. في البداية لم أكن راغبة بالتصديق بوجوده. عندما جاء نونو لأخذي على دراجته النارية (أوبالأحرى على الدراجة التي استعارها) ودخلنا تحت الأرض، ظننت أنه يأخذ طريقاً مختصرة وأننا نعبر نفقاً. لكن الشارع كان يلتف تحت الأرض، داخل دهليز إسمنتي تنفتح عليه أبواب مستودعات تجارية، فيما صوت الدراجة يدوّي كالجحيم. كان هناك أيضاً سيارات تعبر بمصابيحها المضاءة وتطلق أبواقها. بعد كل الذي جرى، كنت تعبة، تمسكت بسترة نونو، أحسست بأننا تهنا، لا أدري أين نذهب وماذا سيحدث. أظن أن تأثير المخدر لم يتوقف.

بعد ذلك وقعت فريسة المرض. كانت شقة نونو تحت الأرض، صغيرة لا يدخلها الضوء بتاتاً إلا عبر منور يصل إلى المطبخ فقط. في الواقع هي ليست شقة، مرآب، أو قبو. تم إعداد مرحاض ومطبخ لكل الطابق تحت الأرض. والباقي كان مقسماً إلى زنزانات إسمنتية أبوابها مخططة بالخدوش وسقوفها مقنطرة. لكنها بدت جيدة إذ لم نكن نسمع الضجيج، باستثناء بقبقة المياه في القنوات من وقت لآخر، أو صوت فحيح المراوح. لم أكن أدري ماذا حلّ بي، إذ كنت أظل نائمة طوال الوقت تقريباً على الفراش الذي وضعه نونو من أجلي خصيصاً في غرفته. أما هو فينام في الصالة، أو بالأحرى في المرآب. أرضه إسمنتية مطلية بالرمادي وله بوابة كبيرة

بمصراعين. يركن دراجته هناك أيضاً. كان ينام فوق طبقات من الكرتون مثل مخبول. بدا لطيفاً، فقد أعطاني غرفته. كما بدا يائساً من رؤيتي هكذا، ساكنة فوق الفراش. كنت أدخن وأسعل. لم تكن لدي القوة، وبالكاد أحرك ذراعي أو أدير رأسي. ماكنت آكل. ماعدت أشعر بالجوع أبداً. أحياناً كان اللعاب يملأ فمي ويتوجب علي الانحناء جانباً لأبصق. غابت دورتي الشهرية. وتوقف كل شيء في داخلي.

كان نونو يقول: هذا سحر، شر، نحس. بدا كمن يفهم بالأمر. يقول مايجدر عمله، رشّ الملح في النار، وضع ريشات أو فُتات من القش، رسم إشارات على الأرض، ونفخ الدخان. كنت أصغي إليه، ألتقط كل كلمة، كل ضحكة يقوم بها. إنه الشخص الوحيد الذي يربطني بالخارج. وحين يعود من التمرين تنبعث منه رائحة الشارع، العرق، ودخان السيارات. كنت أمسك يده المربعة بأصابعها القاسية وبشرة راحتها الناعمة مثل حصاة متآكلة. «احكِ لي ماذا رأيت في الخارج، ماذا يجري في الشوارع». فيحكي كيف شاهد حادثاً، حافلة دخلت في سيارة واقتلعت جانبها. ويروي كيف شاهد اسكتلنديين يعزفون على مزمار يشبه القربة، كما شاهد ماري إيلين من جديد. كان يخبرني عن شارع بوتون. «وخالتي حورية؟». يهز رأسه «لم أرها. لكن يبدو أن السيدة فروم...» لم يتمكن من قول الاسم، كان يضحكه. «يبدو أن سيدتك تبحث عنك. تريدك حتى الموت. العجوز الشمطاء، هي التي رمتك بسحرها. سوف أقتلها!» لم يقل لأحد إنني أسكن عنده، ولا حتى لماري إيلين. إذا ماعثرت علي هذه السيدة، سوف تطردني خارج فرنسا مثل منديل. مع هذا لم أسرقها، بل هي التي سلبت شيئاً مني، هي التي كذبت.

بدأت أحلم بكوابيس. ماعدت أميّز بين الليل والنهار. كنت أحسّ بأنني داخل جوف حيوان هائل، يهضمني ببطء. ذات يوم صرخت، فجاء نونو. داعب وجهي وراح يحدثني برقة كما يتحدث إلى طفل. حين أراد العودة إلى كراتينه تمسكت به. عانقته بكل

قواي. شعرت بعضلات ظهره مثل الحبال. ضمني إليه وأطفأ النور. كان جسده متوتراً، يرتعش، ولا أدري لماذا بدا لي ذلك مضحكاً أن يكون هو الخائف وليس أنا. لم نفعل شيئاً هذه المرة، غفوت بجانبه فقط. لم يكن نونو يتحرك، عانقني بذراعه وراح يتنفس فوق عنقي. ذات مساء مارس الحب معي بكثير من الرقة. اعتذر بعدها وقال: «هل آلمتك؟». كانت تلك المرة الأولى بالنسبة لي ومع ذلك لم يفاجئني الأمر. شعرت بأنني أعرف هذا منذ زمن طويل جداً.

فيما بعد، تحسن الوضع قليلاً. بدأت بالحراك، وصرت أذهب إلى المطبخ. أقول لنونو وقت الإفطار:

ـ هل الطقس جميل؟

ـ انتظري سوف أرى. يدفع بمقعد صغير، يفتح الكوة، يتمكن وهو يلتوي من إخراج نصف جسده حتى المنور، ثم يعود والسخام على قميصه. «السماء زرقاء كلياً!». كان ينتظر مني أن أركب دراجته معه للقيام بدورة.

حين عدت للخروج للمرة الأولى صعدت السلالم بجانب المرآب، ثم ركبت المصعد حتى أعلى المبنى. كان الوقت صباحاً ونونو ذهب للعمل في صالة التمرين. بدا كل شيء ساكناً، فقط الاهتزاز عند كل طابق. صعدت إلى الأعلى تماماً، إلى الطابق الرابع عشر. كان مكتباً للتأمين أو للمحامين، أو لمجهزي السفن، شيئاً من هذا القبيل. دخلت إلى المكاتب دون أن أتوقف، ومشيت حتى النافذة الكبيرة. رأت السكرتيرات تلك الفتاة السوداء بشعرها الكثيف وجينزها البالي ونظرتها الشاخصة فخفن كثيراً. تحققت للمرة الأولى أنه بوسعي إخافة أحد ما أنا أيضاً على ما أظن.

استندت على زجاج النافذة ونظرت. بقيت ساكنة للحظة من الدوار. لم أكن قد رأيت أبداً مدينة من هكذا علو. كان هناك شوارع وأسطح ومبان وجادات على مد النظر، ساحات وحدائق. وفي البعيد أيضاً التلال، حتى تعرجات النهر اللامع تحت الشمس. كأنني فوق

جرف، في المقبرة المطلة على البحر، مع النوارس المحلقة في السماء. كان هناك سيارات وهياكل سيارات تلتمع صغيرة مثل الخنافس. أشعرني الضجيج بالغثيان، هدير مكتوم يصدر من كل صوب تخترقه أصوات الأبواق، وصفارة إنذار الشرطة، وعويل سيارات الإسعاف. وضعت يديّ فوق الزجاج السميك دون أن أتمكن من رفع نظري عما كنت أراه. كانت تغطي السماء سحابة سوداء كبيرة، مع أشعة الشمس في طرف، وخيوط المطر في الطرف الآخر. أقسم لكم أنني لم أرَ أجمل من هذا في حياتي.

سمعت ورائي رجع صوت شاكٍ قليلاً، امرأة كانت تقول برقة دون أن أفهم فوراً: «آنستي! أنت لست على مايرام؟» فالتفتُّ ونظرت إليها مبتسمة. كنت أبكي لأني شعرت بالسعادة فجأة. «لا، أنا بخير، أنا بخير تماماً، أردت فقط تأمل المنظر». يبدو أن ابتسامتي لم تطمئنها لأنها تنحّت. كانت شابة شاحبة، شعرها أشقر طويل وعيناها خضراوان، وكان معها نساء أخريات، واحدة ممتلئة قليلاً، وأخرى تشبه السيدة فروميجا. لاشك أنهن استدعين الأمن، لأنني لدى خروجي من المكتب نحو المصعد، انفتحت الأبواب المعدنية وخرج منها رجل بلباس أزرق يحمل أصفاداً على حزامه وحدّق في وجهي. دخلت المصعد وانغلق كل شيء. كنت تعبة جداً، ثملة قليلاً. حين وصلت إلى المرآب تحت الأرض تمددت فوق الفراش، ونمت قسطاً كبيراً من النهار. حتى نونو، عندما عاد من صالة الملاكمة، لم يوقظني. رآني نائمة وهو يجلس مستنداً إلى الحائط، دون أن يحدث صوتاً، كأنه أخي الكبير.

بعد ذلك بدأت بالخروج. ما كنت مدركة أنني بقيت سجينة كل ذلك الوقت. في الخارج كانت السماء ملبدة والشمس تركض منخفضة بين السحب. كان الطقس بارداً. حتى الأشجار على ضفة نهر السين تغيرت، فقد أخذت أوراقها الصفراء تنهمر في الهواء.

فكرت في حورية فور تمكني من المشي، فذهبت مشياً على الأقدام باتجاه محطة ليون. كنت أشعر بالبرد. أعارني نونو سترته الجلدية، الواسعة جداً عند الكتفين. كنت أحبها بالتأكيد، تفوح منها رائحة نونو، لكنها مهترئة عند المرفقين. أشعر بأن نونو يحميني بنوع من الدرع.

بدا شارع جان بوتون على حاله دائماً. كأنني رحلت عنه بالأمس. الفنادق البائسة، أكياس القمامة، القوادون في آخر الشارع قبل نهاية الزقاق المسدود، وباب المبنى الحديدي الأسود بزجاجه القذر. قرعت الجرس، جاء شخص أسود لم أكن أعرفه وفتح لي. كان قصيراً نحيلاً وله لحية صغيرة. نظر إلي دون أن يقول شيئاً، ثم عاد نحو المطبخ حيث يغسل الطناجر. كان لدى ماري إيلين على الدوام رجال في خدمتها. بدا باب الآنسة ماير موارباً والنور مضاء. فعبرت الممر دون أن أحدث صوتاً وقرعت على باب الغرفة.

عندما أتت حورية صَعُب علي التعرف إليها. كانت بدينة جداً ولها هالات سوداء تحت عينيها، لكن وجهها انتعش لدى رؤيتي. «كنت بانتظارك، حلمت بك آتية اليوم» هذا ما كانت تقوله دوماً. «ها قد أتيت، أترين». لم تسألني شيئاً، ماذا فعلت، أين ذهبت. ربما بالنسبة إليها، هي المنزوية داخل هذه الشقة، لا يمر الوقت بسرعة إلى هذا الحد. «كنت أشعر بالضجر، أتساءل كل يوم: هل ستأتي اليوم، هل ستتصل؟».

جمعتُ أغراضها في بضع دقائق. دككت كل الغسيل في أكياس، الأدوية، علب الشوفان، كل شيء. كانت حورية خائفة جداً من الخروج لأنها لم تدفع الإيجار منذ أشهر. لكن أنا لم أعد أخاف الآنسة ماير أو أي كان. صفقت الباب بقوة كبيرة وأنا خارجة حتى أن قطعة من جص السقف تدحرجت فوق الدرج. كنت سعيدة، أشعر

بأن حياة جديدة قد بدأت. وضعت يدي فوق بطن حورية. «هل يتحرك؟». كانت تتقدم ببطء وهي تلهث «نعم، لا يتوقف، إنه شيطان صغير».

كانت الأيام الأولى في شارع جافلو عيداً. كنت سعيدة جداً برؤية حورية من جديد والتي لم أعد أتركها. كان نونو قد أحضر جهاز ستيريو وكل ما يلزم، وتلفازاً ملوناً شاشته كبيرة. عندما سألته أين عثر على كل هذا، تجنب السؤال بضحكته وملأت الموسيقى داخل جدران المرآب. دعا أصدقاءه الأفارقة ورقصنا على أنغام الموسيقى الأفريقية، الراي، الريغا، الروك. ثم أخرجوا طبلاتهم الصغيرة «الجون جون» وشرعوا بالعزف وكذلك آلة غريبة، «السانزا»، التي أخرجها حكيم صديق نونو من جراب صغير، آلة منمنمة تشبه الهارب تصدر صوتاً انسيابياً وناعماً يبدو آتياً من كل صوب في الوقت نفسه.

كنا نشرب الكوكا مع الروم، والفودكا والبيرة. حورية تدخن لفافة وراء الأخرى وهي فوق الأريكة بوضع الاسترخاء. حاولتْ الرقص بحسب معرفتها، وراحت تضرب الأرض بباطن قدميها وهي تهز ردفيها، لكن بطنها الكبير وثدييها المنتفخين كانوا يعيقونها. للمرة الأولى منذ وصولها كانت تضحك. نسيت كل شيء، شارع جان بوتون، والعجوز الشمطاء. كانت الموسيقا تصعد من الأرض، لاشك أنها تهز كل جدران المبنى، تصدح حتى أعلى الطابق الواحد والثلاثين وحتى الشوارع المجاورة، شارع شاتو ديرانتيه، شارع تولبيك، شارع جان دارك، وحتى سالبيتريير ومحطة ليون. كانت الموسيقى تغطي الجدران برمل أحمر من أرض أفريقيا. حكيم يعزف على آلته منطوياً، ينحني فوق السانزا والعرق يتصبب فوق وجنتيه ولحيته الصغيرة. كان يبدو مثل ساحر. ونونو يلمع كله من العرق، يدق بأطراف أصابعه على الطبلات، وحورية تطقطق بأخمص قدميها العاريتين فوق الإسمنت مع دندنة أساورها النحاسية.

كان المصعد مقفلاً. جررتُ حورية على السلم حتى أعلى المبنى إلى الباب الصغير المفضي إلى السطح عبر سلم الإطفاء ـ نونو كان قد كسر القفل ـ. كان الوقت ليلاً لكن في باريس لا يخيم الليل كلياً. يلوح هناك فوق المدينة نور أحمر مثل قبة. جاء حكيم ونونو وانضما إلينا. جلسنا فوق أرضية السطح الحصوية بالقرب من فتحات التهوية. بدأ نونو بالنقر على الطبلة وحكيم بالعزف على آلة السانزا. رحنا نغني أصواتاً فقط: آه، أوه، إيه، ياو، يا، بصوت منخفض جداً. كنا شباباً لا نملك لا المال ولا المستقبل. ندخن اللفافات الصغيرة. لكن كل ذلك، السطح، السماء الحمراء، هدير المدينة، الحشيش، الذي لم يكن لأحد، كان ملكنا.

فيما بعد صرنا نقوم بذلك كل مساء. كانت تلك السينما الخاصة بنا. في النهار نبقى مختبئين تحت الأرض مثل الصراصير. وفي الليل نخرج من الجحور، نذهب إلى كل الأماكن، إلى ممرات المترو، إلى محطة تولبياك، أو أبعد من ذلك، إلى محطة أوستيرليتز. كان حكيم صديق نونو يبيع أشياء من أفريقيا السوداء، حلي، عقود، اكسسوارات رخيصة. وهو لا يبالي، يقوم بذلك كي يدفع لدراسته الجامعية في التاريخ، في باريس السابعة، فقد كان يسكن في مدينة أنتوني الجامعية. حدثني عن جده يامبا الحاج مافوبا الذي كان قناصاً في الجيش الفرنسي وحارب ضد الألمان. كانت أصوات طبول التام تام تتردد كل مساء في ممرات المترو، في ساحة إيطاليا، في أوستيرليتز، في الباستيل، في أوتيل دوفيل. علا قرع الطبول في الممرات متوعداً مثل عاصفة أحياناً وناعماً منتظماً مثل قلب خافق أحياناً أخرى.

كنت أعرف كل الموسيقيين. أذهب من محطة إلى محطة، أجلس مستندة إلى الحائط وأصغي. في أوستيرليتز كان هناك مجموعة من الولوف، وفي سان بول ماليين ومن كاب فير، وفي تولبياك أنتيليين

وأفارقة. هم أيضاً كانوا يعرفونني. حين أصل كانوا يشيرون إلي، يتوقفون عن العزف كي يشدوا على يدي. فهم يظنون أنني أفريقية أو أنتيلية وأنني صديقة نونو الحميمة. ربما كان هو من يتباهى بذلك.

هكذا بدأت بالخروج مع حكيم. كنت أذهب للقائه في تولبياك أو في أوستيرليتز. يترك طاولة معروضاته من التمائم بعهدة أحد رفاقه، ونسير في الليل على غير هدى، في الرياح الباردة. نذهب ناحية النهر. كان حكيم يتحدث عن نهر السنغال العظيم. لم يره أبداً، لكن والده روى له حين كان طفلاً كيف يجري الماء بطيئاً جداً وأرتال من جذوع الأشجار تصب في البحر. جدّه أيضاً الحاج الذي فقد بصره الآن، كان يتحدث أحياناً عن النهر بكلمات دقيقة وحقيقية جداً كأن المياه الموحلة الصفراء تنسكب أمام عينيه، مع قوارب الجذوع الطويلة المثقلة بالنساء والأطفال، وطيور البلشون البيضاء تطير أمام مقدمة القارب. وأنا كنت أتحدث عن نهر بورقراق كأنه شبيه به. فهو نهري الوحيد، ذلك الذي شاهدته أول ما غادرت بيت لالا أسمى وكنت أعبره كل يوم للعودة إلى دوار تبريكه.

كنا نجلس في المقاهي ونتحدث. كان حكيم طويلاً ونحيلاً، أنيقاً دائماً ببدلته السوداء. يروي أشياء غريبة. في أحد الأيام أحضر لي كتاباً مهترئاً قرأته العديد من الأيدي المتسخة. كان عنوانه «المعذبون في الأرض» والكاتب يدعى «فرانز فانون». أعطاني إياه حكيم بشكل غامض:

ـ اقرئيه، ستفهمين أشياء كثيرة.

لم يرغب أن يقول لي ماذا سأفهم. فقط وضع الكتاب فوق طاولة المقهى أمامي، وقال:

ـ حين تنتهين منه بإمكانك إعطائه لشخص آخر.

وضعت الكتاب في حقيبتي، دون أن أحاول معرفة المزيد.

لم يكن يحب نونو، يقول عنه بأنه مثل طير يتقافز، يلهو، يتعطر، وهذا كل ما يحسن القيام به. بل إنه لايحترم مهنته كملاكم. ويقول بأنه مختل، بيدق للبِيض، لعبة، حين ستنكسر سيرميها البِيض في سلة المهملات. كان يدعوه بالطفيلي، لأنه يسكن على حساب صديقه، إيف الغامض المسافر إلى تاهيتي، في الطرف الآخر للعالم. حقدت عليه لأن نونو لا يستحق أن يُحكى عنه بالسوء. أراد حكيم تحذيري مراراً. كان يبدأ القول:

ـ هل تعلمين ماذا يعني أن يكون المرء مخبولاً؟

قلت:

ـ حين يكون مجنوناً، أليس كذلك؟

يضحك حكيم ضحكته الساخرة الشهيرة.

ـ هذه إجابة سيئة، لكن ربما في الحقيقة تنطبق عليه.

لكنه لم يكن يرغب بمتابعة الكلام.

ذات يوم أحد كانت تمطر. اصطحبني إلى بورت دوريه لرؤية متحف الفن الأفريقي. أظن أنني لم أدخل متحفاً من قبل.

كان حكيم داخل المتحف متحمساً. لم أره هكذا أبداً. أخذ بيدي قائلاً:

ـ انظري إلى الأقنعة المقعرة. كان يتحدث بصوت مخنوق، مبحوح. انظري يا ليلى، لقد نسخوا وسرقوا كل شيء. سرقوا التماثيل، الأقنعة، وسرقوا الأرواح، وسجنوها هنا، داخل تلك الجدران، كأن كل هذا ليس سوى حلي مزيفة، مجموعة ألعاب أطفال، كأنها أشياء تباع في مترو تولبياك، صور هزلية، بدائل.

لم أكن أستوعب ما يقوله. كنت أحس بيده تشد على يدي، كأنه خائف أن أهرب.

ـ انظري إلى الأقنعة يا ليلى، إنها تشبهنا. تبدو سجينة

ولايمكنها التعبير عن نفسها. لقد انتُزعت، وفي الوقت نفسه هي أصل كل ما يوجد في العالم. إنها متجذرة في الماضي السحيق، كانت موجودة من قبل، عندما كان الناس هنا يعيشون في جحور تحت الأرض، وجوههم سوّدها السخام وأسنانهم كسرها العوز.

كان يقترب من الواجهات، يسند قبضتيه.

ـ آه ليلى، يجب تحريرهم، يجب حملهم بعيداً عن هنا، وإعادتهم إلى هناك من حيث أُخذوا، من آرو، من شوكو، من آبومي، من بورجوز، من كونج، من الغابات، من الصحارى، ومن الأنهار!

اقترب الحارس فجأة. أخافه رجع الأصوات وقبضة حكيم تدق على الواجهة الزجاجية. لكن حكيم أخذني بعيداً وتوقف فجأة أمام خزانة عُرض داخلها قطع فخارية مكسّرة، قضبان للحفر، ونوع من المجارف الخشبية.

ـ انظري يا ليلى، أصغر شيء من هناك هو كنز، جوهرة رائعة.

شاهدت قناع الدوغون ذا الفم الغاضب، وقناع سونغي الشبيه بالموت، بُثورُه كالمسامير، والدمى آشانتي تقف مثل رتل عسكري من الأشباح، ووجه الإله فانج الطويل بعينيه المغمضتين كأنه يحلم. كنت أتفرج على كسرات الزجاج، قطع الخشب المسودّة، مهترئة من الأيادي، ومتآكلة من الزمن. لم أعد أدري ماذا كانت تقول اللافتة. شيء عن آشانتي على ما أظن.

ـ هذه عظامنا وأسناننا، أترون إنها أجزاء من أجسادنا، لها لون بشرتنا نفسه، وتتلألأ ليلاً مثل ديدان لامعة.

ربما كان مجنوناً هو أيضاً. وفي الوقت ذاته، ما كان يقوله لي جعلني أرتعش، بدا ذلك عميقاً كالحقيقة. مشينا أيضاً داخل المتحف، أمام الدروع والطبول والتمائم. وكان هناك قارب طويل من جذع شجرة قرضته قليلاً حشرات الخشب، كأن كل هذا هو ما تركته حادثة غرق بعد انحسار مياه النهر المجهول.

لكن وقع خطوات الحارس الخفيفة كانت تثير غضب حكيم، لذا خرجنا بسرعة من المتحف. كاد يختنق من الغيظ. قال لي:

ـ أرأيتِ؟ كان يراقبني إذا كنت سأسرق شيئاً. إذا كنت سأجري حاملاً عظام أسلافي.

بدا تَعِباً وأكبر سناً.

ـ وهل رأيتِ ذاك الحديد المشغول، قوائم الدرابزين التي على شكل لا أعرف ماذا! رماح قصيرة، سهام، حلّة بانانيا!

بعد ذلك ركبنا القطار حتى إيفري كوركورون كي نزور جده. كان الحاج مافوبا يعيش وحيداً في مبنى كبير أبيض نواحي فيلابيه، قرب الطريق العام. المصعد كان معطلاً وبلاط الدرج تكسر قطعاً، وهناك أولاد في كل مكان. بينما كنا نصعد الدرج، ثمة صبي بدين كان ينزل أربعة، أربعة، وصوت امرأة منحنية تنادي: «سلفادور، أين تذهب؟». رأينا هناك شلة من الشبان العرب يدخنون على درجات السلم، وفي الأعلى قليلاً، فتاتان تنزلان، معهما شاب أشقر قصير القامة يضع النظارات ويصيح: «اللعنة، انتظراني، أنا من أخرجتكما» فتجيبه الفتاتان: «بفضلك أيها المغفل القصير، لا نخرج حتى الساعة السادسة».

كان الرجل العجوز وحيداً في غرفته، يجلس على كرسي حديدي، مقابل النافذة، كأن بوسعه رؤية الخارج.

ـ طاب يومك يا جدي.

وضع الحاج يديه على وجه حفيده. ابتسم ثم مدّ رأسه.

ـ أحضرتَ معك أحداً؟

ضحك حكيم:

ـ سمعك رهيف، لا يمكن خداعك يا جدي.

ـ من يكون؟

قادني حكيم إليه. وضع الحاج يديه على وجهي وهو يزلقهما

ببطء على طول وجنتي، ولامست أصابعه المفتوحة جفنيّ وأنفي وشفتيّ.

ـ تشبه مريم، تمتم، من هذه؟

غمغمت اسمي. كان حلقي منقبضاً. فقد كانت هذه المرة الأولى التي أقابل فيها رجلاً مؤثراً مثله. بدا وسيماً جداً. له وجه بلون الحجر الأسود، شبيهاً بورق الرق وشعره الأبيض المجعد يرسم هالةً. لم يكن هناك كراسي أخرى، فجلست إذ ذاك على الأرض، مستندة إلى الجدار بينما حكيم يغلي الماء للشاي.

راح الحاج يتكلم بلطف وعلى مهل بصوت أجش قليلاً، يشدد على الكلمات التي يختارها بعناية. لم يكن يتوجه إلي بشكل خاص، ولا إلى حفيده. كان يفكر بصوت عال كمن يستخلص الذكريات من الماضي، أو كمن يبتكر حكاية. بعد ذلك، وبينما هو يرشف شايه، تحدث ببساطة عما كنت بانتظاره، عن نهر السنغال العظيم الهادر بمياهه الحمراء، حاملاً الأشجار الميتة والتماسيح. كنت أصغي لصوته الصادر عن حنجرته حيناً والرخيم حيناً آخر، وهو يتحدث عن قريته مسقط رأسه التي تدعى يامبا مثله، عن جدرانها الطينية التي ترسم عليها النساء بإصبع مغموس بلون القطيف. راح يحدثني عن والده ووالدته وعن أولادهما العشر الذين رزقا بهم، عن ضجيج الأصوات في الصباح، كان هو أصغر أخوته وكان عليه أن يمشي ساعتين كي يصل إلى مدرسة النهر ويبسمل بالقرآن حتى المساء. فيما هو يتحدث راح يدندن، وشرع يهزّ أعلى جسده، مثلما كان يفعل حين كان في الثامنة من عمره، وصار صوته حاداً وواضحاً مثل صوت طفل.

ـ اسكت يا جدي، سوف تضجر ليلى...

كان حكيم قد وقف قرب الباب كأنه جاهز للرحيل.

ـ كيف تضجر؟ أنت لا تريد فقط. كان يتوجه إلي ووجهه ملتفت نحو الجانب تضيئه النافذة.

ـ لا يريد قراءة الكتاب المقدس. لا يريد سماع من يتحدث عن النبي. لا يحب سوى... ما اسمه؟ صاحبه فانون.

ـ فانون.

ـ نعم، فانو، فانون. أعرف أنه يقول أشياء حسنة. لكنه ينسى المهم، ينسى الأهم.

صمتُّ لحظة طويلة لأقول:

ـ ماهو المهم أيها الحاج؟

ـ المهم هو أن أقل الناس شأناً هو كنز في عيني الله.

وبينما حكيم يزداد حنقاً راح الرجل العجوز يصلّح بمكر:

ـ ولكن دعينا من هذا، إنه لا يؤمن بذلك. وأنت يا ليلى، هل تؤمنين؟

ـ لا أعرف.

ـ ولكن صاحبه فانون يقول أشياء في غاية الصحة، صحيح أن الأغنياء يأكلون لحم الفقراء. حين وصل الفرنسيون إلى بلدنا، أخذوا الفتيان لتشغيلهم في الحقول والفتيات ليخدمن على موائدهم، ويطبخن، وينمن معهم في أَسِرَّتهم، لأنهم تركوا نساءهم في فرنسا. وكي يخيفوا الزنوج الصغار، كانوا يحملونهم على الاعتقاد بأنهم سيأكلونهم.

ـ وأرسلوهم إلى المذبحة في فرنسا، في ساحات القتال، في تريبوليتين.

وثار الحاج غضباً.

ـ ولكن هذا ليس الشيء ذاته، كنا نحارب ضد أعداء الإنسانية.

ـ هل كنت عارفاً لماذا كنت ذاهباً للموت؟

ـ كنا نعرف ذلك...

ساد صمت بينما راح الحاج يدخن حالماً أمام النافذة المفتوحة، والمطر ينهمر بهدوء. كان الحاج يرتدي قميصاً أفريقياً واسعاً أزرق باهت مطرزاً بالأبيض، من دون ياقة، وبنطالاً أسود، وينتعل حذاءً ضخماً من الجلد الأسود اللمّاع، وجوارب صوفية. يجلس ساكناً منتصباً تماماً على كرسيه، لفافته بين أصابعه الطويلة.

حين رحلنا، لمس وجهي مرة أخرى، لامس عينيّ وشفتيّ. وقال ببطء:

ـ كم أنت فتية يا ليلى. سوف تكتشفين العالم، سترين، ثمة أشياء جميلة في كل مكان في العالم وستذهبين بعيداً لتجدينها. كان كمن يهبني بركته وشعرت بخلجة احترام وحب.

لدى خروجنا من المبنى عند حلول الليل، شاهدت للمرة الأولى مخيم الغجر، فوق منبسط ترابي موحل، بين ممرات الطريق العام، شبيهون بغرقى فوق جزيرة.

9

هكذا اتخذت عادة زيارة الحاج. كنت أذهب مرة في الأسبوع، مرة أكثر مرة أقل. الجميل في الأمر هو أنه لم يكن ينتظرني، أو على الأقل لم يكن يُظهر أنه ينتظر. فحين أدخل إلى الغرفة الصغيرة، لم يكن يوجه الكلام إلى حكيم. كان يعرف أنني هناك، يدير رأسه: «ليلى؟». كان حكيم يقول إن المكفوفين هم هكذا، لديهم حاسة أخرى، يشمون الروائح بشكل أفضل، مثل الكلاب.

في القطار إلى إيفري، كان هناك زمرة من الصبيان والبنات مابين اثنتي عشرة وثلاث عشرة سنة، مايزالون صغاراً، ثيابهم رثة، وقحون، صاخبون، لكني كنت أحب رؤيتهم جداً. كانوا يسلونني، يمررون فيما بينهم لفافة، يقومون بتكشيرات، يقولون كلاماً فاحشاً بصوت عال وهم ينظرون بطرف أعينهم ليروا وقعها على سكان الضواحي المقطبين. قبل إيفري بقليل وصل مراقبان لإيقافهم فلاذت زمرة الأولاد بالفرار قفزاً عبر النافذة إلى المنحدر قبل المحطة بالضبط. كانوا يتعلقون بالخارج متشبثين بزجاج النوافذ ثم يفلتون وهم يصيحون. هكذا التقيت بخوانيكو.

في الوقت الحالي، أغادر مسكن جافلو المحتل، أذهب للعمل ساعة أو ساعتين في الحي، أقوم بأعمال التنظيف عند بياتريس، المحررة في إحدى الصحف في الدائرة الخامسة، وعند زوج متقاعدَين في شارع جان دارك. كانت حورية تبقى لتطبخ، تخرج قليلاً عند الظهيرة، تذهب للنزهة وحيدة ببطنها الكبير في حديقة

المباني، فوق رؤوسنا. كانت قد تعرفت على السيد يو، وهو فييتنامي يعمل مديراً لمطعم في حينا.

لم أكن أرى نونو كثيراً. حين كنت أغادر يكون مايزال نائماً في غرفة المرآب فوق أوراق الكرتون. منذ المرة الأولى التي عانقني فيها من بعد وصولي، لم أدْعُهُ للنوم بجانبي. لم أكن أرغب. كنت أخشى أن يتحول الأمر إلى قصة إذا أمكنني القول كما ترون. أظن أن ذلك كان يجعله تعيساً جداً، لكنه بقي لطيفاً معي كأن شيئاً لم يكن.

بعد الظهر كنت أذهب لرؤية حكيم في أحد المقاهي قرب السوربون. كان يسميه مقهى اليأس لأنه يشبه مدخل الجحيم. يحضر الكتب والدفاتر وأبدأ بالعمل. لقد قرر أنه علي حرق المراحل والتقدم للبكالوريا كمتقدمة حرة، أو إلى شهادة الحقوق أو التاريخ أو الفلسفة، لم يكن عندي أي عائق. كانت دروس لالا أسمى استثنائية، علمتني في سن كان فيه الآخرون يلعبون بالدمى أو يبقون لساعات أمام الرسوم المتحركة. جعلني حكيم أقرأ مقاطع من نيتشه وهيوم ولوك وبويتي. يحضر لي نسخاً. كان يأخذ الأمر على محمل الجد وأظن أن ذلك صار بالنسبة إليه فجأة أكثر أهمية من نجاحه هو بامتحاناته.

أطلع جده على السر، وعندما أذهب إلى إيفري كوركورون، كان الحاج يسأل:

ـ أين أصبحت مع الفلسفة إذاً؟

كنا نتناقش في مسائل حول الأخلاق والعنف والتعليم، أفكار عن المجتمع والحرية...إلخ. وكان يقول دائماً أشياء جميلة، كأنها آتية من الزمن السحيق وعثر عليها سليمة في ذاكرته.

كان يقول:

ـ الله يفلق الحبة والبذرة، يُخرج الحي من الميت والميت من الحي. ويقول: أتعلمين ما هو يوم الحقيقة؟ إنه اليوم الذي يتحول

فيه البشر إلى فراشات متفرقة والجبال إلى قطن مندوف. ويردف: سألتجئ إلى إله الفجر، من الشر، من الليل الممتد، من الحسود حين يحسد.

كان يدير وجهه نحو النافذة كأن الكلمات آتية من أعمق أعماقه رقيقة رنانة.

كان يتحدث عن النبي وعبده بلال الذي كان أول من دعا للصلاة. بعد الهجرة حين لفظ النبي أنفاسه الأخيرة بين يدي عائشة، عاد بلال إلى أفريقيا، جاب الغابات حتى النهر العظيم الذي قاده إلى ساحل المحيط. يتحدث عن ذلك كمن عرف بلال، كأن ذلك حدث مع عائلته، وأنا كنت أنظر إلى حكيم جالساً على الأرض غارقاً بكلام جده. لم أنسَ قصة بلال أبداً، وبالنسبة إلي أيضاً كانت هذه قصتي الخاصة.

أراد حكيم رؤيتي في المدينة الجامعية. كانت عالماً آخر، لا يشبه شارع جافلو ولا محطات المترو، كما كنا بعيدين جداً عن كوركورون. بدت فسيحة ومحاطة بالحدائق الخضراء الجميلة مثل الريف، وفيها طيور عقعق وعنادل. يرتادها طلاب من كل العالم، أمريكيون، إيطاليون، يابانيون، بلجيكيون، وكذلك أتراك ومكسيكيون. كان حكيم يدعوني إلى مطعم الجامعة، يدفع ثمن غدائي بوساطة بطاقات. كنت آكل الرافيولي واللازانيا، وأطباق لم أكن أعرفها من قبل. وكتحلية، كنت أجرب حلوى البون سويس وفطائر القشطة المغطسة بالشوكولا وزلابية التفاح والقشدة واللوز. كان حكيم ينظر إلي وأنا آكل بنهم وهو يبدو مستمتعاً بالأمر. بدا معتاداً، بالكاد يلمس الطعام، يقضم قطعة بسكويت، فهو يجد كل شيء مقرفاً.

فيما بعد، أرادني أن أصعد إلى غرفته. قال إنه يريد أن يريني إياها. لكنني لم أكن أريد الشجار معه. كنت أعلم أنه يريد تقبيلي، وكل شيء، ولم أكن أرغب بأن تتحول القصة معه على هذا النحو.

أردت أن نبقى أصدقاء ونستمر بالذهاب لرؤية الحاج للاستماع إليه يتحدث عن النبي.

كنت أعرف تماماً أن ذلك يضايقه. كان غيوراً لأنه يظن أن نونو صديقي الحميم، لكنه لم يكن يجرؤ على قول شيء. كنا نذهب إلى الصالة، نجلس فوق الأريكة وأنا أخرج من حقيبتي «ما وراء الخير والشر».

ـ اشرح لي لماذا تحدث نيتشه عن العقد. قلت لي إنه لم يبتكر شيئاً وهو الذي قال إن المجتمعات كلها تستند على عقد.

كان يتطلع إلي من خلال نظارته، يبدو بلحيته الصغيرة ونظارته الفولاذية رجلاً قاسياً. أظن أنه أراد التشبه بمالكوم إكس، لهذا لم يكن يخرج أبداً دون أن يكوي قمصانه البيضاء ويختار ربطة عنقه أيضاً. لم يكن يريد التشبه بأفارقة نانيز، أو بأنتيليي سول ذوي الجدائل المنفوشة وذيول الخنازير. كان حاقداً على كل هذا وفي الوقت ذاته يتألم من أجلهم. قال لي ذات يوم:

ـ هل تعرفين أكثر ما يؤلمني؟ حين أنظر إليهم وأفكر أن نصفهم بالكاد سيصل سن البلوغ. كأنكِ في نفق الموت.

هكذا كان يتحدث عن أفريقيا، عن تسوية الحسابات، عن المرتزقة في بيافرا، عن الأولاد الذين يموتون من الجوع والسيدا والكوليرا.

كان يحب نيتشه جداً، مع ذلك فهو يفضل فانون. كان يقرأ لي أيضاً مقاطع من «أسياد وعبيد» لروبيرتو فراير. لكنه لم يكن يحب الروايات ولا القصائد، باستثناء محمود درويش وتيماجين هوات. «الروايات، إنها حثالة. لا شيء فيها. لا حقيقة ولا كذب. رياح فحسب». كان يتقبل رامبو وجون دون عند الضرورة، لكنه بدا حاقداً على رامبو لأنه أساء بالكلام عن الزنوج وضَلِعَ في المتاجرة بهم. قلت له ذات يوم:

ـ في الحقيقة، أنت تفكر مثل جدك، كل شيء قيل في القرآن.

اعتقدت بأنه سيغضب، لكنه بعد أن أمعن في التفكير، أجاب:

ـ هذا صحيح، لا يمكن أن يكون هناك شعر أعظم منه، إنه لأمر فظيع أن يكون كل شيء قد ذُكر منذ أكثر من ألف عام، ونعرف أنه لن يكون بوسعنا أبداً أن نصنع أفضل منه.

قلت:

ـ ربما بوسعنا أن نصنع الأسوأ؟

نظر إلي بدهشة، أظن أن هذا أمر لن يتمكن من إدراكه.

كانت لدي حياتان. في النهار مع حورية وأعمال التنظيف عند محررة الصحيفة، والتسوق من الحي الصيني، والكل يجدني لطيفة جداً. كما كنت أذهب لرؤية نونو حيث يتدرب في صالة الملاكمة في بيربيس. بعد ذلك، مواعيد الدراسة مع حكيم في السوربون، أو قرب شارع آساس، وكان فخوراً جداً بتعريفي على أصدقائه الطلاب:

ـ هذه ليلى، عصامية ستتقدم إلى البكالوريا كطالبة حرة هذه السنة، القسم الأدبي.

في الليل كان كل شيء يتغير. أتحول إلى صرصار. أذهب لملاقاة الصراصير الأخرى في محطة تولبياك، أو أوستيرليتز، أو ريومور سيباستوبول. حين أصل عبر نفق الممر وأسمع ضربات الطبلة، كنت أرتعش. كان الأمر ساحراً، لا يقاوَم. كنت لأعبر البحر والصحراء، كأن حبلاً يشدني لهذه الموسيقى.

كان أكثر الأفارقة في الباستيل وسان بول، والأنتيليون في ريومور وسيباستوبول. لكن هناك سيمون أحياناً. نونو هو الذي عرفني إليها في المرة الأولى. كان هناك الكثير من الناس في الممرات، لكنني نجحت بالتسلل إلى الصف الأول. بدت طويلة القامة، بشرتها شديدة السواد، لها وجه متطاول قليلاً وعينان مقوستان، تعتمر عمامة من القماش الرقيق الأحمر، وترتدي رداءً طويلاً بلون

أحمر قاتم. فكرتُ أنها تشبه امرأة مصرية. «هذه سيمون، من هاييتي». قال نونو. كان صوتها خفيضاً، مؤثراً، ودافئاً. يدخل إلى أعماقي وحتى جوفي. كانت تغني بالكريول، بكلمات أفريقية، تغني رحلة العودة عبر البحر، وما يفعله سكان الجزيرة حين يموتون. تبدأ بالغناء واقفة، دون حراك تقريباً، ثم تدور وهي تضرب ردفيها، ورداؤها الواسع ينتفخ حولها. كانت جميلة إلى حد أذهلني.

في إحدى الأمسيات كلمتني. حدثت مداهمة شرطة وتفرق كل الناس. وجدنا نفسينا وحيدتين في المحطة، في آخر ممر طويل. كان علينا العبور، أعطيتها بطاقة وركبنا المترو نحو ساحة إيطاليا. جلست على مقعد يطوى وأنا بجانبها. بدت داخل العربة القذرة كأميرة بجفنيها الثقيلين، وشفتها السفلى ذات الغبنة، ووجنتيها الواسعتين الناعمتين. سألتني من أكون ومن أين أتيت. لا أدري لماذا قلت لها ما لم أبح به لأحد، لا لنونو ولا لماري إيلين ولا لحكيم، بأنني لا أعرف من أكون ولا من أين أتيت وأنهم باعوني ذات ليلة مع قرطيّ اللذين يمثلان أول الهلال. نظرت إلي لحظة طويلة، أغلب الظن أنها تأثرت. شدت على يدي، كانت يداها كبيرتين ودافئتين، ملؤهما القوة. وقالت:

ـ أنت مثلي يا ليلى، نحن لا نعرف من نكون. لم تعد أجسادنا لنا.

بدا من الغريب سماعها تتحدث هكذا، مع صخب العربة وبريق أضواء المحطات التي تعبر وجهها، وتضيء بؤبؤي عينيها بلون بني شفاف مثل حجر كريم.

أخذتني إلى بيتها. كانت تسكن في منزل صغير له حديقة صغيرة في شارع صغير اسمه غريب. تلة السمّان. كانت تعيش مع صديقها، طبيب هاييتي، طويل القامة جداً، نحيل وأنيق، ومع أناس آخرين، هاييتيين ودومينيكانيين أيضاً. كانوا يتحدثون مع بعضهم تلك اللغة الحلوة والسريعة التي لا أفهمها. ولو لم تكن سيمون هناك

لكنت رحلت في الحال، لأن هؤلاء الناس كانوا يخيفونني، بالأخص مارتا جوايو، صديق سيمون الذي كان يحدق بي كمن يريد قراءة ما في نفسي. كان ثمة بيض أيضاً، رجل في مقتبل العمر يدّعي بأنه ناقد فني ويشبه السيد دولاهي قليلاً، ونساء يلبسن على الطريقة الأفريقية يضعن عقوداً ثقيلة من الأحجار المزيفة من النوع الذي يبيعه حكيم. وكان دخان السجائر والحشيش يصنع دوامات كثيفة تلتف حول أشعة المصابيح المضاءة وهي تتبع نغمات موسيقا هادئة تبدو خارجة من كل ناحية، من الأرض، وحتى من النوافذ.

لم يكن أحد مهتماً بي، فوقفت أمام مدخل الصالة أدخن محاولة العثور على سيمون وعمامتها القرمزية وقرطيها الذهبيين.

دنا الناقد الفني مني، قال لي شيئاً بصوت منخفض، وبما أنني لم أفهم، مال على أذني ليردد: «يا لسموّها». هذا ما قاله على ما أظن. «إنها أرواح كل الشهداء». لم أقل نعم أو لا. ربما ظن أنني لم أفهم. حدقت في وجهه بقوة كي يسمع وتلوت عليه إيميه سيزير:

«الرقص لي

رقصات الزنجي الشرير

الرقص لي

رقصة كسر الأغلال

رقصة الفرار من السجن

الرقص، كم هو جميل وخليق وشرعي أن أكون زنجياً».

تطلع إلي الناقد دون أن يتحرك، ثم انطلق يصفق. كان يصيح:

ـ اسمعوا، اسمعوا هذه الشابة، عندها شيء تقوله لهم!

وبدأت سيمون بالغناء، لا لأحد سواي. كنت أعلم أنها تغني لي لأنها كانت تقف في آخر الصالة وتمد يدها نحوي وصوتها ينشد كلاماً بالفرنسية، فائق العذوبة، ينسل داخل موسيقى الطبول.

بعد ذلك دخنت سجائر الحشيش. سبق لي وكنت في أماكن يفعلون هذا، ففي الفندق كانت الأميرات، بين الحين والآخر، يتجمعن في إحدى الغرف وتدخّن كل بدورها، وتنتشر رائحة الأوراق اللاذعة، الحادة قليلاً والحلوة بعض الشيء. كان ذلك يسكرني ويجعلني أنام.

هنا لم يكن الأمر مماثلاً. أعطاني اللفافة تاهيتي، وبسبب الموسيقى وصوت سيمون المنساب بعذوبة، تنشقت الدخان بقوة شديدة، كأنني أردتها أن تعبرني من رأسي لقدمي. تجرعت الكحول أيضاً، الويسكي، البيرة، الروم. أذكر أنني ما عدت قادرة على الوقوف. لاشك أنني ثملت تماماً بعد قليل، لم أفقد الوعي فعلياً إنما ثملت كما نرى أحياناً في السينما. كنت أقف أمام سيمون وأغني أنا أيضاً، أردد كلماتها وأرقص في الوقت ذاته. كنت مخمورة، لكنني لم أفقد اتزاني، على العكس أصبح كل شيء واضحاً. أردد كلمات أغنية تباعاً، على وقع الطبلات الصغيرة العازفة.

«أسمع المدينة تخفق

في قلبي وفي دمي

نحن الآخرون

في البعيد، تائهون في البحر...».

كان الناس يتمايلون كأنهم تحت تأثير هزة أرضية، وكنت أرى الجدران تموج وخيالات الناس تنساب ولون عمامة سيمون القرمزي يكبر حتى يملأ الصالة. انتبه إلي الدكتور جوايو، فمدّدني فوق الأريكة، ومسحت سيمون وجهي بمنشفة مبللة بالماء البارد. كانت حركاتها رقيقة وفيها الكثير من الأمومة. كانت تتكلم على مهل، وشعرت بأنها ماتزال تغني، ليس لأحد غيري، بصوتها الخفيض والخشن قليلاً، ولكن لم يكن ذاك صوت قرع الطبول الخفيف، إنما صوت قلبي في أذنيّ.

ذهب الحاضرون، المجموعة تلو الأخرى. ربما خافوا أن أسبب مشكلة. كانوا أناساً مهمين: نقاد فنيون، كتاب سيناريو، سياسيون، وهم أول من يرحلون دائماً.

ثم تشاجر صديق سيمون معها قليلاً. كان الأمر مضحكاً، كنت أسمعهما في البعيد جداً، كأنني أطفو فوق جسدي وهما يتحدثان أمام شخص آخر. ثم تركاني فوق الأريكة وذهبا إلى الغرفة. وكنت أسمع صوت الدكتور المنخفض وصياح سيمون، في البداية كأنه يضربها أو يعذبها، فيما بعد بدأت تئن بإيقاع، فأدركت أنهما كانا يمارسان الحب.

كنت أرتجف من الحمى فوق أريكتي. وفي إحدى اللحظات ذهبت لأتقيأ في المطبخ، كنت أترنح وأقلب الكراسي. كان مايزال هناك هاييتيان يشربان. وعندما رأياني على هذه الحال ذهبا لإحضار الدكتور. سمعتهم يتحدثون عني بالكريول وقال مارتينال جوايو: «ربما تكون قاصر. من الأفضل أخذها إلى بيتها». أظن أنه اتصل بأماكن عديدة حتى عثر على حكيم. هكذا حصل على عنوان المرآب في شارع جافلو. بدأت أدرك أن العالم صغير، كنت أفكر في كل هذا بينما صديق سيمون يتصل بالهاتف. كان دماغي يغلي. وفي الوقت ذاته، كنت أرى وجه سيمون، عينيها الكبيرتين الشبيهتين بعيني جاموسة مصرية واللتين تعبّران عن حزن عميق، فأدركت فجأة لماذا قالت لي بأننا متشابهتان، نحن الاثنتان، ماعادت أجسادنا ملكنا لأننا ماأردنا شيئاً على الإطلاق، والآخرون هم دائماً من يقررون مصيرنا.

بقيتْ في البيت بعد أن أوصلني مارتينال وأحد رفاقه بالسيارة. في الخارج كانت تمطر، وكانت برك المياه الصغيرة تهتز فوق بلاط الشارع الأسود. مشت السيارة في الشوارع الصامتة والخالية. أظن أنهما يبحثان عن صيدلية مناوبة وذهب الطبيب ليشتري لي الدواء، نقاطاً من البرامبيران أو شيئاً من هذا القبيل. ثم تركاني في الشارع أمام المرآب. أنزلاني وأجلساني مسندة ظهري

على باب المرآب. نظر إلي مارتينال جوايو بصمت. وقال صديق الطبيب عبارة بالكريول. كان الأمر لا يهمني، قد يكون حدثه بالجاوية. بعد ذلك رحلا، انعطف المصباحان الأحمران عند الشارع واختفيا.

10

ثم جاء الشتاء. لم أشعر في حياتي بالبرد هكذا. كانت تغريدة قد حكت لي في الماضي عن كل ما في شتاء فرنسا. السماء الرمادية الداكنة، المصابيح المضاءة في الشوارع في الساعة الرابعة، الثلج، طبقة الجليد، الأشجار العارية تماماً والملتوية مثل أطياف. لكن الشتاء كان أكثر قسوة مما قالته.

وُلِدتْ طفلة حورية في شهر شباط. حين ولدت، ظننت أن هذا الأمر للمرة الأولى. طفل يلد تحت الأرض، بعيداً عن ضوء النهار، في مغارة هائلة.

ربما لهذا السبب بدأت بالتفكير بالجنوب، بالعودة نحو الشمس، كي ترى بشرة الطفلة الشمس، كي لا تستمر بتنفس الهواء المنتن لهذا الشارع الذي لا سماء له.

كنا نقوم بالمخططات نونو وأنا. هو سيكسب مبارياته بوزن الريشة، وسنتمكن من شراء سيارة ثم نتجه كلنا جنوباً مع حورية والطفلة عبر الطريق الرئيسي المار بإيفري كوركورون، بفروعه الثمانية الشبيهة بالنهر. سنرحل إلى كان، إلى مونتي كارلو، بل حتى إلى روما في إيطاليا. سوف ننتظر شهر نيسان أو أيار كي تغدو الطفلة كبيرة وتصبح قادرة على تحمل الرحلة. أو حتى حزيران، لأنه علي التقدم للبكالوريا، لكننا لن ننتظر أكثر، لأن ذلك سيطول كثيراً وسنتأخر وقد يفوت الأوان ولا نرحل أبداً. كان شهر حزيران

مناسباً. فمباراة التصفية الكبرى ستجري في الثامن منه بالتحديد، ونونو يتدرب كل الوقت. يلاكم في مرآبه. صنع لنفسه كيساً للملاكمة من كيس بطاطا حشاه بالخرق القماشية.

كان الجو بارداً في شارع جافلو. لحسن الحظ أحضر نونو مشعاً كهربائياً ينفخ مثل صوت طائرة. كي لا ننفق كثيراً، أراني نونو كيف يهرّب الكهرباء من العدّاد، إذ ثقب بمثقاب يدوي على جانب الغطاء الواقي فتحة صغيرة ليوقف العجلة بصنّارة صوف. حين يُحتمل مرور المراقب، كنا ننزع الصنارة ونغطي الثقب الصغير بقليل من المعجون الأزرق. كان يعوزنا المال. نونو يتدرب وليس لديه الوقت للعمل والمنحة لا تكاد تكفي. وحين يعود مساءً يرتمي من التعب. كان مندوبه الاجتماعي سيؤمن له سند إقامة فيما لو ربح المباراة ولم يكن يريد تفويتها. صارت حورية في الأيام الأخيرة أكثر فأكثر شبهاً بملكة النحل. كانت تبقى مستلقية على السرير بالقرب من السخّان الذي يغرغر، صارت بدينة وعديمة النفع، متورمة الوجه من الحمل. لم ترغب أن تهتم بها مساعدة اجتماعية. كما أنها لاتريد طبيباً. كانت تخشى أن يشوا بها للشرطة ويرسلونها إلى زوجها. إنها بأمان وهي تحت الأرض، تربي ابنتها مثل عنكبوت داخل شرنقة. لاأحد يمكنه العثور عليها هنا. كان الخطر الوحيد هو صديق نونو، لكن أخباره الأخيرة تقول إنه أحب الحياة في بورابورا. واحتمال وصوله فجأة إلى باريس وسط المطر والبَرَد ضعيف جداً.

عندما حانت ساعة الولادة، طلبت حورية امرأة وليس طبيباً. كان نونو مذعوراً يركض في كل الاتجاهات فاقداً صوابه. وبما أنني لم أكن أعرف أين أذهب ركبت القطار حتى إيفري كوركورون وذهبت إلى مخيم الغجر. عثر خوانيكو على المرأة. تناقش معها بلغة المانوش ووافقت على المجيء مقابل خمسمائة فرنك. كانت تدعى جوزيفا. طويلة القامة، مسترجلة قليلاً، لها وجه متطاول وبارز التقاطيع ويدان قويتان. بالكاد تتحدث الفرنسية لكنها رقّت

حين سمعتني أحدثها بالإسبانية. كان لها لهجة أهالي جاليس الحادة.

اصطحبتها بالقطار. قبل الذهاب إلى شارع جافلو أرادت التسوق لها وللأم المستقبلية. اشترت قطناً وصوفاً وبينادين وضمادات وأشياء من هذا القبيل، وكذلك أعشاباً من عند الصيني، وزعتراً، وصويا، ومرهماً داخل علبة دائرية يزينها نمر. كما اشترت الكولا والبسكويت والسجائر.

استقرت في المرآب. علّقت ملاءة في وسط الغرفة حيث ترقد حورية كي لا يزعجها أحد. بقيت هناك ثلاثة أيام دون أن تخرج وتتكلم تقريباً. كانت ترى المكان يفوح برائحة بشعة، فتشعل قطع بخور وتدخن السجائر. أثناء تلك الأيام لم نتمكن نونو وأنا من البقاء في مكان واحد، بقينا طوال الوقت في الخارج. كنت أذهب بعد العمل عند بياتريس لملاقاته في صالة التدريب في باربيس. كان يلاكم ضد ظله، يقفز على الحبل. فأجلس في إحدى الزوايا وأتفرج عليه يتحرك. ظن الجميع بأنني صديقته الحميمة. حتى أن المندوب الاجتماعي جاء للتحدث معي. لم يكن يقول: «نونو» أو «ليون»، إنما يتحدث عنه باسم عائلته، آديدجو: «يجب على آديدجو أن يعمل، يجب ألا يتحامق، قولي له ذلك». أظن أنه كان يلمّح إلى معشر نونو، الأشخاص الذين يكسرون هياكل السيارات وإلى معدات الصوت التي يحضرها معه بين الحين والآخر ويعيد بيعها. كان المساعد الاجتماعي رجلاً قصيراً، شعره قصير منتصب، له هيئة رياضي وشرطي. لم أكن أحب أن يأتي ليحدثني، ولا أن يقول «آديدجو» هكذا كمن له حقوق عليه، كأنه من طرفه. حاول مرة أو مرتين أن يعرف وضعي القانوني، فيما إذا كان لدي الإقامة. لم أكن أحب أن يطرح علي الأسئلة وأن يحدث الجميع دون تكلف، كأن لا فرق بيننا وبينه، لكن ربما كان بكل بساطة ودوداً. كانت يده اليسرى مبتورة، وقد يكون لهذا السبب يتوجه للناس ويقول لهم بصوت عالٍ:

ـ هيا، ساعدني على ارتداء قميصي، من فضلك.

بدت صداقته عدائية إلى حد ما. وكل يوم تقريباً يقول لنونو:

ـ لا تقلق، إقامتك قضية تمت تسويتها.

كان باستطاعته تسوية أي أمر كان.

ثم أنجبت حورية بنتاً. عندما عدت من عند بياتريس الصحافية، كانت الطفلة هناك، معلقة فوق صدر حورية. بدت القابلة تعبة. شربت عدة كؤوس من النبيذ ونامت بعمق فوق الأريكة. حتى ضوء النيون لم يوقظها.

كانت حورية تبدو مسرنمة هي أيضاً. وانتشرت في الغرفة رائحة قوية جداً، رائحة بول وعرق، لاذعة قليلاً. لو أن هناك نافذة في مكان ما لفتحتها على اتساعها لإدخال الشمس والهواء. ففكرت أنه على الطفلة أن تغادر بأسرع ما يمكن وإلا لن تعيش تحت الأرض.

في الأيام التي تلت، انخفضت الحرارة. كنا جميعنا منهكين. كأن كل واحد منا ساهم بتكوين الطفلة. ننام كل بدوره، بحسب توقيت الرضاعة. تشقق ثديا حورية وصَعُب عليها الإرضاع. نزفت في سريرها. فعادت القابلة، وجعلت حورية تشرب اليانسون والحليب، ودلكت حلمتيها بمرهم دهني. راحت حورية ترتجف من الحمى، والطفلة تصرخ. في نهاية الأمر، أرسلت بياتريس صديقتها الطبيبة المساعدة، وأخذت حورية والطفل إلى دار التوليد. لاشك أنها كانت مريضة جداً حتى تركتهم يأخذونها على حمالة دون أن تقول شيئاً.

بدأت أذهب لرؤيتها بعد ظهر كل يوم. كانت مع أمهات أخريات في غرفة جميلة ناصعة البياض في الطابق الأرضي. كانت تُرى من خلال النافذة أشجار السرو والوثاقية البرية وعصافير دوري تطير. حتى السماء الرمادية بدت رائعة. أحمل معي الحلوى الجافة والشاي في ترمس، وكي أروّح عن نفس حورية كنت أروي لها أي شيء.

كنت أقول لها إننا سنسمّي الطفلة باسكال، لأنها ولدت في اللحظة المناسبة، قبل إقرار قانون الدم الجديد. ووافقت حورية، لكنها أرادت إضافة اسم مليكة لأنه اسم أمها. وهكذا سميت الطفلة «باسكال مليكة». عند تسجيل الوضع العائلي، أرادت إعطاء اسم الوالد الحقيقي، محمد، كي لا تكون البنت مجهولة الأب. حتى حكيم أتى لرؤيتها. نظر إلى هذا الشيء الصغير المتورد والغارق في النوم في مهده إلى جانب حورية، وقال: «لها شكل فرنسية صغيرة بالفعل».

فجأة غدت حورية قلقة: «ولكن إذا أردت العودة إلى بيتي ألن ينتزعوها مني؟» طمأنتها بقدر ماستطعت.

ـ لا أحد يستطيع أخذها منك، إنها لكِ، لا لأحد سواك.

أظن أنها المرة الأولى التي يكون لها شيء يخصها، فرغم القلق من المستقبل، ورغم كل ما تعرضت له، كانت محظوظة.

مجيء باسكال مليكة غيّر فعلاً شارع جافلو. أدركت أن لاشيء سيكون مثل السابق منذ الآن، وستكون الأمور نحو الأفضل. أولاً، لم تعد حورية تفكر بالرحيل. ولا تريد العودة إلى وطنها. الآن بعد أن صار عندها طفلة، كانت تشعر بأنها أقوى، لم تعد المدينة والناس يخيفونها. كل صباح تدثر الطفلة بشال كبير وتذهب خارجاً، إلى الحدائق، إلى الشوارع، أو حتى لزيارة رفيقها السيد يو. كي تحصل على عمل طلبتُ من بياتريس أن توظفها بدلاً مني. اشترت للطفلة مهداً، وكل صباح كانت حورية تذهب للعمل عندها. لم يكن بإمكان بياتريس وزوجها الإنجاب، لهذا كانا متأثرين من رؤية تلك الطفلة الصغيرة تنام عندهما. فيما بعد اعتادت حورية على تركها لمدة أطول، حين تذهب إلى السوق أو لتتابع دروس محو الأمية. كان لباسكال مليكة غرفة جميلة، فقد رفعت بياتريس وزوجها المكتبة المليئة بالكتب، وأعادا فرش الغرفة باللون الوردي فغدت هادئة جداً

مع الضوء والشمس. حين كانت حورية تعود لتمضية الليل في الحفرة في شارع جافلو، كانت الطفلة تصرخ وتبكي لا تريد النوم. لم يخبروها، لكنني أظن أن بياتريس وزوجها فكرا من البداية بتبني باسكال مليكة.

التقيت بسيمون من جديد. عدت في إحدى الأمسيات إلى مترو ريومور سيباستوبول. شعرت كأن سنوات مضت دون أن آتي. حين سمعت ضربات الطبلة تدوي بعيداً في الممشى، ارتعشت. لم أكن مدركة إلى أي درجة كنت أفتقد ذلك. وفي الوقت ذاته، كل ما جرى مع ولادة الطفلة غيرني وربما زاد سنّي. كأنني أدرك الآن ما وراء كل تلك الحركات، كل تلك الأفعال والمعنى الخفي لهذه الموسيقى. عند تقاطع الأنفاق في الممرات، كان العازفون جالسين ينقرون فوق طبلاتهم. كان هناك أولئك الذين أعرفهم، الأنتيليون والأفارقة، وآخرون لم أرهم في حياتي، شاب شعره طويل، بشرته بلون العنبر، من سان دومينيكان على ما أظن. لم تكن سيمون تغني، كانت جالسة تسند ظهرها إلى الجدار، تغطي وجهها بنظارة سوداء. جلست بالقرب منها، وحين تعرفتْ إلي ابتسمت، لكنني لاحظت أن وجنتها اليمنى متورمة.

ـ ماذا حدث لك؟

هزّت كتفيها، لم تجبني. كانت الموسيقى الجامبية والجون جون تقرع على مهل، بطيئة جداً، في غاية الهدوء. كانت تقرع تحت الأرض، حتى الطرف الآخر للعالم، كي توقظ موسيقى الناحية الأخرى من المحيط مثل نشيد، مثل لغة. كنت محتاجة لهذا، وشعرت بالتحسن. كان ذلك شبيهاً بصوت مؤذن يعبر فوق الأسطح، يصل إلى فناء لالا أسمى، شبيهاً بصوت أسلافي في بلاد بني هلال.

في إحدى اللحظات كان هناك إشارة بوصول الشرطة ورحل الجميع بسرعة، الطبول والمتفرجون، فوجدت نفسي وحيدة مع سيمون، مثل المرة التي ذهبت فيها إلى بيتها. لكنها سألتني بصوت مضطرب ومخنوق:

ـ ليلى، هل أستطيع الذهاب إلى بيتك هذه الليلة؟

كانت تعرف أين أسكن منذ المرة التي وضعني فيها مارتينال أمام باب المرآب. لم أسألها عن السبب. وعدنا مشياً على الأقدام نعبر باريس تحت الرذاذ.

أمضت يومين عندنا. بقيت دون حراك مستلقية فوق فراش أحضره نونو، تشرب القليل من الكولا وتعود للنوم. كانت قد أفرطت بالمسكنات. حكت لي قليلاً عما حدث. لقد جنّ صديقها، اتهمها بالخيانة، ضربها وبدأ اثنان باغتصابها. لم تكن تريد إبلاغ الشرطة. قالت بأن ذلك لايجدي، فالطبيب جوايو رجل مهم وله أصدقاء في كل مكان، كان يعمل في أوتيل ديو ولا أحد سيصدقها.

في إحدى الليالي جاء ليأخذها. سمعت السيارة تتوقف وراء باب المرآب. لا أعرف كيف عرف أن سيمون مختبئة عندي. كان لديه جواسيس في كل مكان. لم يحدث فضيحة، دقّ برفق فقط على باب جدار طوارئ الحريق، صوت خفيف سمعته في منامي. وعندما أضأت النور، رأيت سيمون جالسة فوق فراشها، تفتح عينيها على اتساعهما، كأنها بانتظاره. كان يكلمها من وراء الباب بلهجته الكريولية المدندنة العذبة. فقلت لسيمون:

ـ أتريدينني أن أطلب منه الذهاب؟

كانت نظرتها غريبة، مسحورة، مرتعبة ومفتونة في الوقت ذاته. وكنت أنظر إلى وجنتها المتورمة، والدم الجاف فوق قوس حاجبها وأشعر بالغضب والعار.

ـ لاتصغي إليه، لا تردّي. سوف يرحل في النهاية.

ولكن كان الأمر أقوى منها. بدأت سيمون تكلمه عبر الباب، فهي لا تريد إيقاظ الطفلة. كانت تهمس بصوت منخفض، في البداية شتائم بالفرنسية، ثم بالكريول. انتهت إلى فتح الباب. كانت سيارة المرسيدس متوقفة في الظلام، أضواؤها مطفأة. ولم يكن هناك سوى صوت الهدير الصادر عن فتحات التهوية المجاورة. بقيا هناك يتحدثان طوال الليل. استيقظت في أحد الأوقات، كنت أشعر بالبرد. كان باب المرآب مواربا يسمح بمرور نسمة باردة. شاهدت المرسيدس مطفأة المصابيح وسيمون وصديقها مستمران بالكلام يجلسان في المقعد الخلفي. وفي الصباح رحلت معه دون أن تقول لي كلمة واحدة. صَعُبَ علي أن أفهم كيف يمكن لامرأة أن تكون متعلقة إلى هذه الدرجة برجل كهذا.

صارت لدي عادة الذهاب إلى بيت سيمون بعد ظهر كل يوم لا يكون فيه مارتينال جوايو هناك كي أتعلم العزف والغناء. كانت تقضي النهار كله تقريباً دون حراك، وحيدة في البيت الصغير ونوافذه المغلقة في بوت أوكاي. كانت تصنع من الشموع المضاءة مثلثاً كبيراً في غرفة الطابق السفلي، وتضع في الوسط شيئاً تحبه فاكهة من السوق، مانغا، أناناس، بابايا. ما كنت أجرؤ على سؤالها عن السبب ولا أسألها شيئاً، لهذا كانت تحبني جداً. كانت ساحرة، وتتعاطى المخدرات أيضاً. تدخن الكراك باستخدام غليون صغير من الفخار الأسود. إنها فاتنة بعينيها المصريتين الواسعتين، وجبهتها المحدبة اللامعة مثل المرمر الأسود.

كانت تعزف على بيانو إلكتروني موصول بمكبريّ صوت، تخفض الصوت جداً وبشكل شديد الحدّة كي أتمكن من سماعه. قالت لي إنه يجدر بي عزف الموسيقى لأن لدي أذن صماء وكل كبار الموسيقيين كانوا يعانون من مشكلة، كانوا صمّاً، أو عمياناً، أو ببساطة كان بهم شيء من المسّ.

لم يكن الدكتور جوايو يعود أثناء النهار. إنه في سالباتريير كل

الوقت يعتني بالمجانين. هو نفسه كان مجنوناً. لم يكن يعجبه ما تفعله سيمون بشموعها وتَقْدِماتها. ولو رآها لانتابه الغضب. لكن سيمون كانت تخفي عنه كل شيء قبل عودته، ترتب الشموع والبخور وتعيد السجادة والكراسي والأرائك إلى مكانها.

صممت على تعليمي الغناء. كنت أجلس متربعة إلى جانبها على الأرض، وهي تفرش رداءها الطويل فوق ساقيها مثل تويجات زهرة قرمزية. كانت تضرب على لوحة المفاتيح بيدها اليسرى، تلك اليد الكبيرة الخفيفة التي تجري فوق النغمات، ثلاث أو أربع أو خمس فواصل، أو دوزنة طويلة، وكان علي متابعتها بصوتي. لهذا راحت تعزف بيدها اليسرى كي أتمكن من الغناء من الجانب الأفضل، قرب أذني السليمة. لم أكن أقول لها شيئاً لكنها كانت تعرف أنني نصف صماء. بدا رائعاً أن يخطر على بالها تعليمي الموسيقى وكأنها أدركت ما يعتمل في نفسي، وأنني لهذا الهدف كنت أحيا.

أمضينا بعد ظهر أيام كثيرة معاً في بيت شارع بوت أوكاي نعزف الموسيقى، نشرب الشاي، ندخن ونثرثر. كنا نضحك بلا سبب. كنت أشعر بأنه لم يسبق أن كان لي صديقة مثل سيمون. يذكرني ذلك بأيامي في الفندق، بالأميرات اللواتي كنت أرقص لهن ويصطحبنني إلى الحمّام أو إلى المقاهي على شاطئ البحر. لدى سيمون كل صفات الأميرة. في داخلها فقط شيء مأساوي لم أكن أفهمه جيداً، حيّز من حياتها بقي خفياً، شيء من الجنون.

علمتني الغناء على على موسيقى جيمي هندريكس، «burning in the midnight lamp»، «foxy lady»، «purple haze»، «room full of mirrors»، «sunshine of your love»، «voodoo child»، وبالطبع موسيقى نينا سيمون «black is the color of my true love's hair»، «I put a spell on you»، ومودي واترز، وبيلي هوليداي، «Sophisticated lady» لكنني لم أكن أغني الكلمات، كنت أصدر الأصوات، ليس فقط بشفاهي وحنجرتي، إنما من غور أعماقي، من عمق رئتي وأحشائي، أربعة أو خمسة أصوات، فتوقفني لأعيد الكرة مراراً. كانت يدها تتراقص فوق لوحة المفاتيح وأنا علي القيام

بالشيء ذاته معها. أو تعزف بصوت قوي وأنا أتابع وأغني هكذا: «بابيليبو، بابلولالي،لاليلالو...».

أحياناً تتحدث عن جزيرتها، في الطرف الآخر للعالم، وعن الموسيقى التي تعلو البحار حتى الأرض القديمة حيث خُطف أسلافها وبيعوا. تذكر أسماء الأمم التي ترنّ بشكل غريب مثل كلمات أغنية. «إلبو، موكو، تام، منديكا، شامبا، غانا، كيومانتي، أشانتي، فو...» مثل أسماء أهلي الذين نسيتهم.

إنها تتحدث عن الفقر وتقول:

- الهاييتي هو صاحب الوجه الأكثر قسوة في العالم. الأسوَد هو الذي يخون الأسوَد، كما في زمن ديسالين. حين نجوع نحول نظرنا نحو الداخل.

كانت تتحدث عن شارع سيزار في بورتوبرنس، وعن القلب الخافق في الجموع، وعن أمها روز كارول التي كانت تغني الفودو في الماضي كي تستحضر الأموات. كانت تقرع الطبول، وهناك عين مفتوحة وسط مثلث كبير في فناء بيتها مثل تلك التي ترسمها سيمون بشموعها. كانت تحكي وتغني، تتحدث مع قرع الطبول وترى مجيء الأرواح حتى هنا، في شارعها. تذكر أسماءها، أسماء النباتات، نبتة القصب، وفاكهة الروح الحقيقية، شجر البابايا، وشجرة الزمان العملاقة الداكنة التي تغطي الجزيرة بظلالها. كنت أستمع إليها وأغفو لكثرة ما كان الأمر جميلاً. كانت تعزف لي فوق لوحة المفاتيح، الألحان نفسها دائماً والتي تأتي قوية، أو تضرب بأطراف أصابعها على الطبلة الناطقة، وعلى الرادا والجوم جوم، ويجتاحني قرع الطبول كما في ممرات ريومور سيباستوبول، يتصاعد في داخلي ويملؤني كلياً، وأغدو شبيهة بالأفعى الراقصة أمام مدربها، شبيهة بدراويش العيد، أدور حول نفسي حتى يصيبني الدوار.

ما عدنا نتكلم. هي تجلس فقط وسط ردائها، تؤرجح جذعها، تعزف الموسيقى وتغني غناءها الأفريقي الذي يذهب حتى الضفة

الأخرى للبحر، وأنا أردد حركاتها وعباراتها وحتى حركات عينيها ويديها دون أن أفهم، كأن قوة مغنطيسية تشدني إليها.

كانت تفعل ذلك إلى أن يذوي لهب شموعها.

عندما ينتهي كل ذلك نكون قد أنهكنا. ننام على الأرض فوق وسائد مبعثرة وسط رائحة الدخان. كان العالم في الخارج يتحرك. ربما كانت قطارات المترو، القطارات، السيارات، البشر، تتراكض مثل حشرات ممسوسة، والناس يشترون، يبيعون، يحسبون، يتكاثرون، يغضبون، يوظفون الأموال. كنت أنسى كل شيء، حورية، باسكال مليكة، بياتريس وريمون، ماري إيلين، نونو، الآنسة ماير والسيدة فروميجا. كل ذلك كان يمر ويمضي. الصورة الوحيدة التي تغمرني هي نهر السنغال العظيم، ومصب فاليميه، وأخاديد المراعي في الأراضي الحمراء وبلاد الحاج. إلى هناك كانت تحملني موسيقى سيمون.

ذات مساء، وصل مارتينال جوايو أبكر من المعتاد. فتح باب الصالة، ظل عند العتبة لحظة طويلة يتفرج. كان الظلام يخيّم في الخارج. لاشك أن الشموع المحتضرة كانت تحدث نوراً مريباً وشعرتُ بنظر الدكتور يجول في الظلام. لم يتفوه بكلمة، عَبَرَ الصالة وهو يتعثر بطبلات سيمون، وذهب مباشرة نحو الحمام. لاشك أنه كان في غاية الحنق ليعبر الصالة بصمت عبر كل تلك الفوضى. أوقفتني سيمون ودفعت بي نحو الباب.

ـ اذهبي من فضلك، اذهبي.

بدت مرتعبة. فقلت لها:

ـ تعالي أنت أيضاً. لا تبقي هنا.

أنا متأكدة أنها لو تمكنت من المجيء في ذلك الوقت لكانت حرة الآن، لكنها لم تفكر حتى بذلك. وضعت بعض المال في يدي.

ـ اذهبي، خذي تاكسي لتعودي، الطقس بارد.

لا أعرف لماذا فكرت في تلك اللحظة أنني لن أعود وأراها. لم تكن قادرة على تقرير مصيرها لهذا كانت عبدة. لو أنها استطاعت أن تكون حازمة مرة واحدة فقط لما عادت وخافت من مارتينال ولا من كونها وحيدة، وما احتاجت لتنشق القاذورات، ولا لأخذ مسكناتها الدائمة، لو أنها فعلت، لكانت حرة.

من جهة الحاج، لم تكن الأمور على ما يرام أيضاً. فالجندي العجوز كان خائفاً من الشتاء. كنت أذهب كلما استطعت، أركب القطار أو الحافلة إلى كوركورون وحتى شارع فيلابيه. كان الريف متجمداً والجليد فوق المنحدرات. حقول رمادية فسيحة تجرجر الغربان فيها قوائمها. في الشقة الصغيرة في البرج «ب»، كان الحاج يجلس أمام النافذة، مرتدياً بلوزة واسعة فوق قميصه الأزرق وقلنسوة محشوة ينام بها. كان يحلم بصوت مسموع، بالنهر العظيم الجاري ببطء شديد عبر الصحراء حيث يتألق النور حتى في الليل. ربما لهذا السبب كنت أذهب لرؤيته، ليحدثني عن النهر. كان يتحدث أيضاً عن ساقية فاليميه وعن مدن مَدين، ماتام، وقريته يامبا، كأنه مايزال يبحر فوق القارب الطويل، مع النساء والأطفال وهو ينظر إلى البيوت المعلقة على الضفاف، وإلى تحليق طيور الكركي وبجعات الغاق. حدثني للمرة الأولى عن حفيدته مريم، أخت حكيم. ماتت هناك، ذات صيف وهي ذاهبة لرؤية أمها. أصيبت باللوكيميا في موسم الأمطار. دخل البرد إليها، جمدها يوماً بعد يوم وقتلها. لم يرني الحاج صوراً. فما كان ليفيده هذا بشيء. أراني فقط كرّاسها المدرسي، لأنه كان فخوراً بنتائجها. كانت للسنة النهائية في سان لويس.

يحدث أحياناً أن ينسى بأنها ماتت. يخاطبني كأنني هي، مريم الجديدة. كان في غور أعماقه صدع، مثل عظم مكسور لا يكف عن الوجع. لم يرغب أبداً بالعودة إلى هناك. «هدموا كل شيء، الطرقات في كل مكان، أترين، جسور، مطارات، وكل القوارب الخشبية صارت غرفها المكشوفة للمحركات. ماذا سيفعل عجوز مثلي هناك؟ لكن

عندما أموت أريدك أن تأخذيني إلى موطني، كي أدفن في التراب إلى جانب أبي وأمي، في يامبا، عند ضفة فاليميه. هناك ولدت، وإلى هناك يجدر بي أن أعود». كنت أعده بالذهاب معه حتى ولو كنت أعرف استحالة الأمر على الأرجح. أنا أيضاً عندي مقبرة أود أن أدفن فيها.

كان يتحدث أحياناً عما شاهده، في العربية السعودية، حين قبّل الحجر الأسود الخاص بالملاك جبريل. مياه بئر زمزم التي حملها معه في قارورة بلاستيكية، وجبل عرفات حيث تحرق رياح الصحراء عيون المسافرين. كان يدير وجهه نحو النافذة، أنا أرى الجدران البيضاء للأبنية المحيطة، ونسمع هدير النشيد الوطني ليس في البعيد، هناك حيث تقع جزيرة الغجر. لكن الحاج لم يكن هنا، إنه في مكان آخر، داخل نوره. بقيت مع الحاج إلى أن حل الليل. أحضرت له الشاي، غسلت الغسيل ورتبت أغراضه. ربما كنت أشعر في أعماقي بأنني لن أراه من جديد، كما عندما بدأت لالا أسمى بالسقوط في المطبخ وأدركت بأنها راحلة.

بدأ الشتاء يقترب من نهايته. كان دائم الشعور بالبرد. اشترى له حكيم سخاناً كهربائياً يعمل ليل نهار، وأصبح الجو حاراً جداً في الغرفة الصغيرة، حتى أن المياه راحت تسري فوق النوافذ. كان الحاج يتوقف عن الكلام كي يسعل، سعالاً قوياً مثل صوت مصهر حديد في قفصه الصدري مما كان يؤلمني. قال لي حكيم إنه يعاني من وذمة، مرض يعيق تنفسه. أما أنا فكنت أعتقد أن البرد والريح والشمس الشاحبة كانوا يستنزفونه.

إذ أحسُ بأنه متعب جداً، كنت أرحل. أقبل يده وأضغط للحظة راحة يده فوق جبيني وأنزلها نحو عيني وأنفي ووجنتيّ وشفتيّ. كان يقول: «وداعاً يا ابنتي». كأنني حقاً مريم. ربما نسي. ربما أصبحت شبيهة بها لكثرة ما أتيت إلى جانب جدها، لكثرة ما أصغيت إليه يروي ما عاشه هناك، عند ضفة النهر. أنا نفسي ما عدت أدري حقاً من أكون.

حين أذهب إلى كوركورون، كنت أمر بجزيرة الغجر، أحيّد قليلاً كي أرى خوانيكو. ذات مساء، جاء إلي كأنه بانتظاري. كانت هيئته غريبة. طلب مني سيجارة. وقال لي بصوت شبه مخنوق:

ـ برونا تبيع أحد أطفالها.

ولأنني بدوت غير مستوعبة، أعاد القول بنوع من نفاد الصبر:

ـ ما أقوله لك حقيقة، برونا تبيع طفلها.

كان الظلام يحلّ وأضواء الشوارع تضيء كنجوم صفراء على طول الطريق، وليس بعيداً، في آخر الهضبة الإسمنتية، كان مبنى السوبر ماركت مضاء كقصر خرافي.

بدأ قلبي يخفق بشدة. مشيت وراء خوانيكو على طول درب الكلاب الذي يؤدي مباشرة إلى مخيم الغجر. كنت أمشي بسرعة، ولم أتمكن من فهم ما قاله لي خوانيكو. شعرتُ كأنها قصتي أنا بالذات التي يرويها، عندما رماني المجهولون داخل كيس وأخذوني، ثم باعوني من يد ليد، إلى أن وصلت إلى لالا أسمى.

قادني خوانيكو إلى كوخ من العوارض الخشبية سطحه من الصفائح المعدنية، بجوار قاطرة بيضاء. كان فيه بضعة أطفال يضيء وجوههم مصباح غاز موضوع على الأرض. حول الكوخ كومة من الحطام والكراتين والعلب الصدئة، وكان هناك صبي أعرج. وفي عربة السكن أناس، رجال ونساء يأكلون، وصوت تلفاز، وكلاب مربوطة بسلاسل وبرها أصفر مزبئر. فتح خوانيكو باب الكوخ. فوق سرير تخييم، كانت برونا جالسة على فراش بلاستيكي يرتفع في الأطراف الأربعة، وبجانبها طفلان، فتاة بعمر الست سنوات تقريباً وصبي عمره اثنتا عشرة سنة، نظرته ذكية وحادة. كانوا يتحدثون الرومانية. راح خوانيكو يطرح الأسئلة على المرأة. كان وجهها نحيلاً وشعرها أشقر نحاسي قليلاً وعيناها شديدتا الخضرة، حارتان مثل عيني حيوان. إنها تصغي لما يقوله خوانيكو ونظرتها تتنقل بيني وبينه كأنها تحاول سبر الحقيقة. بعد

ذلك، نهضت، ذهبت نحو الداخل وأبعدت ستاراً. كان داخل المخدع عربة أطفال سوداء في داخلها طفل نائم. «إنها بنت» أضاف خوانيكو بصوت أخفض وبسرية: «قلتُ لها إنك تعرفين أناس أغنياء، أطباء ومحامون وإلا ما كانت أرتك طفلتها». لم أعرف بماذا أجيب. كنت أنظر إلى الطفلة النائمة المغطاة كلياً تقريباً بالصوف والأغطية. «ما اسمها؟» سألت. هزت برونا رأسها. وصار وجهها قاسياً وغامضاً. فأجاب خوانيكو بعد لحظة صمت طويلة ما فيه الكفاية: «سيسميها من سيشتريها».

ولكن حين خرجت من البيت، قال لي خوانيكو بصوت منخفض:

ـ أتعلمين، هذا ليس صحيحاً، للصغيرة اسم. تدعى ماجدة.

فكرت بمحررة الصحيفة بياتريس وبما قالته لي فيما يخص طفلة حورية، إذا كانت الأم لن تتمكن من الاعتناء بها فهي تود تبنيها. فقلت لخوانيكو:

ـ اسمع، إذا أرادت هذه المرأة فعلاً بيع ابنتها، أعرف أحداً يشتريها

قلت ذلك وأنا أشعر بالغصة لأنني كنت أفكر في الوقت نفسه أنه هناك من قال الشيء نفسه دون شك حين سُرقت، ولا شك أن لالا أسمى أجابت هي أيضاً: «أنا أستطيع شراءها». كان الجو رمادياً وقاتماً في ذلك المساء، والسيارات تمر على جانبي جزيرة الغجر محدثة هديراً مثل هدير نهر يفيض. رافقني خوانيكو حتى موقف الباص وعدت إلى باريس.

11

مات الحاج بعد ثلاثة أيام. حكيم هو الذي أخبرني عن طريق صديق. كنت أهم بالذهاب لمتابعة درس الفلسفة في مقهى الديزيسبيرانس حين وصل الخبر. فركبت القطار في الحال نحو كوركورون. كان الجو نفسه غائماً وكئيباً، كأن الأيام لم تمر. ويتحدثون عن الثلج في المذياع.

بدا باب الشقة مواربا. دخلت بهدوء، كأنه مايزال هناك ولا أريد إجفاله. المطبخ حيث كان يقبع عادةً خالٍ، والستار داخل الغرفة نصف مسدل. أول من رأيت حكيم من ظهره قرب السرير، ثم أناساً آخرين لم أكن أعرفهم، جيران دون شك، أناس مسنون وامرأة طويلة القامة وقوية، ظننت أنها ربما تكون والدة حكيم، لكنها صغيرة السن وسحنتها عربية، بشرتها بيضاء وشعرها مجعد ومصبوغ بالحناء. ربما هي ببساطة منظفة المنزل أو حتى بوابة المبنى. كان الحاج مستلقياً فوق السرير، بكامل ملابسه، كما هو، بقميصه الأزرق الطويل العديم الياقة، وبنطاله الرمادي بثنيتيه اللاعيب فيهما. وكان في قدميه حذاؤه الأسود الضخم اللماع كأنه مستعد للذهاب في رحلة. لم أره هكذا أبداً. كان وجهه منكمشاً مثل قبضة يد، جفناه منتفخان، فمه، حتى أنفه، كلها منكمشة بتعبير ألم وحزن. كنت أفكر بما كان يرويه عن نهر السنغال، عن قريته في يامبا وعن نهر فاليميه عن كل ما كان يحبه في العالم، ومات بعيداً

جداً، وحيداً في غرفته، في الطابق الرابع من البرج «ب» في مجمعات فيلابيه السكنية.

ما كان أحد يقول شيئاً الآن. كان حكيم ينظر إلي بينما كنت ألمس جبين جده لثانية واحدة فقط، الوقت الكافي لتحسّ أطراف أصابعي بجلده البارد المتكتل. كان الجو هادئاً جداً وشديد الصمت. وددت لو كان هناك صوت كما في الأفلام، أسمع النساء يبكين بنحيب طويل مثير للشجون ومبالغ فيه. لو أن هناك جلبة رجال يشربون قهوة الأموات، أو كما عند المسيحيين أسمع تمتمة صلوات، كلب يعوي في الفناء، أو حتى دقة جرس حزين. لكن ليس هناك شيء من هذا. فقط صوت تلفاز من مكان ما في أعلى المبنى. انسحب الزوار بهيئة واجمة متجنبين النظر إلي. وددت لو أن هناك عازفو التام تام من المترو ليعزفوا بلا توقف، موسيقى هادرة كالرعد في الغابات، على طول الأنهر وتغني سيمون بصوتها القوي. خرجت السيدة ذات الشعر المحنّى بهدوء. لاحظت أنها تشبه لالا أسمى. كان لها النظرة التائهة نفسها لقصيري النظر وراء نظاراتهم. لا أدري لماذا أمسكتها من يدها وأخذتها نحو السرير. «من فضلك، ابقي قليلاً بعد، لا تذهبي». هزت رأسها. كان صوتها خشناً ومبحوحاً «كان لطيفاً». قالت ذلك كأنها تعتذر. انسحبت ببطء. باعدتْ أصابعي واحداً واحداً. كان في عينيها الخضراوين تعبير رعب. بدا لي بؤبؤيها سابحين وسط حدقتيهما.

في النهاية حكيم هو الذي حررها. أخذني من كتفي كما يفعل مع مجنون هستيري. كان حكيم أخي وأنا مريم. شعرت فوق وجهي بأصابع الحاج الكهلة تمر فوق عيني وفوق وجنتي وشفتي. ما عاد بوسعي التنفس. كأن شيئاً ما في داخلي راح يتكاثف، ويسد حنجرتي في صدري. «كان جدي، حقيقةً، الآن ماذا سيحل بي؟» رحت أتلعثم بكلمات غير مترابطة تخنقني العبرات. ظن حكيم أنني أبكي، لكنها لم تكن دموعاً، كانت غضباً، أردت تحطيم كل شيء في

ذلك المبنى، رغبت لو أخرق السماء الكتيمة التي منعت الحاج من الرؤية، أن أثقب النوافذ والستائر، أن أكسر القاطرات ومرايا الحافلات وقضبان سكة الحديد والمركب الذي يستغرق وقتاً طويلاً للوصول إلى ضفاف نهر السنغال ويامبا وفاليميه.

كان حكيم يضمني إليه بقوة حتى أنني ارتميت على الأرض بجانب السرير وشاهدت كل ما سلخ حياة الحاج، المبولة، زجاجات الكورتيزون، كل ما سقط ولم يتسن لأحد الوقت للتنظيف من أجل موكب الجنازة.

عانقني لحظة طويلة، وأظن أنه هو أيضاً كان يحتاج للمواساة. قبلني في إحدى اللحظات وشعرت بالدموع على خديه. ثم انتهى الأمر. نهضت من جديد ورحلت. لم أنظر إلى جسد الرجل العجوز مستلقياً بكامل ملابسه فوق سريره. أغلب الظن أنه لن يعود إلى موطنه عند ضفة النهر. سيبقى في فيلابيه. سيجدون له مكاناً صغيراً في المقبرة، وعوضاً عن النهر سوف يسمع صخب السيارات على الطريق العام. هل لهذه الأشياء أهمية؟ في القطار الخالي في تلك الساعة، كنت أنظر إلى الليل يهبط عبر الزجاج الوسخ. أظن أنني كنت أفكر بماجدة أكثر مما أفكر بالحاج. شعرتُ بالغثيان فوق شفتي. إذ لم أكن قد أكلت أو شربت شيئاً منذ الصباح.

قبل الدخول إلى باريس، علقت في فخ المفتشين. عادة أراقب بشكل جيد وأعرف كيف أنزل في اللحظة التي يصعدون فيها، ولكن في ذلك اليوم نسيت نفسي. كنت في حلم، متراخية كمن لديه ألم شديد. ربما كشفوني من قبل. عندما رأيتهم كانوا فوق رأسي مباشرة متجاهلين الركاب الآخرين. كان هناك صبية غجر، أولئك الذين التقيتهم أول مرة مع خوانيكو. أطلقوا سيقانهم للريح وهم يشيرون لهم بأصابعهم، ولكن المفتشين يبحثون عني فقط. في البدء كانوا لطفاء إلى درجة التصنع.

ـ آنستي، ليس معك جواز سفر، من فضلك أظهري بطاقة الهوية.

وإذ قلت لهم إنني لا أملك واحدة أولاً، وحتى لو كنت أملكها فليس لهم الحق بطلبها مني، لذا أصبحوا أقل لطفاً.

ـ في هذه الحالة، سوف تأتين معنا إلى مركز الشرطة...

كانا يشكلان ثنائياً غريباً، أحدهما طويل وقوي، له ذقن مزدوجة وشارب صغير أشقر، والآخر قصير وأسمر هيئته عصبية وله لهجة أهالي تولوز. تأبط كل منهما بذراعيّ وجعلاني أسير داخل القطار من عربة إلى عربة حتى العربة القاطرة. أجلساني بينهما فوق مقعد صغير وقاسٍ بالقرب من الباب. قلت لهما إنهما يرتكبان خطأً باستخدام القوة وما كان يجدر بهما اللجوء لها لكن ذلك تركهما لا مباليين. القطار يتابع طريقه نحو باريس والظلام قد حلّ. ظل حارسيّ يتحدثان من فوقي كأنني لم أكن هناك، يتبادلان أخبار المكتب، يرويان الإشاعات. كان باستطاعتي جعلهما يرقّان لو رويت لهما موت جدي فهما بسبب ذلك نجحا بمباغتتي، لكنني لم أشأ أن يشفقا علي لأي سبب كان، ولا من أجل أي شيء في العالم. ما أردت استغلال الحاج للحصول على منّة من هؤلاء المرتزقة.

في أوستيرليتز قاداني إلى مكتب صغير وراء الكوى. تركاني أنتظر ساعة بحالها، وطوال هذا الوقت بقيا أمام الباب يدخنان السجائر ويتبادلان القال والقيل. كنت أفكر بأنني حقاً سمكة صغيرة بالنسبة لرجلين في غاية البأس ببدلتيهما وهراوتيهما ومسدسيهما الأوتوماتيكيين. ولكن ربما كانا يفكران بأن لا شيء له معنى في الحياة، فهناك أناس تحب الإيمان بذلك.

وصل رئيسهما، أراد استجوابي. وقف قريباً من وجهي وراح يصيح:

ـ ما اسمك؟

ـ ليلى

ـ أنت قاصر؟

ـ لا أعرف، نعم، لا، ربما.

ـ أين أهلك؟

ـ في أفريقيا.

هنا، بدأت الأمور تسوء. كان الرئيس رجلاً قصيراً عديم الشأن يدعى السيد غاستو، هذا على الأقل ما تمكنت من فك حروفه بالمقلوب فوق مغلف موضوع فوق مكتبه.

ـ ليس معك أوراق؟

كان التحدث دون تكلف، بضمير المخاطب المفرد دليل عصبية. وكي أهدّئَ اللعبة خطرت على بالي فكرة جيدة.

ـ تستطيعون استدعاء محاميّ؟

ـ تريدين صفعة؟

لم تكن وسيلة ناجحة لتهدئتهم. فسلّمت بالأمر.

ـ حسن، ليس محاميّ في الحقيقة، إنما السيدة التي تعتني بي. مدرّسة، ما رأيكم؟

راقت لهم الكلمة. أعطيت اسم وهاتف بياتريس. صحافية، مدرّسة، لا فرق كبير. المهم أنني لم أكن أريدهم أن يصلوا إلى شارع جافلو. فلدى نونو وحورية ما يكفي من المشاكل المماثلة. لحسن الحظ أنني منذ وصولي إلى باريس فعلت كما يفعل الكوماندوس في الأفلام الحربية. نزعت عني كل ما يمكن أن يكشف هويتي.

جاءت بياتريس في سيارتها الإنكليزية الصغيرة. دفعت كل شيء، ثمن البطاقة والغرامة، ونالت أيضاً توبيخاً.

كان المطر ينهال وماسحة الزجاج تئز على واجهة السيارة كأنها تمطر رمالاً. فقلت لبياتريس:

ـ لا يمكنني العودة إلى بيتي.

نظرت إلي لحظة، كانت تبحث عن رد.

ـ بإمكانك المجيء والنوم في بيتي إذا أردت. ريمون لن يقول شيئاً.

ما عاد أي شيء يسعدني. وضعتُ رأسي على كتفها. كنت في ذلك المساء بحاجة للإيمان بوجود أحد يخصني، صديقة، أو أخت كبرى.

أقمت وقتاً طويلاً عند ريمون وبياتريس. أظن بأنني كنت متعبة جداً. لم أكن واعية لذلك، لأنني كنت أذهب وآتي، وحدثت كل تلك الأمور، طفلة حورية، نونو، الدروس، التسوق، وسيمون التي كانت عندنا، والحاج الذي مات. الآن لم تعد لدي القوة مثلما هي الحال حين رحلت من لدنّ السيدة وأخذني نونو إلى شارع جافلو.

بقيت عشرة أيام أو ربما شهراً لا يمكنني الجزم. كان الجو في الخارج بارداً، قاتماً، وربما كانت تثلج. كنت أبقى مستلقية فوق الفراش، في الحيز من الصالة المخصص للمكتب، إذ إن بياتريس أخذت حاسوبها الخاص واستقرت في غرفة نومها. الكتب في كل مكان، داخل كراتين، فوق الرفوف. كنت أمضي وقتي في القراءة لا على التعيين، روايات، كتب تاريخ، وحتى أشعار، لمالابارت، وكامو، وأندريه جيد، وفولتير، ودانتي، وبيراندييللو، وجوليا كريستيفا، وإيفان إيليش. الكل متشابهون، الكلمات نفسها، الصفات عينها، لم يؤثروا بي، ولم يؤلموني. كنت أفتقد لفرانز فانون. حاولت تصور ما كان سيقول، ما كان سيتحدث عن الدين، ضحكته

الساخرة أمام هذر كهذا. كان الشعر غريباً، لا يعنيني، ليس لي. في الوقت ذاته كنت أحب جمع الكلمات. كلمات لأغنيها، أطلقها داخل الغرفة، أصغي إليها تتقافز، تتحطم إلى ألف قطعة أو على العكس، تسقط مسطحة فوق الأرض مثل فاكهة رخوة. كان لدي دفتر مفتوح أسطر عليه كل يوم كلمات أعثر عليها، أو مقتطفات عبارات:

مناخ

ظلال

طير القيثارة

قبّرة الفجر

شعاع ضوء

تضرب الأمواج بعنف

وميض السماء.

لم يكن ذلك يعني شيئاً. كانت بياتريس تعود نحو الساعة السادسة، تفتح الباب، تُدخل معها نفحة من المدينة، ضجيجاً، دخاناً. وكان ريمون يأتي لاحقاً، يحضر معه النبيذ. كنا نتعشى نحن الثلاثة في المطبخ، معجنات بالبيستو وجبنة. كنت أحب جداً المكوث معهما. كانا مُطَمئنين، واثقين وفي غاية اللطف.

كنت أؤجل لحظة الحديث عن ماجدة. أقول لنفسي إنني إذا ما لفظت اسمها فليس أمامي سوى الرحيل. سيكون هناك مرة أخرى الشارع المفتوح، الناس الذين يدفعونك، وصخب السيارات ومدخل شارع جافلو مثل سرداب يؤدي إلى مركز الأرض.

كانا يتحدثان عن مهنتهما. بياتريس عن الصحيفة وتكشيرات رئيسها، عن مكالماتها الهاتفية ومشاكل لا أفهم منها شيئاً، كأن كل هذا العالم كان لغزاً. وكان ريمون يتكلم بكلمات أحادية المقطع. فهو

يعمل تحت التمرين في مكتب للمحاماة في سارسيل أو في فلوري ميروجي، بعيداً، يهتم بقضايا الآخرين.

حاولت تخيل ماجدة عندهما، ماجدة في الغرفة الصغيرة المعاد طلاؤها بالوردي، سرير جميل أبيض كلياً، والثريا الموسيقية التي تعلق فوق الأطفال في هذه البلاد كي تعلمهم الصبر. ماجدة تركض نحو المطبخ، تمد ذراعيها الصغيرتين نحو ريمون وتصيح: «دادا!» وهو «جولي!» أو «رومي» على كل حال، ليس وارداً معرفة اسمها الحقيقي. وذات يوم ربما، ستكون قد كبرت، وسأكون بالنسبة إليها مثل خالة وسوف أخبرها الحقيقة. «سأقول لك اليوم اسمك الحقيقي، ذلك الاسم الذي ولدت معه». أو ربما يكون خوانيكو. سوف تصادفه في ممر المترو، في ريومور سيباستوبول، وسيناديها، سيصيح: «ماجدة، ابنة عمي!».

سمّوها كلير، لأنه اسم والدة ريمون. وجوانا، لأن بياتريس تحب ذلك الاسم. كانت تغني: «جيم هوب، جوانا». كان عمرها خمسة عشر عاماً أثناء حرب فييتنام مثل آخرين كثر.

لم أعرف أبداً كم دفعا. بقيت خارجاً في الهواء، أصغي إلى صخب نهر السيارات حول الجزيرة. ثمة غربان هناك في السماء، مثل يوم مولدي، لكنها لم تكن تصرخ من الرعب.

حدث كل هذا آنذاك. ربما كان السبب رحيل حورية إلى بيت السيد يو. عندئذ بقيت وحيدة. لكسب القليل من المال، وظفتني جمعية للصم والبكم كي أجمع الصدقات وأضع بطاقة على طاولات المطاعم مع حمالة مفاتيح. كنت آخذ حذري جداً حين أضع حمالات المفاتيح في المطاعم، أو حين أذهب لسماع موسيقى مترو ريومور. لم أكن أمر في المكان ذاته مرتين، أتجنب الممرات الخالية، والأبواب الرئيسية، ولا أنظر إلى أحد في عينيه.

كان بوسعي تمييز زمر الزعران من بعيد. فهم يؤلفون مجموعات صغيرة في الشارع، ناحية إيفري، أو ناحية ساحة جان دارك. ما إن ألمح مجموعة حتى أعبر الشوارع بين السيارات وأضيع في الجانب الآخر. كنت سريعة جداً وماهرة، ولا أحد يستطيع اللحاق بي. أحياناً كنت أشعر أنها الأدغال أو الصحراء وأن هذه الشوارع أنهار، أنهار كبيرة مدوية تترامى فيها الصخور، وأنا أندفع راقصة من صخرة لصخرة. كانت أصوات الأبواق وهدير المحركات تأتي من الأرض وتصعد عبر ساقيّ وتملأ داخلي. إلى أن ظهر لي ذلك الرجل الذي لم أره قادماً في الميدان الكبير الذي كنسته الريح وأضاءته مصابيح الشوارع، رجل مثل كل الناس، بمعطفه المطري ووشاحه، يداه في جيبيه، رمادي السحنة قليلاً، وأنا كنت منهمكة بعدّ المال الذي جمعته من الفييتناميين، مائة أو مائة وخمسون فرنكاً، في بضعة دقائق، فقط بوضع حمالات المفاتيح على طرف كل طاولة، مع بطاقتي الخاصة بالصم والبكم.

في اللحظة الأخيرة رأيت نظرته وخفت لأنني تعرفت على نظرة عبل القاسية الثاقبة، حين دخل إلى مغسلة الثياب. ولكن الأوان كان قد فات. أمسك بي بقبضتيه، شدني بقوة غير معقولة، دون أن يتفوه بكلمة. لا شك أنه كان يتبعني، ثم قام بجولة على المخازن ليعود ويعثر علي هنا تحديداً حيث كان يريد، في التجويف ما بين جدار المبنى البرجي والمخازن المغلقة.

أردت الصراخ، لكنه ضغط بقبضته فوق بطني وضربني بشدة، كمن يريد أن يقسمني إلى اثنتين. انقطع نَفَسي وهويت مقطوعة الأوصال. كان الأمر غريباً، لأنني في الوقت ذاته كنت أدرك جيداً ما يحصل لي، لكنني كنت بلا حول ولا قوة كأنني في كابوس. فك أزرار بنطاله الجينز بإحدى يديه، كان قوياً وماهراً، وباليد الأخرى راح يمسك بي وأنا منقلبة على جدار التجويف. أذكر أنه كانت تنبعث منه رائحة بول، رائحة مريعة تجتاحني كلياً وتشعرني بالغثيان، ثم

أخرج ذكره وحاول الولوج فيّ، دافعاً بجذعه دفعات قوية وتنفسه يحشرج ويتردد في زاوية المبنى.

لا أعرف كم من الوقت دام ذلك، لكنه بدا لي أزلياً، تلك اليد الضاغطة على صدري، وتلك الدفعات في بطني وأنا لا أتمكن من التفكير أو التنفس. شعرت كأن الأمر لن ينتهي أبداً. ثم تراجع الرجل. أظن أنه لم ينته لأنني ضيقة جداً بالنسبة إليه، أو ربما أزعجه أحد. رحل بسرعة كبيرة وبقيت داخل الزاوية، كنت متجمدة، واهنة وأنزف فوق الإسمنت. نزلت السلم حتى الشارع، وعدت إلى الكهف، سخنت غلاية المياه كي أغتسل في مغطس طفلة حورية. كان كل شيء صامتاً، مكتوماً. شعرت بأنني صماء في الأذنين الآن. لم أعد أدري أين أنا. أظن أنني تقيأت في المرحاض في نهاية الممر. صرخت، فتحت الباب الحديدي وصرخت في النفق، زئيراً كي يصعد حتى أعلى الأبراج، لكن لم يسمعني أحد. كانت هناك محركات الهواء التي تقلّع الواحدة تلو الأخرى كاهتزازات طائرة، تطغى على كل الأصوات. فكرت بسيمون. شعرت برغبة شديدة لرؤيتها وأن أكون إلى جانبها وهي تردد قفلة موسيقية. لكنني كنت أدرك أن الأمر مستحيل. أعتقد أنني في تلك الليلة أصبحت راشدة.

كان أمراً حسناً أن أبقى بعيدة عن كل شيء، عند بياتريس. مضى وقت طويل لم أكن فيه محمية، دون التفكير في اليوم التالي دون قلق. أقوم فقط بما أرغب داخل الشقة، أرتب الأشياء بهدوء وأنا أراقب الطفلة مثلما كنت أفعل عندما عادت حورية من المشفى، مع فارق هو أن هنا نورٌ وشمس والجو لطيف، لا يُخشى من شيء. كانت نافذة الصالة تطل على فناء داخلي صغير حيث ينبت اللبلاب وعصافير الدوري تملأ الأغصان. كما وجدت ذات صباح عصفوراً على حافة النافذة، مُغمى عليه وريشه مشعث. سميته هاري، أخذت من الخزانة علبة حذاء وصنعت من القطن عشاً ناعماً ووضعته في غرفة الطفلة بجانب المهد. كان كل ذلك حلواً ووادعاً كأن لا شيء

بشع في باقي العالم، ما من زعران، ما من رجال شرطة، ما من فتيات مغتصبات، ما من عجائز يموتون من الجوع داخل أكواخهم القذرة بنوافذها المغلقة. بعد ذلك حضّرت رضّاعة كلير (أو جوانا، كنت أفضل الاسم الثاني) وأخذت بضع نقاط من الحليب الساخن كي أمزجها بفتات الخبز.

داخل علبة الحذاء كان هاري منفوشاً لكن ريشه بدأ يجف. نظر إلي كيف أضع أمامه كريات فتات الخبز دون أن يتحرك، كانت عينه السوداء وحدها تلمع، ثم أعطيت الرضّاعة لماجدة (بالتأكيد لم يكن بوسعي نسيان اسمها الحقيقي). وفي اللحظة التي انتهت فيها الطفلة بدأ العصفور يزقزق وينتفض داخل العلبة.

لا أعلم فيما إذا تمكن من أكل إحدى الكريات، لكن دفء الغرفة الصغيرة الهانئ أيقظه في الحال، وبعد لحظة طار وهو يصيح وبدأ يضرب على زجاج النافذة. في الجانب الآخر بين الأغصان، راح رفاقه الصغار يطيرون في كل الاتجاهات وهم ينادونه. حالما فتحت النافذة فرّ هاري بلمحة وشاهدته يختلط مع عصافير الدوري الأخرى، كانوا يطيرون مثل زوبعة أوراق في الريح، وبعد برهة اختفى هاري معهم.

بينما كنت أعطي الرضاعة لجوانا شاهدت المفتشين في الأسفل. كانوا يلبسون مثل كل الناس، معطفاً مطرياً، وحذاء خفيفاً، لكنني تعرفت إليهم بالطبع. كان لدي غريزة تجاه هؤلاء الناس، إنهم يتطلعون ناحية نوافذ المبنى كأنهم يحاولون الرؤية من خلال الستائر. بعد ذلك دخلوا، لا شك أنهم طرحوا الأسئلة على البواب البرتغالي الذي لم يكن يحبني، فدقوا الجرس دون توقف. جعل الرنين جوانا تزعق وراح يتردد داخل رأسي مثل أزيز حشرة.

لم أتحرك إلى أن رحلوا. كنت منفعلة. ما عاد بوسعي البقاء دقيقة واحدة داخل هذا البيت ومع ذلك لا يمكنني ترك جوانا تصرخ

وحيدة في مهدها. بحثت عن رقم بياتريس في صحيفتها. كنت مضطربة جداً لدرجة أنني وضعت السماعة على أذني الصماء، لم أسمع شيئاً مما يقال. كنت أردد الرسالة مثل ببغاء: «الرجاء بياتريس، عودي فوراً، من فضلك، عودي فوراً، الأمر عاجل، من فضلك بياتريس». في اللحظة التي كنت أهم فيها بإغلاق الباب رن جرس الهاتف. وضعت السماعة على أذني السليمة، سمعت صوت بياتريس. «ليلى، ماذا يجري؟»، فقلت لها أن تعود لأنه علي الرحيل. كنت هادئة تماماً حينها. أعدت السماعة قبل أن تطرح أسئلة أخرى. فضلاً عن ذلك كانت جوانا قد غفت. حينئذ مشيت في الشوارع نحو أوستيرليتز.

عدت إلى شارع جافلو. عندما مشيت في النفق الطويل حتى باب المرآب حيث كتب بالدهان الرقم 28 انقبض صدري. شعرت أنني لن أتمكن من العيش هنا بعد الآن، وأن حياتي هي في مكان آخر، في أي مكان، وعلي الرحيل. كان خوانيكو يقول أشياء مماثلة: «أتعلمين، أحياناً يجب أن أهرب، الأمر أقوى مني. ربما أعود لاحقاً، ولكن إذا بقيت أقتلك، أقتل نفسي». أدركت الآن حقيقة ما كان يعنيه.

لم يتغير شيء داخل الشقة. كنا نختنق بسبب جهاز التدفئة الذي يضخ الغاز السام حتى الموت. ولاحظت أن نونو قد أحضر أجهزة جديدة، أجهزة تلفاز، فيديو، شبكة تلفزيونية. كان لديه دراجة نارية جديدة أيضاً، حمراء لها مقعد من جلد الحمار الوحشي. لا أعرف لماذا شعرت كمن يدخل إلى منزل أطفال وهذا ما أعطاني الرغبة بالضحك وفي الوقت نفسه بالبكاء.

كان هناك فوق السرير مغلف باسمي. لم أتعرف على الكتابة، فقد كانت أنيقة وبأسلوب قديم. كتب فقط: «إلى الآنسة ليلى. باريس»

فتحته، لم أفهم فوراً. بكل بساطة، كان هناك جواز سفر فرنسي باسم مريم مافوبا.

كان القبو خالياً. لم يعد هناك أثر لا لحورية ولا لباسكال مليكة. لم يعد المهد هنا، وهذا ماأثر بي، مع أنني أدركت في أعماقي أنها رحلت لصالحها ولن تعود.

كان هناك رسالة داخل جواز السفر مكان الصورة. عرفت خربشات حكيم. كان يَصْعُب علي دائماً قراءة دروسه. ما كان يقوله في الرسالة سهل الفهم، مع ذلك كنت أقرأ وأعيد القراءة دون أن أفهم.

عزيزتي ليلى:

قبل أن يرحل جدي وضع لك جواز السفر جانباً. كان يقول بأنك مثل ابنته وأنت أجدر بالحصول على الجواز للذهاب أينما تريدين مثل كل الفرنسيين لأن مريم لم يكن لديها الوقت لاستعماله. افعلي ما تريدين. بالنسبة للصورة، تعرفين جيداً أن السود كلهم متشابهون بالنسبة للفرنسيين.

كنت أود رؤيتك قبل الرحيل. قررت أخذ الحاج إلى وطنه. على كل حال لدي قرض في المصرف من أجل دراستي سيفيدني في هذا الأمر بالتحديد، من المؤسف فقط ألا تكوني معنا للذهاب إلى أرض موطن جدي في يامبا. ولكن الآن بما أن لديك جواز سفر، ربما ستتمكنين من الذهاب ذات يوم إلى هناك. وسوف أشرح لك أين قبره. أقبّلك.

حكيم

حين فهمت، شعرت بعيني تمتلئان بالدموع وهذا ما لم يحدث معي منذ موت لالا أسمى. لم يسبق لأحد أن قدم لي هدية مماثلة، اسم

وهوية. فكرت بشكل خاص بالكهل الأعمى الذي كان يمرر ببطء أطراف أصابعه الواهنة فوق وجهي وجبيني وخدّي. ولا مرة أخطأ الحاج. كان يدعوني مريم ليس لأنه فقد صوابه، بل لأن كل ما كان يود هو إعطائي، اسماً، جواز سفر، وحرية الرحيل.

12

عرفت أن الربيع ليس بعيداً حين بدأت تزهر أشجار المركز التجاري. وهي أشجار صغيرة غريبة زرعها الفييتناميون، أشجار خوخ وكرز ودراق قزمة تتغطى بزغب أبيض أو وردي. كانت السماء ماتزال رمادية وباردة، لكن الأيام تطول وتلك الثمرات السريعة الزوال تشعرني بالتحسن.

كان قد مضى أسابيع لم أسمع فيها أخباراً عن نونو أو عن أحد. لم أعد أذهب إلى محطة ريومور سيباستوبول لسماع الموسيقى الجامبية. اتصلت بسيمون ولكن لم يردّ على المجيب الآلي سوى صوت الدكتور جوايو، صوت لبق وكريه يشعرني بالقشعريرة. لم أترك اسمي أبداً. أحياناً في الليل، وأنا وحيدة في القبو، كنت أسمع تكتكة الديزل أمام الباب فيخفق قلبي بقوة من شدة خوفي، لكن هذا كان في مخيلتي.

بعد ظهر أحد الأيام عاد نونو. ما كدت لأتعرف إليه. كان حليق الرأس، نظرته جانبياً مضحكة، قلقة، ما كنت أعرفها لديه. حضّرت له ليأكل، كريب الدجاج الذي يحبه، تفاح بالبندق، وخبز بالشوكولا. ظننت أنه سيحكي لي عما فعل حيث كان، لكنه لم يقل شيئاً. كان يأكل بسرعة، يشرب جرعات كبيرة من الكولا. إنها المرة الأولى التي أراه فيها حليقاً بشكل سيء، وبره ينتصب فوق خديه وذقنه وشفته العليا.

ـ هل كنت في السجن؟

لم يجب. ثم أجاب بإيماءة من رأسه: نعم. وما إن فرغ من الطعام حتى استلقى على فراشه دافناً رأسه داخل ذراعيه. غفا في الحال.

كنت بحاجة لكي أشعر بدفئه. مضت أيام وأنا وحيدة في القبو دون التحدث مع أحد. أسمع فقط الموسيقى من مذياعي ذي البطاريات. نمتُ إلى جانبه، وضعت ذراعي حوله ولم يستيقظ. بقينا هكذا لساعات دون حراك. كنت أصغي لتنفسه، أحاول أن أحزر أين رحل خلال كل ذلك الوقت فقط باستنشاق رائحته من عنقه، من ظهره. حين استيقظ مارسنا الحب، بنعومة كما في المرة الأولى. قبل ذلك ذهب ليحضر واقياً من جيب سترته. كان يسميه قبعة. هو من أراده وليس أنا. أظن أنني لم أفكر بذلك، لا بالمستقبل، ولا بالأطفال، ولا بالمرض. بعد ذلك ذهبنا سوياً إلى سطح البرج عبر الطريق السري، المصعد حتى الطابق الحادي والثلاثين، ثم باب مانع الحريق، وسلم المطافئ. ظهرت السماء فوقنا مربعات زرقاء كنافذة مطلة على اللانهاية. فأدركت في هذه اللحظة أنه علي الرحيل.

فوق سطح العالم كانت الريح تصفر في صواري الهوائيات. رغم ذلك بدا الصوت غريباً، هنا وسط هذه المدينة النائية عن البحر. مع ذلك وصل هدير السيارات الخافت في جادة إيفري، وفي ساحة إيطاليا، وأبعد من ذلك أيضاً، فوق الأرصفة أو فوق أحياء المدينة البعيدة، موجات شديدة الرقة، كالبحر أثناء المدّ. فجأة شعرت بفراغ، رغبة تتصاعد في داخلي وتؤلمني. كان ذلك بسبب صوت البحر، فقد مضى زمن طويل لم أسمعه، وكان الأمر مدوّخاً. مشيت حتى حافة السطح، منحنية من الريح، كأن بوسعي رؤية البحر هناك. أمسك بي نونو. لم يكن يفهم:

ـ ماذا تفعلين؟ أنت مجنونة؟

فكرت:

ـ ربما يكون الأمر على هذا النحو حين يرمون بأنفسهم من

النوافذ، إذ يظنون أن البحر في الأسفل. تمسكتُ به. عانقني، ضُمَّني بقوة، نونو، أنا أتألم.

أجلسني مستندة على مكعب محرك المصعد، بمنأى عن هبات الريح. كنت أرتجف من البرد والتعب. خلع نونو سترته الجلدية المصوّفة الجميلة، وضعها على كتفي، وقال ببساطة

- خذي ياليلى، أعطيك إياها، هكذا تفكرين بي دوماً.

كان وجهه أملس ومسطحاً، رأسه ضخم قليلاً، شبيهاً بقزم. لكن عينيه شديدتا السواد ووادعتان. فكرت أنه فهم بأنني سأرحل. ربما عرف قبلي ولهذا عاد.

كل شيء سوف يتغير الآن. لحظة على وشك النهاية. كنت على السطح فوق الطابق الثاني والثلاثين، في أعلى السلم، أصغي إلى الريح وعيناي تدمعان لشدة زرقة السماء، كما في المرة الأولى التي أحضرني فيها نونوإلى هنا.

فوق الطاولة المحمولة على قائمتين خشبيتين حيث أتممت واجباتي في الفلسفة للأستاذ حكيم، كانت رسالة وكيل الدائنين تقول إنه تم الكشف عن قرصنة في عداد المياه وعداد الكهرباء يشير إلى سرقة كمية لا تفسير لها. التحقيق وشيك. سيتم الكشف عن المذنبين ويتم إبعادهم ومعاقبتهم كما يقتضي. تركتُ الرسالة بشكل تبدو فيه للعيان كي يعلم نونو بالأمر. صفقت باب الجديد رقم 28 بقوة كبيرة لدرجة أن الصوت لاريب تردد حتى قمة البرج.

13

ركبنا القطار إلى نيس. أقول ركبنا إنما في الحقيقة أنا وحدي كنت أسافر ببطاقة. فقد صعد خوانيكو معي كمن يودعني وانسل داخل المقصورة. جلس في عربة الأمتعة. فعل ذلك كي يلهو لأنه في الواقع لم يكن بحاجة لذلك. فهو يعرف كيف يخدع المراقبين، كانت تلك مهنته.

لم يكن داخل المقصورة سوى ثلاثة أشخاص، اثنان في الأسفل وأنا في السرير الأعلى. مكثت وقتاً طويلاً أقف في الممر، أدخن السيجارة تلو الأخرى، وأتفرج على الأنوار تهرب إلى الخلف. نزل خوانيكو عن مجثمه. لم يقل شيئاً. كانت علامة الضربة التي تلقاها على خده تتحول إلى الأزرق المسود. حين عرفت أن زوج أمه ضربه، قررت أن يرحل معي.

لا أدري فكرة مَنْ كانت أولاً. ربما هو، لكثرة ما كان يردد: «سأرحل ذات يوم». وها قد أتى ذلك اليوم.

حدثني عن خاله، أخ لأمه مقيم في نيس، شخص اسمه رامون أورسو. كان خوانيكو بحاجة لشخص فقط كي يصعد معه إلى القطار، ومعي كان الأمر سهلاً. في نهاية الأمر سوف يرحل. سيبحث عن شاحنة ثقيلة في رونجي أو في إحدى محطات الخدمة.

أثر بي الرحيل كثيراً. مضى وقت طويل وأنا في باريس، كنت أشعر أن سنوات وسنوات انقضت، وما عدت أتذكر متى وصلت إلى

أوستيرليتز مع حورية. جرت أحداث كثيرة. كنت أشعر بأنني عجوز الآن، ليس كهلة بالتحديد إنما مختلفة، أثقل، ولدي خبرة. ما عدت أخشى الأشياء نفسها الآن. صار بوسعي النظر في عيون الناس مباشرة، وأن أكذب عليهم، ومجابهتهم حتى صار بوسعي قراءة أفكارهم من عيونهم، أحزرها، وأجيب قبل أن يتسنى لهم الوقت للسؤال. صار بوسعي أيضاً الصياح كما يجيدون. لكن لن يكون بوسعي بعد الآن أن أفعل ماكنت أقوم به في الماضي، أن أسرق من مخزن كبير، أن أتسلل وراء أحد وأوحي أنه من عائلتي، أن أتبع شخصاً في الشارع وأقول لنفسي إنه حبي الكبير.

أدركت أنه ليس مارتينال، أو عبل أو زُهرة، أو السيد دولاهي هم الخطرين، بل ضحاياهم لأنها راضية. أدركت أنه لو كان للناس الخيار ما بينك وبين سعادتهم، فلن تكون الرابح.

في ليون، كنت تعبة جداً. صعدت إلى السرير الأعلى وأنا أتلمسه. كانت السيدة ذات اللباس الوردي تنام في السرير الأسفل، وفي السرير الذي يليه، شاهدت رأس الإسبانية المتكور يلمع على ضوء المحطة. سميتها الإسبانية بسبب شعرها وعينيها الشديدتي السواد. ظننت أنها ستقول شيئاً لكنها اكتفت بالتفرس في وجهي دون أن يرف لها جفن ودون أي ابتسامة. تمدد خوانيكو فوق السرير وكان يشخر قليلاً. كانت تفوح منه رائحة العرق والملابس الوسخة بقوة. بدا الأمر كمن ينام مع متشرد. دفعته نحو الحائط، لكن الاهتزازات راحت تقربه باستمرار. غفوت في نهاية الأمر، نوماً ثقيلاً تقطعه ومضات الأنوار وطرقات العجلات فوق سكة الحديد.

خوانيكو هو الذي أيقظني من سباتي. كان قد نزل دون أن يحدث صوتاً، تعلق بالسلم مثل قرد، قال بالقرب من أذني كي لا يضطر للصياح:

ـ تعالي، تاتا ليلى، تعالي وشاهدي!

خرجت متلمسة. كانت المقصورة مظلمة، الجو فيها حار ورائحة أنفاس تعبق بها. داخل الممر كانت النافذة ترسم مثلثاً يعمي الأبصار. أبهرتني رؤية المنازل والأبراج. كان البحر يلمع تحت الشمس. القطار يتعرج على طول الساحل، يعبر الأنفاق ويخرج منها والبحر مايزال هناك، يلمع تحت الشمس بزرقة شديدة جعلت عيني تغرورقان بالدموع.

راح خوانيكو يرقص في مكانه. فهذه هي المرة الأولى التي يرى فيها البحر. حين قدم من رومانيا أقلّهم القطار هو وأمه وأخوته، من تيميسوارا مباشرة، دون توقف، باستثناء عبور الحدود عبر الحقول، بين ألمانيا وفرنسا، ثم الالتحاق بمخيمات الغجر.

بين الحين والحين كان يلتفت إلي وابتسامة عريضة تضيء أسنانه على وجهه الداكن كي يقول:

ـ أترين؟ أترين هذا؟

نزل الناس تباعاً في كل تلك المدن الساحلية، أغاي، سان رافاييل، كان، أنتيب. كنا لوحدنا داخل العربة قبل الوصول إلى نيس. كان القطار يسير على طول شاطئ حصوي واسع يوازيه طريق تسير عليه السيارات بالسرعة نفسها. ثمة أمواج راحت تتلاطم مواربة. كانت الشمس محرقة عبر الزجاج. شعرت كأنني أستفيق، بالتحديد أخرج من حلم طويل كما نخرج من مرض.

دون أن نغادر أمكنتنا في الممر تناولنا فطورنا الذي أحضرته من باريس، برتقال من المغرب، وشطائر خبز محشوة بقالب من الشوكولا. لم يسبق أن تناولنا الجامبون أبداً، أنا لأنه كان محرماً، وهو لأنه كان يقول إنه ليس غذاء صالحاً للإنسان. ذات مرة كنا نتناقش في الأمر، فأضاف قائلاً، ولا أعلم من أين أتته هذه الفكرة، إنه من السهل إطعامك لحم بشري بالقول لك هذا جامبون. وضرب إليته صفعة ليريني ما معنى ذلك.

كانت نيس جميلة كما تخيلتها. مدينة بيضاء رائعة، فيها قباب

وأسطح بصلية الشكل، الكثير من الحمائم والعجائز، وجادات واسعة تحفها أشجار الدلب، مزدحمة بالسيارات حتى على الأرصفة. فيها الكثير من العرب ومع ذلك لاتشبه أفريقيا، ولا حتى إسبانيا.

كانت مدينة للمرح، للحلم، للنزهة، كما كنا نفعل نحن الإثنين، ممسكين بأيدي بعضنا البعض كأخ وأخت.

كان الناس ينظرون إلينا باستغراب بسبب مظهرنا ولباسنا، أنا بسترة نونو ذات الحواشي، والجينز، والحذاء الرياضي، وخوانيكو دائماً بأسماله الواسعة جداً، قمصانه الـ تي شيرت الثلاثة المختلفة الألوان التي يلبسها الواحدة فوق الأخرى، أطولها تحت الكل، ثم الأصغر، لكن أوسعها كانت مخططة بالأزرق والأبيض والأحمر والوردي فوقها، شعره المجعد الأسود، ووجهه الهندي النحاسي. لم نكن نملك شيئاً، بلا حقائب، أنا معي الحقيبة الشاطئية فقط، وتحوي مذياعي العتيق، أغراض نسائية صغيرة، وكتابي العزيز لفرانز فانون.

كان الجو في غاية الحلاوة. مشينا طول النهار على غير هدى، على طول الشاطئ، في شوارع المدينة القديمة، وحتى الروابي العارمة بالجنائن القديمة. لم يكن خوانيكو يعرف أين يسكن خاله، كان معه فقط اسمه وعنوانه مكتوبان باعوجاج على مغلف، بهذا الشكل:

«رامون

أورسو

مخيم اللاجئين في كريما».

عند الظهيرة أكلنا أيضاً الخبز والشوكولا على الشاطئ الحصوي الكبير، تحيط بنا سحابة من النوارس. كان خوانيكو مثل

جرو صغير، يركض بخط متعرج على طول البحر، يتدحرج فوق الحصى وسط النوارس، ويقوم بألف لعبة طائشة على هذا الشكل. لم يسبق لي أن رأيته هكذا. صار له فجأة هيئة طفل حقيقي، كان حراً، المستقبل لم يعد له وجود. وأنا أيضاً، ماعدت أفكر بما سنفعل، أين سننام، ما معنا لنأكله هذا المساء. رميت للنوارس آخر قطعة خبز كبيرة، كما أنها كانت بائتة جداً. لو أن بوسعي لرميت حقيبتي الشاطئية الزرقاء في البحر، بكل ما تحتويه. ولكن لا الراديو الصغير ولا كتاب فانون منعاني من ذلك، فالراديو ليس سوى علبة موسيقى، والكتاب يمكن استبداله. على الأرجح، المغلف الذي يضم جواز سفر مريم، والرسالة التي كتبها لي حكيم قبل أن يحمل جده إلى يامبا على ضفة فاليميه.

أمضينا كل شهر أيار في نيس، دون أن نعمل شيئاً سوى الذهاب إلى المزبلة صباحاً، وإلى الشاطئ بعد الظهر والتسكع في شوارع المدينة القديمة.

في البداية، كان الأمر صعباً قليلاً في المخيم، فهو بعيد عن كل شيء، شمالاً، في الوادي، أبعد من الضاحية وأبعد من دعامات الطريق العام. كان مثل دوار تبريكه، عدا أن هذا كان عند التلال، بعيداً عن البحر، تلال وعرة، جرداء، تعصف فيها الريح نفحات، وللغبار طعم الإسمنت.

شُيّد المخيم في مكان أخفض من المزبلة، سرادق من كتلة أسمنتية واحدة متوازية السطوح، كُسيت بتلبيسة وردية اللون، سطوحها قرميدية على الطراز البروفنسي. كانت بمجملها خمسين بيتاً صغيراً، وأتصور يوم الافتتاح، بحضور ممثل المحافظ ورئيس البلدية والمدير العام لصندوق السكن الاجتماعي، لا شك أن المنظر كان جميلاً، يصلح للتصوير، بالأخص إذا لم تظهر في إطاره

أهراءات المزبلة. ولكن بعد بضع سنوات غدت مدينة أكواخ مثل المدن الأخرى. كان سخام أفران محرقة القمامة قد توضَّع فوق الجدران، أما الأوراق وأكياس النايلون فقد شكلوا تزييناً على سياج الشريط الحديدي، وأصبحت الشوارع طرقاً متصدعة وحفراً موحلة.

ما كان جيداً هي المقطورات. فأمام كل بيت كان للغجر واحدة أو اثنتان. يستند بعضها فوق حجر الآجر. أسكننا رومان أورسو في أحدها مع ثلاثة أولاد من عمر خوانيكو وأصغر، مالكو، جورج وإيفا. كنا في المساء نفرش أكياس النوم والأغطية وننام فوق أرضية المقطورة مباشرة متراصين الواحد بجانب الآخر كي لا نبرد.

كان رومان أورسو رجلاً طويلاً قوي البنية، شعره وحاجباه في غاية السواد، يعمل بأجر مقطوع في ورش البناء. كان يتحدث الفرنسية بشكل سيء جداً لكن خوانيكو قال إنه لا يتحدث الرومانية بشكل أفضل. لم يكن يتكلم، هذا كل ما في الأمر. في المساء، حين يعود من العمل كان يجلس على حافة السرير، في الغرفة الوحيدة للمنزل ويشاهد التلفاز وهو يدخن.

لدى رؤيته وصول خوانيكو، لم يبدُ مندهشاً. ربما كان بانتظارنا وقد تم إعلامه. كان رامون أورسو يعيش في البيت الصغير مع امرأة شقراء طويلة، حمراء الوجه، إيلينا. كانت إيفا ابنتها، أما جورج ومالكو فكانا من امرأة أخرى هجرته.

في الصباح وفي وقت مبكر، كنا نذهب مع خوانيكو والصبية إلى مكب النفايات. كان خوانيكو يدعو ذلك «العمل».

كانت الشاحنات القلابة تصل تباعاً إلى صالة الطحن الكبيرة. وكان صبية المخيم هناك في كل الجوانب، وما إن تصبح أكوام القمامة على الأرض حتى يسارعوا مثل الجرذان قبل أن تلتقطها رفاشة الحمولة وترسلها إلى الطاحونة الفولاذية.

سبق لي ورأيت مستودعات للقمامة في تبريكة، لكنني لم أرَ في حياتي واحدة كهذه. كان الهواء مشبعاً بالغبار الناعم اللاذع الذي يخِزُ العيون والبلعوم، رائحة تعفن نفاذة، رائحة موت. كانت الشاحنات تناور في الظلمة، مصابيحها مضاءة، غمازات الرجوع تومض، وتسقط من السقف شلالات من النور راسمة أعمدة داخل الغبار. حين كانت المسننات القاطعة تبدأ بالعمل، تقص قطع الخشب، الأغصان، الرفاصات، كان الصوت يصم الآذان. كان خوانيكو ومالكو وجورج ينبشون الأنقاض ويحضرون لي لقاهم، كراسي عرجاء، طناجر بيد واحدة مبعجة، وسائد مثقوبة، عوارض خشبية مدببة بالمسامير الصدئة، ولكن أيضاً ملابس، أحذية، ألعاب، كتب، أكثر ما يحضره لي خوانيكو هي الكتب. لم يكن ينظر إلى العناوين. يضعها فوق جدار صغير إلى جانبي، بالقرب من مدخل البهو، ويعاود الذهاب راكضاً لاستقبال قلاب جديد.

كان هناك من كل شيء. أعداد قديمة من مجلة «المختار» و«تاريخ» انتهت مدتها، كتب مدرسية من قبل الحرب، روايات بوليسية، أقنعة، مجموعات كتب، خضراء، وردية، حمراء ومذهبة، سلاسل سوداء. كنت أجلس فوق الجدار في وجه الريح أقرأ الصفحات. قيثارة الأعشاب مثلاً: «متى سمعت إذاً للمرة الأولى من يتحدث عن قيثارة الأعشاب؟»، «بالتحديد، قبل الخريف الذي ذهبنا خلاله للسكن في الشجرة، في خريف ماضٍ، لنقل وكما يجدر القول، دوللي هي التي حدثتني عنها، ليس بوسع أحد غيرها ابتكار كلمة مماثلة، قيثارة الأعشاب».

كنت أقرأ أي شيء في جحيم النفايات ذاك، وأشعر أن الكلمات ليس لها المعاني نفسها. كانت أقوى، وترن بديمومة أكثر. حتى عناوين الروايات التي رُميَت بعد قراءتها، «السرعوفة»، «الباب المفتوح»، «الباب الضيق»، وعلى الأخص حين تقفز أمام عينيك إحدى العبارات وتبقى مطبوعة في ذاكرتك مثل: «لماذا نتجه ذات

تُهرس، تُطحن ويتصاعد الغبار اللاذع فوق كل الوادي، ناسجاً بقعة بنية هائلة وسط زرقة الغلاف الجوي. كيف لا يشعرون به في باقي المدينة؟ يرمون نفاياتهم ثم ينسونها مثل برازهم. ثم يعود ذروراً ناعماً كغبار الطلع ويهطل عليهم، كل يوم، فوق شعورهم، فوق أيديهم، فوق حدائقهم المزهرة بالورد. كنا نعثر على كل شيء في المزبلة. ذات صباح جاء مالكو فخوراً جداً. كان يمسك بين يديه لعبة، جملاً من الجلد المنسوج، يعلوه هجّان بزي أحمر وعمامة بيضاء، وسيفه في زناره.

حدثت أيضاً مشاجرة. مجموعة من الإسبان، بعمر العشرين، قمصانهم مزهّرة وتحيط بشعورهم العصابات، شتمونا لأن مالكو وجورج يتحدثان الرومانية. جاؤوا ليشاهدوا ماذا وجدنا، عجلة دراجة، طناجر، قضبان ستائر، سلك حديدي صدئ، قطع صفيح، آلة كاتبة، مظلة سوداء لا عيب فيها، جزمة. نظروا إلى كتبي، روايات تجسس، كتب شعر إيطالي لليوباردي أو لأنونيزيو. أحدهم قلب صفحات الكتب ثم رماها بقرف. أمسكني بحركة من عنقي وحاول تقبيلي. دفعته، فقفز عليه خوانيكو وأمسك بخناقه. تعاركا بعنف فظيع، تدحرجا فوق الأوساخ، لكن دون صراخ، تأوهات فقط! كانا في كل مرة يتضاربان بالقبضات أو بالأقدام. حينذاك توقفت الشاحنات عن الدوران، وتجمع الناس ليتفرجوا على العراك. كان مالكو وجورج يتصارعان ضد أحد الإسبان وخوانيكو ضد آخر. وأنا كنت أصرخ مثل المجنونة، لبدة شعري شعثها الهواء، وسترتي ذات السيور مغطاة بالتراب، كذلك زوج الأحذية الذي عثرت عليه إلى جانبي فوق الجدار.

بعد ذلك راح موظف عجوز من المكب يتفوه بكلام عنصري عن السود والعرب والغجر، أمسك بمرش السقاية الذي يُستخدم لتنظيف باحة ذلك المكب ورشنا بالماء المثلج، بقوة شديدة جعلت خوانيكو ينزلق على ظهره مثل صرصار وطارت كل كتبي مزقاً. هذا ما نالني،

دفقة الماء المثلجة القاسية مثل سوط أتلفت كل كتبي. كنت أكره ذلك الرجل. صرخت: «سافل، خنزير، زبالة!» وتابعت بما في جعبتي بالعربية. كانت تلك المرة الأخيرة التي أذهب فيها إلى المكب.

كانت هناك سارة. رأيتها للمرة الأولى بالمصادفة تقريباً، في ذلك البار لفندق كونكورد على «البروموناد». أحببت كثيراً ذلك الفندق بسبب امرأة طويلة من البرونز كانت تحاول الفرار من بين كتلتين من الإسمنت. دخلت البهو كي أسأل عمن صنعها فقال لي البواب اسم النحات، «سوسنوفسكي»، وكتبه لي على ورقة. كان ذلك في نهاية بعد الظهر، وقد تركت خوانيكو لأنه لم يكن لائقاً جداً بقمصانه القبيحة الواحد فوق الآخر، ولبدة شعره المشعثة، دون أن أتحدث عن رائحته. داخل الفندق سمعت الموسيقى. كان ذلك غريباً، إذ أنني عادة، بسبب أذني اليسرى لا أسمع الموسيقى من البعيد جداً. لكن هنا كان الصوت يصل إلي، ثقيلاً ومنخفضاً، مع اهتزازات تسري فوق جلدي وفي أعماقي.

مشيت عبر البهو يقودني الصوت. خفق قلبي لبرهة إذ إنني ظننت أنني وجدت سيمون وهي هناك، تقف في آخر البار تغني: «black is the color of my true love's hair». كي أسمعها بشكل أفضل جلست بالقرب منها على درجة المنصة، وحين رأتني ابتسمت لي كأنها تعرفني، وأظن أنه بسبب ابتسامتها بلا شك لم يطردني الساقي الذي كان بالتأكيد ينظر شذراً إلى تلك السوداء الصغيرة المضحكة، بشعرها الكثيف المجعد وبنطالها الجينز وسترتها الجلدية ذات السيور.

استمعت إلى الأغاني كلها حتى الليل. في البار كان الناس يثرثرون وهم يحتسون الويسكي، أزواج يتعانقون ويتباعدون. ومنهم من رقصوا. أما أنا فقد كنت أنهل الكلمات والموسيقى، أتطلع إلى قامة الشابة الطويلة، ردائها الجرابي الأسود الذي يلف جسدها، وجهها، وشعرها المقصوص قصيراً.

بعد ذلك تحدثتْ إلي. وجدت صعوبة بالفهم، حاولت قراءة شفاهها، شربت كأس مياه معدنية «بيريه»، قالت لي إن اسمها سارة وهي من شيكاغو. راحت تناديني «أختي سوالو» لا أدري لماذا. هي أيضاً قالت لي: «يعجبني شعرك»، وكتبت لي اسمها وعنوانها على مغلف لأنها كانت راحلة عما قريب. أنا كتبت اسمي، أما بالنسبة للعنوان فلم أكن أعرف. كتبت عندئذ عنوان بياتريس.

كان عازف البيانو يعيد العزف. فعادت إلى المنصة. بقيت إلى النهاية، حتى الليل. أتى رجل طويل أسمر ليأخذها. كان يرتدي بذلة ومعطفاً أخضر ووشاحاً أبيض، كما في السينما. اصطحب سارة، فراحت تنسل نحو المخرج وهي تتمايل، ولدى مرورها ابتسمت لي مرة أخرى بابتسامتها المشعة فوق وجهها الأسود. كانت تبدو مثل نجمة، آلهة، جنية.

بعد ذلك كنت أعود كل يوم، من الساعة الخامسة وحتى التاسعة. كنت أجلس في زاويتي، على حافة المنصة. ولو سألني أي نادل شيئاً، سيكون جوابي جاهزاً: «هذه أختي». لكن يبدو أنها أخبرتهم، فلم يسألني أحد شيئاً.

غنت لي سارة طوال شهر أيار. كانت هناك عواصف. وكان المطر رائعاً، والبحر هائجاً أخضر خلاباً. كان خوانيكو يأتي كل يوم معي إلى الشاطئ، أو إلى مصد الأمواج الكبير ذي الكتل الإسمنتية المرسيّة، لكنه لم يكن مكاناً ملائماً لفتاة. فذات يوم، كنت بانتظار خوانيكو، جاء رجل وأراني عضوه المختون. كانت نظرته غريبة، تائهة، حتى أنني لم أشعر برغبة بالصراخ في وجهه كما فعلت في الماضي لعجوز المقبرة. كذلك راح الصيادون في قواربهم يقومون بحركات بذيئة باتجاهي وهم يرفعون شباكهم. كانوا يصيحون بسخافات لا أفهمها فيثور خوانيكو غضباً: «ابن القحبة، سوف أقتلك!» يقفز من صخرة لصخرة متظاهراً برمي الحجارة.

في الغالب هذا ما كان يثير حنقي. ما من مكان هادئ في

العالم، ولا أي مكان. حين كنت أعثر على ركن منعزل، تجويف، مغارة، بقعة منسية، يجب أن يكون هناك دوماً إشارة بذيئة، براز، أو متلصص.

أصبحت إذذاك بعد ظهر كل يوم على موعد لسماع موسيقى سارة التي تسري مثل الدغدغة.

وبعد ظهر كل يوم كنا نتبادل الأحاديث وقت الاستراحة. حقيقةً، لم نكن نتبادل الأحاديث بشكل فعلي، لأنها لم تكن تعرف الفرنسية، وما كنت أسمع جيداً ما تقوله. كانت تقول في كل مرة: «أختي سوالو، يعجبني شعرك». صارت لازمة رتيبة.

كنت أبقى حتى النهاية، وكل مساء كان صديقها يأتي ليأخذها، وتمر من أمامي دون أن تتفوه بكلمة، كأننا لا نعرف بعضنا، عيناها فقط كانتا تتلاعبان، وابتسامة صغيرة تضيء وجهها، ومشيتها المتبخترة نحو باب الفندق، نحو الليل. بقيتُ عاشقة لسارة كل ذلك الشهر.

في تلك الفترة بدأت المتاعب مع صبيين من مخيم كريما. شقيقان، داني وهيوغ، كان لداني شعر بني ومجعد، وهيوغ طويلاً وأصهب. هنديان، هكذا كنت أدعوهما، بسبب قميصيهما المزهّرين، والعصبات على رأسيهما. كانا يقومان بسياراتهما الكرايزلر بالروديو. صعدنا إلى سيارتهما خوانيكو ومالكو وأنا. فراحا يدوران في الشوارع على غير هدى، يفرقعان العجلات، يطلقان الزمامير. كان ذلك جنوناً، كنا نعبر الشوارع بسرعة كبيرة، يخترق الهواء البارد النوافذ المفتوحة، أعتقد أن هذا ما يثيرهم، لكنهم كانوا قد دخنوا قبل ذلك، طوال بعد الظهر، فعيونهم كانت حمراء.

ما كنت أخاف. لم أعرف الخوف من أناس مثل داني وهيوغ، كنت أرى فيهما دوماً الطفلين، الصبيين الوقحين، المضحكين والضعيفين.

كان داني في العشرين من عمره، وأخوه في الثامنة عشرة،

مثلي. قبل الليل بقليل أوقفا السيارة في موقف سيارات عائد لمخزن معدات كبير من نوع «بريكولتو»، مبنى أخضر، لم أعد أذكر. نزلنا من السيارة وبدأ الشقيقان يجوبان ممرات المخازن مثل متوحشين، بشعريهما فوق كتفيهما وقميصيهما المزهرين المفتوحين في البرد. تجمد الناس في أماكنهم، أعناقهم داخل أكتافهم، يلاحقونهما بنظراتهم كأن ذئبين يجريان بين الصفوف. أما هما فكانا يتحدثان بالإسبانية بصوت مرتفع، يناديان لبعضهما البعض من طرف المخزن لطرفه الآخر، يضحكان، فتلمع أسنانهما في وجهيهما الكالحين. ثم رحلنا من جديد، رحنا نسير على غير هدى، على طول النهر، حتى الجبل، عبرنا تجمعات سكنية نائمة، غارقة في ضباب تخرقه بصعوبة أنوار أعمدة الكهرباء الصفراء.

رحنا نقوم بتصرفات مجنونة. نذهب إلى المقابر ونصغي للقبور كي نسمع تنفس الأموات. كان داني مغفلاً قليلاً على ما أظن. نبهنا عم خوانيكو: «لا تذهبوا معهما، سوف يسببا لكم المتاعب». كنت أعشق هيوغ، فأجلس في المقعد الأمامي بين الأخوين. نتوقف كي نشرب وأتغازل قليلاً مع هيوغ بينما يكون خوانيكو وداني يدخنان في الخارج، جالسين على غطاء السيارة، لكن داني أراد تقبيلي، وبما أنني دفعته ثار غضبه. برز شريان فوق جبهته وراحت عيناه تطلقان الشرر. تناول عبوة غاز وولاعة من علبة القفازات ورشقني بها بعد أن أشعل النار. شعرت بنفحة كبيرة مثل صفعة، ووجدت نفسي في الخارج أزعق، صدري ويدايّ يحترقون. هيوغ هو الذي أطفا النار. غطاني بسترته ودحرجني على الأرض ثم ضربني باللكمات. كنت مخبولة. لم أكن أستوعب. أثناء ذلك كان هيوغ وداني يتعاركان، وخوانيكو ومالكو يتفرجان دون حراك. أظن أنهما لم يفهما كثيراً. وأنا حين فهمت ذهبت أعبر الطريق وتركتهم هناك. ثم نقلني سائق على الفور، واصطحبني إلى الإسعاف. بدا لطيفاً وأراد البقاء لكنني شكرته، قلت له لا داعي لذلك،

إنه حادث صغير فقط. قام الطبيب المناوب بتضميدي. كنت محروقة في ثديّ وعنقي وذراعيّ.

بعد هذا كان علي الرحيل. رامون أورسو لم يقل شيئاً، لكن إيلينا جاءت إلى المقطورة، أخذت أغراضي، رتبتها في حقيبتي، وأعطتني بلوزة جديدة من الصوف الأحمر والأسود. كانت تنظر إلي بقسوة كأنها تكرهني. كان مالكو وخوانيكو يلعبان بالكرة في الشارع المحفر. فقلت لإيلينا: «وخوانيكو؟». أشارت بأنه سيبقى هنا معهم. أظن أنها على حق. إذ إنه بسببي لم تكن الأمور على ما يرام. أنا من أحمل الشؤم. عند المدخل، كانت جماعة من الغجر يتجادلون حول هياكل معدنية، مثل صيادين يقصّبون فريسة. كان الوقت باكراً من نهار الأحد ومعمل الطحن لا يعمل. وضعت الحقيبة متدلية على كتفي الأيسر، بسبب الحروق. السماء زرقاء كلياً، وثمة سنونو ترسم خطوطاً في الفضاء، كنت أسمع صياحها بوضوح. ركبت حافلة حتى المحطة، كان قد بقي معي مال كاف لشراء بطاقتي في القطار التالي إلى باريس.

14

قبل الصيف في ذلك العام، حدثت تغييرات كثيرة. في البدء تقدمت لامتحان الثانوي الأدبي كطالبة حرة، وكما كان متوقعاً رسبت. قدمت ورقة بيضاء في الرياضيات والتاريخ. وفي اللغة الفرنسية بالامتحان الشفهي، لم تصدق الأستاذة الفاحصة بأنني طالبة حرة. كانت تتفحص جواز سفري، تنظر إلى ملفي وتقول: «كفي عن الكذب علي، أين تلقيت تعليمك؟» ثم: «أين قائمتك؟». كأنها في النهاية خجلت من غضبها، وقالت لي: «من اخترت لتقديم شروحاتك؟». فقلت دون تردد: «أيميه سيزير». لم يكن من ضمن المنهاج، لكنها دهشت وقالت لي: «حسنٌ، أنا مصغية». تَلَوْتُ عن ظهر قلب مقطعاً من كتاب «دفاتر عودة إلى مسقط الرأس» التي ذكرها فرانز فانون:

«ولهذا الإله ذي الأسنان البيضاء
الرجال ذوي الأعناق الهزيلة
يستمد ويرى الصمت المميت
ولي رقصاتي
رقصات الزنجي القذر

وحتى:

«اربطني بالأخوّة الشرسة

واختفني بحبلك النجومي
اصعد أيها اليمام
اصعد
اصعد

اصعد
أيها الساكن في ماضيّ، إني أتبعك
بقرنية بيضاء
اصعد يا من تلامس السماء
والعدم حيث أردت الغرق
هناك القمر الآخر
هناك أريد اصطياد اللغة العصية الآن
من الليل في سكونه».

في الفلسفة، كان الموضوع في تلك السنة، الإنسان والحرية، شيء من هذا القبيل، وكتبت فصلاً طويلاً من عشرين صفحة ذكرت فيه باستمرار فرانز فانون ولينين، والعبارة التي كان يقولها: «حين لن يبقى على الأرض أية إمكانية لاستثمار الآخر، وحين لن يبقى هناك أملاك عقارية، ولا أملاك مصانع، وحين لن يعود هناك مُتخمون من جهة ولا جائعون من جهة أخرى، حين سيصبح كل ذلك مستحيلاً، حينئذٍ فقط سوف نضع آلة الدولة جانباً».

هكذا رسبت، لأنني كتبت كل شيء دون أن أستريح، دون أن أعيد القراءة كأنني أهرب. بعد ذلك رميت رزمة الأوراق فوق مكتب المراقب، ورحلت دون ان ألتفت. حتى أنني لم أبحث عن اسمي في الجريدة، فقد كنت أعرف مقدماً أنه لن يكون هناك.

في باريس كان كل شيء مشابهاً ومختلفاً في الوقت نفسه. في

بيت بياتريس، كان الجو دافئاً، نافذة الصالة الكبيرة تشع بالنور الجميل، وجوانا كبرت ونبت شعرها. كانت عيناها ماتزال مثل حجر العقيق، ولها تلك النظرة اللجوجة والقلقة.

كنت أبقى معها كل صباح، بينما ريمون في مكتب المحاماة وبياتريس في صحيفتها. بدت شجرة اللبلاب مليئة بالعصافير، فكنت أحمل جوانا قرب النافذة المفتوحة كي تسمع زقزقتها.

قررت الرحيل. بفضل أستاذ المركز الثقافي وعقيد في قسم المعلومات الأمريكي أُغرم بي، حصلت على تأشيرة الاستبدال والإقامة عند سارة ليبكاب في بوسطن. حتى أنني سجلت اسمي باليانصيب الذي يوزع بطاقات إقامة في الولايات المتحدة، إذ إن حصة الأفارقة كانت جيدة في تلك السنة. لم يكن ينقصني سوى المال. بعتُ أحد هلالي أجدادي، واقترضت 25000 فرنك من بياتريس، كنت خجلة، لكنها كانت مسألة حياة أو موت. شعرت بأن بياتريس وريمون أعطياني هذا المال كي أخرج من حياتهما نهائياً، كي لا يبقى هناك شيء يربط جوانا بأمها الحقيقية.

لم يكن علي توديع أحد أيضاً. كانت مغارة شارع جافلو مغلقة. ولدى عودة موريا إيف صديق نونو، أعطى تعليمات وقام وكيل الدائنين بتغيير القفل. مررت أمامه بالتاكسي، بعد ظهر أحد الأيام، وأحسست بشعور غريب من رؤية الباب المعدني المطلي بأخضر الجنائن مع الرقم 28 مكتوب بالدهان الأسود على حجر الزاوية، كأنه مرآب، أو خزانة عدادات المياه والكهرباء، أو أي شيء آخر من هذا القبيل، وكأن لا أحد عاش هنا أبداً. ولم تكن هناك تلك الليلة التي ولدت فيها باسكال مليكة هنا. كان ذلك غريباً، وكأن كل شيء بالمقلوب. عند خروجي من النفق، قلت للتاكسي: «عد للخلف» فنظر إلي بالمرآة العاكسة. كررت: «من فضلك أريد معاودة المرور من هناك». مررنا ببطء وأشعل التاكسي أضواءه الخافتة، نظرت إلى المكان الذي وقفت فيه سيارة مارتينال جوايو المرسيدس تنتظر

طوال الليل تقريباً. كان هناك بقع زيت فوق الطريق المعبدة، مثل بقع الدم. ربما ماتت. فقد كان يصرخ بوجهها دوماً أنه سيقتلها، لو أرادت هجره كان سيقتلها. لكنها كانت سجينته. لن تتمكن من الفرار منه أبداً. لهذا راحت تضع المخدر في فتحة أنفها وتتناول الحبوب. كانت تلك طريقتها بالفرار.

تركني التاكسي في بولفار باريس أمام نادي نونو الرياضي. صعدت الدرج بين مخزن الملابس المستعملة وبائع أجهزة الصوت. كان باب النادي الرياضي في الطابق مغلقاً، لكن هناك جلبة أصوات. قرعت على النافذة وقتاً طويلاً إلى أن جاؤوا. جاء رجل طويل بملابس رياضية، عربي لم أكن أعرفه. سألت:

- أين نونو؟

جعلني أكرر، وصاح نحو داخل القاعة:

- أتعرفين نونو؟ وسدّ علي الطريق، كان يمنعني من النظر.

جاء رجل أربعيني. طويل، كامد البشرة، له أنف ضخم، شعره مجعد مائل للرمادي، يشبه السيد دولاهي. لا أدري لماذا أدركت فوراً أنه هو، إيف لونجان صديق نونو. نظر إليّ مطولاً دون أن ينبس بشفة. بالتأكيد هو أيضاً تعرّف إلي. لكنه لم يكن يعبّر عن شيء، لا لطف ولا ازدراء. ورغم ذلك كنت قد تقاسمت نونو معه. قام بحركة من يده ليقول بها أن الأمر انتهى، انتهى كل شيء. قرأت على شفتيه أكثر مما سمعته، كان يتحدث بصوت منخفض تقريباً:

- إنه ليس هنا، لم يعد نونو يأتي إلى هنا، خسر مباراته، انتهى، لم يعد يلاكم هنا. لن يلاكم بعد الآن أبداً.

صرخت تقريباً:

- أين هو؟ هل تعرف أين يمكن أن أجده؟

هزّ كتفيه:

ـ ليس لدي أدنى فكرة. ربما عاد إلى أفريقيا، ربما أبعد، لقد هُزِم.

لم أتمكن من تصديقه، وقفت على رؤوس أصابعي بكل غباء كي أرى من وراء أكتافهم كأنهم يخفون عني شيئاً ما. رأيت الصالة قذرة، حلبة الملاكمة، الصبية الذين يلكمون أكياسهم الرملية، كأنهم يرقصون. كان هناك زنوج نحيلون جداً ويافعون، مثل نونو، يتدربون. بعد ذلك أدار لي الرجل ظهره ودفعني العربي براحة يده كي يتمكن من إعادة إغلاق الباب. كانت رائحته حامضة، رائحة عرق، نَتَن، مثل نونو حين يعود من التدريب. فجأة شعرت بأنني وحيدة، كما أدركت أخيراً أنني راحلة حقيقة، لأن الكل كانوا قد رحلوا قبلي.

عدت إلى ساحة إيطاليا كي أرى حورية. لم يكن السيد يو يحبني فعلاً، لكن الأمر سيان عندي. لقد صممت على رؤية حورية وباسكال مليكة، ولن يتعدى الأمر أكثر من دقيقة. في تلك اللحظة لم أكن واثقة بعد ماذا سأفعل. في مطعم فو تاي تو، كان الباب مفتوحاً للسهرة لكن الصالة الصغيرة كانت خالية. أخرج السيد يو رأسه من باب المكتب وقال بصوت مقيت: «ماذا تريدين؟». حاولت المرور لكنه وقف في طريقي. كان قوياً جداً بالنسبة لرجل بقامته القصيرة ونحوله. كان يصيح: «ارحلي! ارحلي!». كنت آمل أن يشد صراخه حورية لكنها لم تظهر. ربما كان يحتجزها، أو ربما لم تعد ترغب برؤيتي أبداً. ربما كنت حقاً أحمل النحس.

درت طويلاً في المترو ذلك المساء، كذلك بالقرب من ريومور، ومحطة ليون، وحتى دينفر روشرو. كان هناك أناس غريبو الأطوار في العربات، وعلى الأرصفة، جنود مسرّحون يغنون وهم يشربون الخمر، مشردون، نساء عيونهن شفافة، سيّاح ضائعون، أناس عاديون إلى حد غريب، مع أكياس مشترياتهم ومناديلهم وقبعاتهم.

بالقرب من آر إيه ميتيه، بحثت عن صديقي الجندي الأريتيري العجوز، الشبيه بمحارب إيسا، المدثر بعباءته، وقدميه المضمدتين بالأسمال. بحثت عن يسوعي الذي يشحذ راكعاً ويداه متصالبتان، ومريم المجدلية ذات العينين الخضراوين والشعر المنسدل والفم الدموي كأنها قد عضت لتوها. كان الأمر غريباً، للمرة الأولى بلا شك، كانت الطبول صامتة، والسكون يرينُ في الممرات من جهة أوستيرليتز مثلما يحدث بعد عاصفة، أو بعد قرع أجراس. فاعتبرت ذلك إشارة.

في اليوم الأخير وقبل أن أركب الطائرة إلى بوسطن، همت على وجهي بالقرب من شارع جان بوتون، كأن هناك شيئاً سأعثر عليه بالفعل، غير الفتيات التائهات، ومروّجي المخدرات الرخيصة، وفندق الآنسة ماير المفروش. كنت آمل على نحو غامض أن تخرج ماري إيلين من المبنى، أن تأتي إلي، وتضمني إليها بقوة، وأن يكون نونو في مطبخها، عارياً تماماً يعزف الجامبية. كانت تمطر، والقطرات تنقر البرك السوداء، لاشيء تغير، ومع ذلك، كأن ذلك حصل في حياة أخرى، بعيدة جداً. مرّت سيارة شرطة ببطء شديد، فرحلتُ مسرعةً مديرة رأسي إلى الجانب كي لا يروا إلى أي حد كنت سوداء. رغم جواز سفر مريم ورسالة مكتب خدمة الهجرة من سفارة الولايات المتحدة التي تعلمني أن اسمي قد سحب بالقرعة، كان قلبي يخفق كأنهم سوف يرموني خارجاً. فكرت حينذاك أنه ما من مكان لي في العالم، وأنني أينما ذهبت سيقولون لي إنني لست في وطني، ويجدر بي التفكير بالرحيل لرؤية مكان آخر.

15

الصيف في بوسطن خانق. هناك بخار فوق المدينة تختفي داخله ناطحات السحاب. كانت سارة ليبكاب تسكن في شقة صغيرة من غرفتين في مبنى من القرميد الأحمر قرب نهر تشارلز من جهة بي يو. في الصباح تعلّم الموسيقى في مدرسة دينية، ومساءً تغني في ملهى جاز مع صديقها جوب عازف البيانو.

في الأيام الأولى كنت بحالة جيدة، لم أشعر بهكذا حرية من قبل. كان ذلك مثل أيام الفندق والأميرات، باستثناء أن لا أحد هنا يبحث عني. كنت أركب الترامواي، أذهب حيثما أشاء، أبقى خارجاً طوال النهار، في باك باي، في هاي ماركت، في أرلينغتون، في الميناء. كنت أذهب إلى كامبريدج مشياً على الأقدام بمحاذاة النهر متخذة الممر. حين كانت سارة تذهب لإعطاء دروسها، كنت أقوم بتنظيف البيت، أغسل وأرتب وأجلي، أحضر شيئاً لنأكله عند الظهيرة والمساء. سارة لم تطلب مني شيئاً، إنما بدا لي ذلك طبيعياً مقابل السكن، مثلما كان الأمر عند بياتريس، باستثناء أن سارة لم تكن تعطيني المال ولا جوب أيضاً. ما كانوا يسألونني أبداً كم أنفقت لأشتري لهم الطعام، وأنا لم أكن أجرؤ بمطالبتهم بذلك. لكنني كنت أرى مدخراتي تنهار ودون بطاقة الإقامة لم يكن لدي الإمكانية للعمل. رحت أرقب علبة البريد كل يوم، على أمل رؤية مغلفٍ معنون من خدمة الهجرة. وكل يوم أزداد توتراً، وأشعر كأن فخاً ينغلق ببطء عليّ دون أن أتمكن من فعل شيء.

بالنسبة لسارة وجوب كانا يعيشان كل يوم بيومه. لم يكن لديهما أية مدخرات، كانت سارة تدفع إيجار الشقة براتبها كأستاذة موسيقى، وبالنسبة لبقية المصاريف، السهرات مع الأصدقاء، المطاعم، الملابس، فهي من مال البيانو بار. أظن أنهما كانا يتناولان المنشطات أيضاً. بين الحين والآخر، كانا يدعوانني. يصطحباننني إلى نادي سيتي أو يوفي باك باي، الذي يدعوه جوب بلاك باي حيث يمكن هناك سماع أفضل موسيقى الجاز.

كانت سارة تحب جداً أن تعرفني على أصدقائها. تنكّرني مثلها، بجوارب نايلون نسائية سوداء، قميص أسود وبيريه، أو تجدل شعري جدائل صغيرة كما كانت تفعل أميرات الفندق. بدت فخورة بي، تقول إنني لا أشبه أحداً، وإنني أفريقية حقيقية. هذا ما كانت تقوله لأصدقائها: مريم، إنها من أفريقيا. والناس يقولون: «آه؟» أو «أوه!». كانوا يطرحون أسئلة حمقاء من نوع: «أي نوع من اللغات يتحدثون هناك؟» فأجيب: «هناك؟ ولكن لا يتحدثون هناك». في البداية استسلمت للعبة سارة، لكن الأمر بدأ يزعجني بشكل جدي، تلك الأسئلة، وهذه النظرات، وجهلهم بكل شيء. في البار كانت الموسيقى الصاخبة تدق بشدة لحناً ثقيلاً يتردد في جوفي، رغم أنني سددت أذني السليمة، كانت تخترق جسدي وتؤلمني. كنت أشرب البيرة والمارغريتا والكوبالبير، وأنهلُ الضوء والدخان، أغدو ثملة، مثل حورية حين كانت تعود من عربدتها.

ربما كنت أحب ذلك، أو ربما لا. كان الأمر جديداً. كنت أشعر كأن جسدي تغير. أصبحت نحيلة جداً، هزيلةً تقريباً، أصبحت عيناي محرورتين، وأشعر بالكهرباء في أصابعي، حتى أطراف شعري. بدأت أحس بالكحول يورم مفاصلي ويجعلها أكثر مرونة. كنت أتنقل من مجموعة لأخرى، يمسكني جوب من خصري، يتحدث بصوت عالٍ وبسرعة، لم أكن أفهم مايقول وسارة تضحك بطريقة غريبة، بضحكة صاخبة تزداد حدة أكثر فأكثر، وتنهمر مثل شلال.

كانت سارة ليبكاب تحب جداً أن تروي قصتي، كيف تعارفنا،

في فندق إكسيلسي، أو كونكورد، لم أعد أعرف، تمثال المرأة العارية بين جدارين كأنه حدث بعد هزة أرضية، وأنا كيف كنت أجلس كل مساء عند طرف المنصة، مثل فتاة عاقلة، كي أستمع إليها تغني لماليا جاكسون وتينا سيمون. إنها أختي الكبرى وهي من عثرت علي، أنا التي لم يكن لدي إنسان في العالم، أنا من كان باستطاعتي العزف على الدربكة والغناء ـ إنها رائعة ـ وأحضرتني إلى بيتها، هنا في بوسطن، في هذه المدينة الفاسدة، مدينة المغفلين الإنكليز، حيث لا أحد على الإطلاق لديه الموهبة، لا أحد يمكنه أن يتخلى أبداً عن عاداته القديمة الموحلة التي عليه أن يعيش في كنفها بالتأكيد.

كان ذلك في البداية، ولكن في نهاية الصيف حدثت عاصفة، ذلك الإعصار الذي دمر كل شيء. لا أعرف ما إذا كان الإعصار هو سبب ما حصل. كان الجو حاراً وثقيلاً جداً منذ بداية شهر آب. أحياناً كان الضباب كثيفاً لدرجة أنه يخفي أعلى المباني من جانب المرفأ. حين وصل الإعصار حتى كاب كود تم الإنذار. سدّ الناس أبوابهم ونوافذهم وفوق الأبراج الزجاجية العالية ألصقوا شرائط من الورق، لكن سارة تابعت ذهابها إلى مدرستها كي تعطي دروس البيانو.

في الصباح، كان جوب معتاداً على البقاء في البيت. راح يحتج بأنه سيساعدني بأعمال البيت وتحضير الغداء، لكنه في الحقيقة كان يتمدد على أريكة غرفة الجلوس ويشرب البيرة وهو ينظر إلي بطرف عينه، من فوق شاشة التلفاز المُشغّل.

حدث في ذلك الصباح حادث سخيف أسفت له. أتى جوب نحوي، دون أن يقول شيئاً كأنه سوف يحضر الشراب من المطبخ، كان الجو حاراً، كان عارياً تماماً باستثناء سرواله الداخلي السليب، وبشرته السوداء ترشح بالعرق. كنت أمرر المكنسة الرطبة فوق بلاط المطبخ، وبدل أن يفشخ فوق المكنسة مرّ من الخلف وأمسك بي، في البداية

ظننت أنه يمزح، لكنه راح يتمسك بي ويطوقني ويحاول تقبيلي. أدخل إحدى يديه تحت قميصي الـ تي شيرت القطني كي يلمس ثديي، فرحت أصرخ بكل قواي. حينئذٍ أفلتني. ظننت أنه انتهى لكنه عاد نحوي، وحاول سحبي إلى الغرفة نحو السرير. لم يكن جوب قوياً جداً لكن الكحول ضاعف قواه دون شك. كان يرفعني ويسحبني نحو الغرفة، فتابعت الصراخ، كنت أسدد له اللكمات، حينئذٍ ضربني، في البداية على جانب رأسي، ثم على خدي وعلى عنقي. كان يصيح في الوقت نفسه: «Bitch» «ساقطة» أو «لا تكوني ساقطة». وحين رأى أنه لن يتوصل إلى شيء، أو ربما خاف أن يأتي الجيران ويقرعوا على الباب كي يسألوا ما الذي يجري، أفلتني. أخذ يدي ووضعها على ذكره القاسي، كان يريد أن أستمنيه، ويقول بأنه مريض، أظن أن هذا ما كان يقوله وإذا ما تركته بهذه الحال سوف يقع مريضاً. صرخت به: « asshole! فلتذهب إلى الجحيم افعل ذلك بنفسك» ورحلت.

مشيت كل النهار في شوارع بوسطن. غير أن الإعصار لم يأت. تعثر فوق كاب كود وراح يبعثر منازل الأغنياء الخشبية في مارتا فانيارد.

بعد الظهر، كانت تمطر فذهبت إلى الجانب الآخر من النهر، إلى الشوارع الإنكليزية الصغيرة لكامبريدج. كان الناس قد خرجوا من بيوتهم. هناك طلاب وعشاق فوق العشب الأخضر يحتمون تحت مظلات الجولف، والمطر الساخن يُخرج رائحة العشب والتراب.

شعرت بنفسي خاوية ومتعبة. في مقهى بجانب محطة الترام التقيت بجان فيلان. قال لي إنه أتى لمتابعة دروس في هارفرد وهو يعلّم الفرنسية في رابطة شيكاغو. لم يكن طويل القامة، وكان شعره خفيفاً عند الجبين، لكن له عينان خضراوان جميلتان مضطربتان قليلاً وابتسامته لطيفة. أمضينا بقية النهار نتحدث ونجوب الشوارع،

نذهب من مقهى لمقهى، كان له صوت قوي أسمعه جيداً ويدان قويتان جميلتان. أعتقد أنني لم يسبق لي وتكلمت هكذا أبداً، بدا لي كأن سنوات مضت لم أتحدث فيها هكذا، مثلما كنت أفعل مع جد حكيم. كنا نحتمي تحت أشجار الحديقة، وحين بللنا المطر كثيراً جلسنا في مقهى. في النهاية وحين حل الليل، ذهبنا إلى غرفته في الفندق، في الطابق الأخير، والتي لها نافذة تطل على ماساشوسيت أفينيو.

لم نتحدث مطلقاً بسبب أذني المصابة، والأخرى كانت قد تعبت. كنت أشعر بالخواء يدوي في رأسي، لم أكن راغبة بالتفكير بما حدث عند سارة. كنت أرمي الكلام كيفما كان، وجان يتحدث من جهته. يحكي عن طفولته السعيدة، أخوته وأخواته في بريتاني في باريس. بين الحين والآخر، كنا نضحك كمن يضحك لنكتة ظريفة.

كان الوقت قد تأخر جداً كي أعود. ما كنت أود العود إلى بيت سارة في سبيل أي شيء في العالم. أكلنا البسكويت المملح من الثلاجة، وشربنا زجاجات الكحول الصغيرة من الجن والفودكا.

في الصباح لم أكن قد نمت، كان جان متمدداً فوق الأريكة، بدا شاحباً ومتعباً، وظهر ظل لحيته فوق وجهه. كنت أقول لنفسي عند خروجنا سيظن أصحاب الفندق أنني عشيقته أو ربما عاهرة عابرة.

ذهبنا لتناول الإفطار في كافيتريا الفندق، في الفناء الداخلي. الكثير من الشاي والبيض والفاصولياء. كان على جان ركوب الطائرة إلى شيكاغو عند الظهيرة.

عدت إلى بيت سارة.

لكن الأيام التالية لم تكن مريحة. لا أعلم ماذا حكى جوب، لكن سارة غدت عنيفة ولئيمة معي. فكرت حقاً بقول الحقيقة لها، لكن ما النفع؟ لن تصدقني. تقف النساء دوماً إلى صف رجالهن، حتى حين ينخدعن، حتى حين يخونوهن.

حينئذٍ اشتريت بطاقة غرايوند، وضعت أغراضي في حقيبتي الشاطئية، مذياعي العتيق المبقع نفسه وكتاب فرانز فانون كذكرى من حكيم، ورحلت إلى شيكاغو.

ما عدت خائفة من شيء. كنت قادرة على مجابهة العالم. بعد يومين من وصولي توظفت في فندق من فنادق كانال ستريت يملكه السيد أستيبان «السنيور»، وهو كوبي منفي. أجمع وأغسل كؤوس بار «الساعة السعيدة» ـ ساعة مسافري غرايوند. كانت هناك مغنية سوداء لا تشبه سارة تخدش الآذان بأغاني بلوز يرافقها عازف بيانو تعيس. استأجرت غرفة في بيت، جنوب روبنسون. وكان هناك لافتة على نافذة الطابق السفلي، تماماً مثل السينما. بيت قديم متداعي من الخشب الرمادي، له درج خارجي، سطح من ألواح الخشب القاتم، ومدخنتان عاليتان من القرميد.

بعد مدة قصيرة، وقع عازف البيانو فريسة المرض واستلمت أنا البيانو. كانت قد أفادتني دروس سيمون وسارة. كنت أعزف مما حفظته في ذاكرتي، ولم أكن بحاجة لقراءة الموسيقى. أصبح كل شيء في غاية البساطة. كنت أكسب خمسين دولاراً كل مساء، فأدفع إيجار شقتي الصغيرة بأربع أمسيات. أتعشى شرائح اللحم والجامبون في الفندق، قبل الصعود إلى المنصة، فأتمكن من الصمود حتى مساء اليوم التالي مع زبادي الحليب ورقائق القمح. كان صاحب الفندق يحب عزفي. يأتي للجلوس في الصالة حين أعزف، يصغي وهو يشرب المياه الغازية. وحين كانت المغنية ترحل بدورها، كنت أنا من يحل محلها كي أغني وأعزف على البيانو. كنت أغني رصيدي مما تعلمته مع سارة: بيلي هوليداي، تينا سايمون. أحياناً أرتجل، أستعيد الموسيقى التي كنا نعزفها في ممرات محطة ريومور سيباستوبول أو على السطح في شارع جافلو، فقط إيقاع البيانو المتسارع، هدير عاصفة في البعيد، هدير السيارات الثقيل في الجادات، وعويل صيحات قاطعي القصب في الحقول في سان دومينك: «آوها! هوا!».

والسنيور لم يكن يقول الشيء الكثير، لكن بحسب الطريقة التي ينقلب فيها قليلاً على كرسيه ويغمض عينيه وهو يسحب الدخان من سيجارته، كنت أرى أن ذلك يروق له جداً. لم أكن أهتم بالناس الذين يشربون في البار، أعتقد أنني كنت أغني له. أحاول أن أتخيل حياته، من أين مرّ قبل أن يصل إلى هنا. ربما كان في الماضي عقيداً في الجيش الكوبي، أو ربما قاضي سلام، قبل كاسترو. عدا سهرات البار أمام كأس مياهه الغازية، لم أكن أراه أبداً. كان يعيش في ملحق للفندق، في نهاية ممر ترابي. لم يكن يهتم بشيء ولا حتى برواتب الموظفين. كان سامبو رجل أعماله هو الذي يعطيني المال بعد كل أمسية.

التقيت بجان فيلان من جديد. كان يسكن مع سيدة تدعى أنجلينا في مبنى راقٍ في باين غروف بالقرب من ليك شور. بين الحين والآخر، كي أنسى كل شيء، كنت أُمضي بعد الظهيرة معه. نذهب إلى فندق في مركز المدينة، في أعلى بناية برجية. معه كان كل شيء هادئاً جداً، ووادعاً جداً. في صالة حقيقية من الدرجة الأولى، عَبْرَ الواجهة الزجاجية الكبيرة بمواجهة الشرق، كنت أتفرج على الليل الأزرق، البحيرة، أضواء السيارات التي تتلوَّى كالأفعى في الأسفل البعيد على الطريق العام، كأنني كنت أحلّق على ارتفاع ثلاثين ألف قدم. كنا نتحدث أحياناً، إنما على الأغلب كما فعلنا في غرفة فندق هارفرد، كنا نمارس الحب، نأكل، ثم أنام بعمق حتى المساء. في معظم الأوقات، حين أستيقظ يكون جان قد ذهب لإعطاء دروسه. فهو يعمل على أطروحة علم اجتماع، عن المهاجرين المكسيكيين في ضاحية شيكاغو الجنوبية. مرة أو مرتين اصطحبني معه إلى أحياء روزيل وتينلي ونابرفيل وأورورا، فقد كان يُدعى إلى حفلات زفاف وإلى حفلات عماد. كان كمن يذهب إلى كوكب المريخ. لست واثقة بأنه مع كل شهاداته كان يفهم أفضل مني ما يراه.

في روبنسون كان هناك أناس غريبو الأطوار. في المساء

وقبل الليل بقليل، يخرجون من منازلهم ذات النوافذ المسدودة بالعوارض الخشبية. يبيعون أشياءهم الصغيرة من الذرور، ومربعاتهم الصغيرة من الراتنج. تعلمت تجنبهم. لكن تماماً مقابل نافذة غرفتي، في الطرف الآخر للشارع، كان يعيش ألسيدور. عملاق ضخم مثل دب أسود له وجه طفولي، كان يلبس على الدوام نفس الأفرول الجينز والقميص القطني الأحمر والأبيض، حتى عندما تعصف رياح الشمال. كان يعيش في منزل صغير متداع مع أمه، وهي امرأة سوداء قصيرة تعمل في مقهى. كان قد أبدى وداً تجاهي. كل صباح، حين أخرج للتسوق نحو الساعة الحادية عشرة أو عند منتصف النهار، يكون السيد ألسيدور جالساً على درجات السلم الخارجي لبيته، كان يلوح لي. لكنه لم يكن يتمكن من الكلام، إنه يفتقد شيئاً ما في رأسه، يهز رأسه حين أقول له شيئاً. كان يشبه كلباً ضخماً، متوحشاً وغير مؤذٍ. صبية الحي يهزؤون به، يرمونه بالنوى لكنه لم يكن يغضب أبداً. كان بوسعه البقاء جالساً لساعات عند مدخل الباب، منتظراً أمه وهو يأكل المقرمشات. وكان مروجو المخدرات يتركونه وشأنه. أحياناً كي يتسلوا يجعلونه يدخن سيكارة حشيش كي يروا مفعولها عليه، فيدخن ألسيدور السيكارة ثم يعود ليأكل رقائقه بهدوء. ربما يضحك أكثر، هذا كل شيء. كان فعلاً ذا قوة خارقة. في أحد الأيام كانت هناك شاحنة يقودها سكران صعدت على الرصيف وخرقت جدار مبنى. سقطت على الرصيف نصف دعامة وتوازنت فوق إحدى خشبات رباط الجملون. وصل السيد ألسيدور، تعلق بالدعامة المتدلية، وبثقله وحده رفعها وأعادها مكانها. يبدو أن منظم مصارعات أراد توظيفه، لكن ألسيدور كان رقيقاً جداً، ولطيفاً جداً، ولا يرغب بالقتال. لم يكن يقول الشيء الكثير، كل ما يقوله كان نبوءته عن حالة الطقس في الشتاء: «maybe rain, maybe snow, I don't know» ربما مطر، ربما ثلج، لا أدري.

كانت أمه تحميه، ذات يوم كنت أجلس بجانب ألسيدور على

درجات منزله، مع كتاب قصص مصورة، وقد صممت على تعليمه القراءة. وصلت أمه وحين رأتني غضبت: «من هذه الزنجية؟ ماذا تريدين من ابني؟» ولم أعاود الكرة.

رغم ذلك، بعد ظهر أحد الأيام، حدثت تلك القصة الرهيبة مع الشرطة. يبدو أن المحافظ أعطى تعليمات بتوقيف بعض مروّجي المخدرات. فقط لأخذ صورة له والتحدث عنه في الصحف، ولا أعرف لماذا اختاروا شارع روبنسون هذا ـ ربما لأنه لا يحدث فيه شيء أبداً. فجأة، وصلت أعداد كبيرة من سيارات الشرطة، سدّوا الطريق، وراح رجال الشرطة يهاجمون المنازل، بالأخص منازل آخر الشارع تلك التي تسد نوافذها عوارض خشبية. يبدو أنهم أوقفوا بعض الصبية الصغار، وفجأة شاهدوا ألسيدور. كان العملاق قد أنهى قيلولته للتو، خرج على عتبة بابه، مرتدياً كالعادة أوفروله الجينز وقميصه الـ تي شيرت الأحمر والأبيض. حين شاهد الأضواء الدوارة التي تومض، جذبته، وتقدم بضع خطوات كي يرى ماذا يحدث. في أعلى السلم الخشبي، كان يبدو أكثر طولاً أيضاً، وأكثر ضخامة، دبٌ حقيقي خارج من الغابة. انقبض قلبي، لأنني كنت أدرك تماماً أنه لم يستوعب الخطر ورجال الشرطة خافوا منه. أردت الصراخ به: «ألسيدور، اذهب، عد إلى بيتك!». كانت مكبرات صوت الشرطة تطلق الأوامر، لكن ألسيدور بالتأكيد لم يكن يفهم شيئاً. راح يتابع السير نحوهم، يداه في جيبيه، وهو يتمايل بمحاباة. بعد ذلك قفز عليه ثلاثة عناصر شرطة، حاولوا إسقاطه أرضاً، لكنه أبعدهم بدفعة منه. ظن أنها لعبة، كان يتطلع إلى أسلحتهم الموجهة إليه دون أن يفهم، وتابع التقدم نحو وسط الشارع. لكن لم تعد يداه داخل جيبيه، حين شاهد رجال الشرطة أنه لم يكن مسلحاً، راحوا يروّحون عن أنفسهم ولم يبخلوا. قفزوا فوقه وبدؤوا يضربونه بالعصي على ظهره، على ذراعيه، على رأسه. كان ألسيدور ينزف من أنفه ومن جمجمته، لكنه كان مايزال واقفاً، يدور حول نفسه وهو يهمهم، ذراعاه متدليتان، كأنه يحاول

الإمساك بشيء ما. بعد ذلك ضربه رجال الشرطة على ساقيه، ووقع أخيراً على الأرض. هنا تابعوا ضربه بمطارقهم، بقوة شديدة حتى خيّل لي أنني أسمع أصوات الضربات. كانوا يشتمونه ويضربونه، في النهاية، شاهدت ألسيدور يبكي، مستلقياً على الأرض، ذراعاه فوق رأسه كي يحمي نفسه من الضربات. كان يطلق الصرخات والهمهمات والدمدمات وينادي أمه لنجدته. وصلت العجوز في اللحظة التي كانوا يحملون ألسيدور إلى إحدى السيارات. كان ضخماً جداً لدرجة أنهم لم يتمكنوا من إدخاله إلى السيارة، حينئذٍ دفعوا رأسه إلى الأمام، وهم يضربون ساقيه كي ينثني داخل السيارة. وراحت العجوز السوداء تركض وراءهم وهي تزعق، كانت تحاول منعهم. بعد ذلك رحلوا وعادت إلى بيتها وأغلقت بابها ثانية. كانت واثقة أننا جميعاً في هذا الشارع اللعين، قد أرسلنا رجال الشرطة لأخذ ابنها. وبعد يومين، حين عاد، شيء ما تغير، لم يعد ألسيدور يجلس الآن في الخارج كي يتفرج على الناس المارين. كان يبقى محبوساً في البيت، كان خائفاً. بعد مدة قصيرة، شوهدت يافطة على البيت، لقد أخذت العجوز ألسيدور إلى حي آخر، ولم أعد أعرف عنه شيئاً.

بعد ذلك، رحت أنقاد للانحراف. كان ما شاركته مع جان وأنجلينا كافياً. خرجت مع بيلا، وهو إكوادوري يسكن في جوليه، كان طويلاً ونحيلاً وشعره مسترسلاً مثل هندي سينما، ويغرس ألماسة صغيرة في أذنه اليسرى. كان يحلم بالريغة والراغا وبإطلاق علامته المميزة. بالانتظار راح يهرّب القضبان الصغيرة «المخدرات»، والأمفيتامين «سائل لا لون له ينبه الجهاز العصبي» والبودرة، كان يتعاطى الإبر أيضاً، لكن ذلك لم أكن أعرفه. كنت أذهب معه إلى البارات، إلى علب ليل البلوز، ألتقي بالموسيقيين. أبقى في الخارج طوال الليل. كان هناك نجوم كرة السلة، لاعبون مبعدون يائسون. فتيات يحسبن أنفسهن جانيت جاكسون حين

تغني «run away if you want to survive» وجمايكيون يتوهمون أنهم زيغي مارلي، هاييتيون يحسبون أنفسهم فريق الفوجي. مَنْ كانوا يروقون لي هم فرقة Razhel The godfather of noise, Black :Roots .thought, Hub, Question Mark, Kamel, Commonsense, Coed, Krs one كنت قد بدلت مذياعي الصغير القديم بمسجلة ووكمان. صرت أذهب إلى كل مكان مع الموسيقى العميقة في أذني الوحيدة السليمة كأن العالم كله كان أصم. صرت ألبس مثلهم، أدخن وأمشي مثلهم، أتكلم مثلهم، كنت أقول: «هل تعلم ماذا أقول؟». لا أحد يمكن أن يصدق أنني آتية من الطرف الآخر للعالم. ذات مرة، تحدثت عن ماروكو «المغرب»، ففهموا موناكو. لم أعاود الكرّة. لا أحد كان يعرف ما معنى أن يكون المرء من أفريقيا، كما أنني لم أكن قد تلقيت بعد القطعة البلاستيكية الخضراء الصغيرة التي تمنح كل الحقوق. بين الحين والحين كنت أرى جان لكنه لم يحب أن يتقاسمني مع أحد مثل بيلا. وبما أن ذقنه صغيرة كان ذلك يظهره أكثر يأساً.

بفضل السنيور حصلت على رقم ضمان اجتماعي ورخصة قيادة. في إحدى الأمسيات ودون أن يخبرني دعا السيد ليروي إلى باره كي يسمعني أغنّي. حين أنهيت وصلتي، كتب السيد ليروي على بطاقته موعداً لليوم التالي. ذهبت وحدي إلى ستديو التسجيل، دون أن أتحدث عن ذلك لبيلا أو لجان أو لأحد. لم أكن أعي تماماً ما يريده السيد ليروي. ارتديت بنطالاً ضيقاً وبلوزة سوداء كبيرة ذات ياقة عالية تحسباً لأن يكون من النوع الهجومي. كان الاستديو في القبو، في مبنى بأوهايو، وهو عبارة عن صالة كبيرة مغطاة بالعازل الأسود، في وسطها بيانو أبيض. كان الأمر مخيفاً إلى حد ما. عزفت كما تعلمت مع سيمون في بيت هضبة السمّان، منحنية على لوحة المفاتيح كي أسمع بشكل جيد أصوات النغمات القوية. غنّيت لنينا سيمون I put a spell on you وBlack is the color of my true love's hair، بعد ذلك عزفت مقطوعتي، تلك التي أصيح فيها مثل عمال قصب السكر، وأصرخ مثل السنونو في السماء فوق فناء لالا أسمى،

وأغني مثل العبيد الذين ينادون أجدادهم Loas عند أطراف حقولهم واقفين داخل البحر. سميت أغنيتي on the roof «على السطح» كذكرى لشارع جافلو ولسلم الإطفاء الذي كان يوصل إلى سقف العالم. كان قلبي يخفق بشدة. كي أتشجع، فكرت بصوت جيما المضحك والندي الذي كنت أسمعه في الماضي في دوار تبريكه، والمذياع ملصق بأذني، حين كانت تعلن عن كات ستيفنس على راديو طنجة، The voice of America «صوت أمريكا».

الآن وبعد كل تلك السنوات، أعرف ما كنت أريد سماعه، تلك الدحرجة اللانهائية، الخفية، القوية العميقة، صوت البحر على قاع الأرض، صوت المزالق فوق سكة حديدية لا نهاية لها، هدير العاصفة المستمر يهب وراء الأفق مثل تنهيدة، أو هسيس آت من المجهول، صوت الدم في عروقي حين أستيقظ ليلاً وأشعر بأنني وحيدة.

الآن أصبحت أعرف ولم أعد أخشى شيئاً. كنت أعرف من أكون، حتى العظمة الصغيرة التي تكسرت وراء أذني اليسرى لم يعد لها قيمة. حتى الكيس الأسود، والشارع الأبيض والصراخ المبحوح لطير الشؤم. لا زُهرة ولا عبل لا السيدة دولاهي ولا حتى جوب، كل هؤلاء الناس الذين يتلصصون، يطاردون، ويمدون شباكهم لم يعد لهم قيمة. غنيت طويلاً دون حتى أن آخذ نفساً تقريباً، وكنت أشعر بالألم في أطراف أصابعي وبفراغ كبير، مثل أروقة المترو حين تخلو من الناس. لم ينبس السيد ليروي بشفة. تركت الاستديو وقلبي يعتصر، شعرت بأنني فشلت بكل حياتي. فذهبت أحتمي في الفندق مع جان فيلان.

نمت خلال يومين وليلتين، دون أن أستيقظ تقريباً. كنت منهكة القوى، فبعد أن شاهدت العملاق ألسيدور مرمياً على الأرض من قِبَل رجال الشرطة ويُضرب ويُترك يبكي على أمه مثل طفل صغير، لم يعد

بإمكاني العودة إلى شارع روبنسون. كانت أصوات صفارات إنذار الشرطة ماتزال في أذني حين سدّوا الشارع. كانت سماء الخريف الزرقاء والأشجار الحمراء، كل هذا لم يكن يختلف عن شارع جان بوتون، كما أنه لم يكن يختلف كثيراً عن فناء لالا أسمى ولا عن الشارع الأبيض حيث خطفت حين كنت طفلة.

قبل الثلوج بالتحديد، في شهر تشرين الثاني، استلمت رسالة من دائرة الهجرة تضم بطاقة الإقامة، وفي الوقت ذاته أعطاني السيد ليروي موعداً كي أسجل «on the roof». داخل الاستديو، كان هناك المنتج والمساعدون والتقنيون. عزفت وغنيت كل فترة الصباح. كان التسجيل يسير ببطء، وعليَّ أن أعود إلى الوراء باستمرار، ومعاودة الغناء. ثم وحين انتهى كل هذا، وقّعت عقداً لتسجيل أسطوانة إفرادية ولكل ما سوف أنتجه خلال خمسة أعوام.

لم أكن أدرك تماماً ما يحصل لي. وفي الليلة التالية ذهبت مع بيلا والموسيقيين والسيد ليروي ومساعدي الإنتاج إلى مطعم غراند الذي يملكه ماجيك جونسون. كان رأسي يدور، وشعرتُ كأنني بلا حدود. كان هناك صحافية تطرح علي الأسئلة، فرحت أقول أي شيء، إنني فرنسية، أفريقية. حين سألتني عن اسم أغنيتي التالية، أجبت دون تردد، «إلى ألسيدور مع حبي». شعرت بنوع من الغضب الداخلي، كنت أرتجف. كنت أشعر بأن موسيقى طبول ريومور سيباستوبول في كل مكان، في الجو، في دخان البارات، في الوميض الأحمر الباقي فوق شيكاغو حتى الفجر.

في الصباح تركت الجميع. مشيت على طول البحيرة. كان البرد قارساً ولم أكن ألبس سوى سترتي الجلدية السوداء وقبعتي البيريه المقحمة حتى أذنيّ. كانت أشجار الحور الرجراج مضطرمة وزرقة السماء حادة والشمس تشرق فوق البحيرة. شاهدت عبور أسطول الرافعات الصغير نحو نيو مكسيكو.

انتظرت بكل تعقل في أروقة الرابطة الفرنسية. لم يتعرف جان فيلان إليّ فوراً بسبب سترتي السوداء وقبعتي. اعتذر من الطلاب، قال لهم إن لديه أمراً هاماً وعاجلاً. مشينا في الشوارع الكبرى، وتناولنا الفطور مثلما كنا نفعل في هارفرد. وصلنا حتى المصطبة الترابية التي تحيط بمحطة التصفية عند ضفة البحيرة. كان هناك أناس فوق العشب الأخضر، يمارسون التاي شي. كان الجو بارداً، ولدى عبورنا أمام مبنى شيريدان استأجرت ستديو، دفعت فوراً شهر كفالة وأجرة شهر مقدم.

أردت أن يبدو الأمر أننا تزوجنا أنا وجان، دون شهود، دون كنيسة، دون أوراق، ودون مستقبل. أظن أنني في هذا الوقت بالذات أصبحت حاملاً.

16

لا أعرف أي شيطان دفعني للعودة إلى بيلا، في شقته بالبلازا في جولييت. ربما هو الشيطان فعلاً. أو ربما جان فيلان، لأنه جعلني أنتظر كثيراً، لأنه كان ينتظر مثلي. لا أظن أن هناك شخصاً ضجراً بقدري.

في شيريدان كنت حبيسة قفص من الزجاج والحديد، فوق المدينة والبحيرة الجليدية، في مكان كتيم، حتى أنه كان بوسعي الظن بأنني صماء بالأذنين. طوال النهار كنت أنتظر. أنتظر أن ينتهي جان من دروسه، مع طلابه وأساتذته ومقالاته. بعد ذلك انتظر أن ينهي علاقته مع أنجلينا. نحو الساعة الرابعة، كان جان يعود مع زهور وزجاجة نبيذ وبرتقال، كأنه آت لزيارة مريض. كنا نمارس الحب على الموكيت مباشرة، أمام الواجهة الخالية التي ينسدل الليل وراءها. أنام ملتصقة به، كما في الماضي، عندما كنت ألتصق بظهر لالا أسمى. في منتصف الليل، كان يرحل على أطراف أصابعه. ذات يوم طلبت منه أن يريني صورة صديقته. كانت تبتسم ببلاهة بعض الشيء، تجلس فوق عشب أخضر فسيح، أمام بركة سباحة. باختصار، إن اسم أنجلينا يليق بها تماماً. كانت روسية أو ليتوانية، لم أعد أذكر وهي طبيبة.

بيلا هو أيضاً نقيض جان. كان نحيلاً مثل نبتة معرشة، رقيقاً وعنيفاً، فيه نوع من الغضب الداخلي. كان يولي عناية كبيرة بانتقاء ملابسه، أحذيته وقمصانه الحريرية السوداء. وكل صباح يلمّع

القرط المغروس في أذنه. يقول إنه هدية من أخته، أعطته إياه قبل موتها من جرعة زائدة لدى والديها في واشنطن. معه كنت أشعر بفراغ أقل وبالضجر من واجب الانتظار. في الحقيقة، لم أكن أنتظر شيئاً. كنت أعيش كل يوم بيومه، نسمع الموسيقى، نذهب إلى البارات، وعلب الليل، والسهرات. لم يكن السيد ليروي يحب بيلا. في أحد الأيام اتصل بي هاتفياً، لا أعرف من أين حصل على الرقم. وقال لي: «إنه ليس شخصاً مناسباً لك، إنه معيب جداً، سوف يوقعك». غضبت وقررت عدم العودة إلى الاستديو بعدها.

قبل الربيع صادفت بيلا متاعب مالية، كان عليه دفع إيجار شهور. خططنا للرحيل نحو كاليفورنيا بالسيارة، لكننا لم نتوصل إلى القرار. في الليل كنا نتجول حتى الرابعة أو الخامسة في علب الليل، نشرب، ندخن وحين نستيقظ يكون الوقت متأخراً. حتى أنني لم أعد أعرف أي يوم من أيام الأسبوع يكون. كان بيلا قد أبعد من البلازا. في بعد ظهر أحد الأيام كنت عائدة ومعي الحليب والمعكرونة وأشياء للعشاء فوجدت أنهم قد غيّروا قفل الباب. وصل بيلا حانقاً، لم أره هكذا أبداً. كانت أغراضنا قد وضعت داخل أكياس قمامة في أسفل الدرج تحت المطر. راح بيلا يضرب الباب بقوة بقدمه ويصرخ بالشتائم. فوصل حارس المبنى الليلي وبيده المطرقة الكهربائية وهاتفه. تظاهر بيلا بالتعارك فكهربه الحارس بعصاه ثم استدعى رجال الشرطة. رحت أصرخ، أتعلق ببيلا وأزعق. جررت بيلا من شعره حتى موقف السيارات، بدا الأمر هزلياً، مخيفاً. وضعنا أكياس القمامة في السيارة ورحلنا قبل أن يصل رجال الشرطة. كي ينتقم بيلا، رمى على الواجهة زجاجة عصير طماطم أحدثت بقعة حمراء طويلة. في الوقت ذاته راح ينبح مثل ذئب مدينة قديمة. التجأنا إلى أحد أصدقائه في الحي الصيني، بعد ذلك قررنا الرحيل نحو كاليفورنيا. عبرنا الولايات المتحدة دون أن نتوقف تقريباً، نَقود كل بدوره، ليل نهار، وننام في مواقف السيارات. في بعض الأماكن مثل أركنساس وأوكلاهوما، كان الطقس بارداً وكان

هناك ثلج على المرتفعات فوقعت فريسة المرض. بدأت أرتعش ورأسي يؤلمني وأشعر بالغثيان. كان بيلا يقول: «لا أهمية للأمر، ستكونين على مايرام، إنها أنفلونزا». لكن الأمر لم يمضِ. لم تكن أنفلونزا، إنها حمى مخية شوكية. حين وصلنا إلى كاليفورنيا كنت أُحتضر. كان ظهري وعنقي متيبسين وألم واخز يضرب أذني. وكنت أشعر بأن قلبي يتوقف. ما عاد باستطاعتي الكلام وما عدت أسمع ما يقوله بيلا. كانت عيناي مفتوحتين ليل نهار كمن يقع عبر الفضاء. في سان برناردينو فقدت الجنين مع الكثير من الدماء، وخاف بيلا جداً أن أموت في سيارته. فأودعني مع حقيبتي على باب أحد المشافي. لا أدري ماذا حكى، ربما قال بأنه التقطني من الطريق أو شيء من هذا القبيل لأنني لم أره مرة ثانية، ربما أوقفه رجال الشرطة وهو يتاجر بمخدراته أو ببرشاماته. هكذا فقدت أحد قرطيّ الذهبيين اللذين أعطتني إياهما لالا أسمى، لكني كنت مريضة جداً كي أنشغل به.

حين دخلت إلى مشفى سان برناردينو كنت غائبة عن الوعي تقريباً. أمضيت وقتي وأنا متكورة على نفسي، مختبئة تحت الأغطية للهروب من النور. بسبب الحمى والتجفاف، كان لساني أسود ومتورماً، وشفتي تنزفان. حتى أنني ما عدت واعية أني صماء. كنت داخل شرنقة، محتمية داخل مغارة، داخل أعماق ألمي. بدا لي جوفي بمثابة روحي، كان قد خدش قليلاً، وأُحرق وأُفرغ لدرجة أنني لم أعد أحيا إلا به. في بعض الأحيان يمر أحدهم يجبرني على الاستيقاظ وعلى التبول في الحوض ويحقنني بالدواء. كنت أحس بالإبرة تنغرس في ظهري بين الفقرات، أصرخ من الألم ثم أسقط من الإعياء على السرير.

في ذلك الوقت شاهدت ندى للمرة الأولى، سميتها ندى في داخلي لأنها وضعت يدها الشديدة النداوة فوق جبيني وكانت مثل ندى الصباح. شاهدت وجهها الجميل الأملس والقاتم، عينيها

اللوزيتين الشديدتي السواد وشعرها المجدول جديلة واحدة ثخينة مثل ذراع. جلست إلى جانب سريري، وأنا أتفرج على عينيها وأغوص في نظرتها. تمسكت بيدها، وما عدت أريدها أن ترحل.

بعد ذلك غفوت، للمرة الأولى منذ أسابيع. حلمت بأنني لم أكن نائمة، وأنني أنزلق إلى الخلف فوق موجة. كل صباح كنت أنتظر عودة ندى، يدها المنعشة وعينيها. كانت الوحيدة التي تقودني إلى السطح، نحو الضوء. بدأتُ الخروج من مغارتي. هي وحدها تستطيع أخذي إلى العتبة، هناك حيث نسمع موسيقى الأطفال وزقزقة العصافير وحتى هدير السيارات في الشوارع. كنت أجمع لها الحبوب المنوّمة. أخبئها داخل منديل تحت وسادتي، وفي الصباح أقدمها لها. لم يكن معي شيء آخر أقدمه لها.

ذات صباح أتى رئيس الأطباء مع طلابه. كان يقوم بمحاضرة وطلابه ينسخون في كراساتهم. نظرت إليهم إلى أن خفضوا نظرهم، كان الشباب يهزؤون وأنا لا أبالي بهم، كنت بانتظار ندى.

كانت تأتي قبل الليل، قبل أن تعود إلى حيّها في ميشين في سان جان. لم تكن تدعى ندى. كانت تعلق اسمها على ردائها الأبيض، «شافيز». إنها هندية جوانيرية. ولم تكن تتحدث معي إلا بالإشارات. كانت تومئ لي بيديها وبوجهها ما تود قوله لي. ترسم حروفاً بأصابعها وأنا تعلمت أن أجيبها، تعلمت أن أقول: امرأة، رجل، طفل، حيوان، أرى، أتكلم، أعرف، أبحث. كانت تعرف بموضوع الجنين، فهي واحدة من مشاكلهم المعروفة في المشفى، إضافة إلى مشاكل أخرى. لم تسألني شيئاً. أرتني رجالاً لا على التعيين في مجلة. هيوغرانت، سامي دافيس، كين ريفز، بيل كوسبي، وفهمت. ضحكنا كثيراً. أظن أنها كانت تخشى أن يكون طفلي قد حصل إثر حادثة اغتصاب، حينذاك، على المجلة، كتبت جان فيلان، وأضفت بنعم إنه اسم رجل.

ذات صباح أشرت لها بأنني أريد الذهاب. فكرت ندى لحظة، ثم

أحضرت لي ملابسي. تراجعت وأغلقت باب الغرفة. بدا الأمر غريباً، لأنني حتى تلك اللحظة لم أكن قد رأيت منها سوى وجهها البيضوي الشديد النقاوة الشبيه بقناع إنكا الذهبي، حاجبيها المقوسين، عينيها الشبيهتين بدمعتين سوداوين، وشعرها الأسود الأملس واللماع. وحين وقفت أمام الباب المفتوح رأيت أنها شديدة السمنة، بدينة. لا شك أنها قرأت دهشتي في عيني، لأنها قامت بحركة رسم ردفيها الضخمين وهي تبتسم.

لبست بنطالي الجينز الأسود الضيق، وارتديت قميصي القرمزي وركّزت فوق شعري البيريه السوداء التي شبكت عليها قرط الهلال الأخير. وضعت نظارتي السوداء المزرقة الشهيرة التي أعطاني إياها قبل أن نرحل. نظارة سوداء إشارة للحداد، لكن أنا من ضاع. كنت أرغب بترك شيء ما لندى كذكرى فأعطيتها نسختي من كتاب فرانز فانون، المتيبس والبالي مثل نشرة دعائية دون صور ملتقطة من قاع سلة المهملات، لكنه كان أثمن ما أملكه. حين قبّلت ندى شافيز، أعطتني بعض الدولارات، أوراق نقدية ملفوفة بمطاطة، مثل الماضي حين رحلنا أنا وحورية من تبريكه. نزلت السلالم، مررت أمام مركز الحرس مباشرة دون أن ألتفت. مضى وقت طويل لم أخرج فيه حتى أن رأسي دار. كانت قدماي ترفضان السير وأوشكت على الرجوع، كنت أسمع صوت خطواتي فوق الرصيف وصوت الدم في عروقي، وصوت الريح في رئتي لكنني لم أكن أسمع شيئاً آخر.

17

رحت أسير لأيام إلى آخر الشوارع وحتى البحر، وحتى آخر العالم، حتى الموت. كنت أنسل بين الناس، بين السيارات، أركض أحياناً. أنا الأسرع، لا شيء يمكن أن يوقفني، تعلمت الركض منذ زمن طويل، حين خرجت من فناء لالا أسمى. تعلمت تجنب الأفخاخ، والمخاطر وشرطة زُهرة. أرقب بطرف عيني، أندفع، وأتوازن مثل بهلوان فوق الحبل وسط الطريق. كانت الشاحنات والحافلات والسيارات المعدنية تلامسني. تحاصر الريح وجهي، أشم رائحة عجلاتهم العشر التي تعصف غباراً ناعماً أسود أثناء مرورها.

كنت أسير عكس سير السيارات، أعرف ذلك غريزياً. فإذا ما مشيت في اتجاهها نفسه، لن تراها تصل. أنت تكون الطريدة، أنت الضحية، تتباطأ السيارات، تتعثر على طول الرصيف بهياكلها اللماعة وزجاجها المطلي، ثمة أبواب تفتح، وأذرع تحاول الإمساك بك وإصعادك.

على العكس، إذا ما مشيت عكس السيارات، فذلك لأنك مجنون، وهم من يخافون منك. داخل عرباتهم، وراء زجاجهم، يبتعدون، يتركونك وشأنك. يطلقون الأبواق بالتأكيد، يصيحون كالذئاب. لكن أنت، الشمس أمامك، وعند المغيب تحرق الشمس صدرك وشعرك ولا تسمع شيئاً.

أفكر بندى شافيز، أميرتي في فندق سان برناردينو الرائعة الجمال بردفيها العريضين، ووجهها الهندي، وعينيها اللتين

بوسعي أن أقرأ فيهما التيارات المنسابة على سطح المياه، ويدها المنعشة مثل ندى الصباح، هي الوحيدة التي لم تطرح عليّ الأسئلة، لم تنصب لي الفخاخ. حين كانت تأتي كل صباح، كانت تجلس على كرسي بلاستيكي عند أعلى السرير وتمد يدها كي أودع فيها كرة الورق الصغيرة التي تضم الحبوب البيضاء والحمراء التي ينومون بها المجانين، وكانت تمنحني قوتها. وفي أحد الأيام، أدركت أنني مستعدة، ففتحت لي الباب كي أرحل.

كي آكل، وكي أبقى في الظلمة أو ملتجئة من مطر الصباح الخفيف، كانت هناك المراكز التجارية الكبيرة. من محطة غريوندز على الطريق السابع وألاميدا حتى سانتا مونيكا، كانت تستغرق ساعة بالحافلة أو نصف نهار مشياً على الأقدام. حين كنت أصل إلى هناك أصبح في بيئتي. أختفي وسط الجموع، أتبع الممرات، أعبر الساحات الصغيرة، الميادين، أنزل السلالم الكهربائية، أصعد في المصاعد البلّورية الشفافة. كنت أذهب إلى كل مكان وحتى تحت الأرض، إلى مواقف السيارات. أتشاغل، لا أذهب على غير هدى. أعرف كل ركن، كل ممر. مثل الماضي فوق السطح في شارع جافلو، لكنه هنا كبير مثل جزيرة، كبير مثل قارة.

أعرف الأسماء والوجوه ورسوم الواجهات. اكتشفت الحراس وهم أيضاً كشفوني. لا شك أنهم رأوني أولاً على شاشاتهم الصغيرة وتم إعلامهم: «ثمة فتاة غريبة الأطوار، فتاة ملوّنة، تلبس قميصاً أحمر وبيريه سوداء عليها شيء، نجمة أو قمر. لا تفقدوا أثرها». أنا ملاحقة، هناك خيالات ورائي، في إثري، مثل الذئاب في غابات كندا، مثل أسماك القرش في خليج كوبا كابانا. أجرجرهم ورائي، أعرف تماماً أين هم، وماذا يفعلون. يمكنني إضاعتهم حين أرغب، لكن ذلك يسليني أن أعرف أنهم هناك، ويواصلون اتصالاتهم، ويلاحقونني بنظراتهم. حينذاك كنت أتظاهر بالتخفي، أختار مطولاً سترات من الكشمير ألبسها فوق القميص الأحمر، أتردد، ألمس القماش، أنظر إلى البطاقات، رأسي منحن قليلاً، مثل دجاجة تراقب.

بعد ذلك أترك كل شيء، وأرحل من جديد بخطوات واسعة. في إحدى المرات تم توقيفي. عثرت عليّ في إحدى الكبائن سيدة ضخمة شرسة. لم تكن تدرك مع من تتعامل، لم تعرف أن لي عينين خلف رأسي. منذ أن فقدتْ أذني الثانية وظيفتها صرت أرى كل شيء على بعد كيلومترات، يمكنني أن ألمح حركة حارس يحك ما بين فخذيه في الطرف الآخر للبهو. ما كنت لأسرق حتى لا أمنحهم متعة الإمساك بي.

ماكنت أفعله هو تبديل الملابس، هذا كل ما في الأمر. إنها طريقتي كي أكون شخصاً آخر، أي أن أكون أنا، تنانير قصيرة من الجلد الأسود، مخططة، فساتين تلبس الجسد من الستريتش الأبيض، سراويل، مشدات للوركين، جينزات واسعة جداً، كنزات، قمصان حريرية، كنزات من هايفغر، نوتيكا، بولو، غاب، رالف لورين، كالفن كلين، لي، قمصان بيضاء من لورا آشلي. كنت أذهب إلى قسم الرجال، ألبس بدلات رياضية، أفرولات من ماركة أوشكوش، واقيات من الهواء من مخزن سيرز. ثم أعود وأرتدي بنطالي الجينز الأسود وقميصي القرمزي وقبعتي البيريه وأرحل. ما كنت أبحث عنه هو انعكاس صورتي في المرايا. كان يخيفني ويشدني. هذه أنا وليست أنا، كنت أدور حول نفسي، أنظر إلى الألوان الساطعة، والأقمشة اللامعة. عيناي لم تعودا عينيّ. هما شبيهتان برسمتين طويلتين مقوستين على شكل ورقة مثل عيني ندى، على شكل شعلة مثل عيني سيمون. صار لديّ تجاعيد العجوز تغريدة الصغيرة عند زاوية عينيها حين كانت تبتسم، ودوائر حورية العميقة حين كانت ستلد طفلتها تحت الأرض.

وددت التحدث إلى جسدي، فأمشي نحو المرآة، على طول ممر، مثل أميرة على شرفتها، وأشعر بالنظرات تحط علي، وعدسات الكاميرات غير المرئية. في بعض الأحيان كانت البائعات يتوقفن وينظرن إلي، أو أطفال ومراهقون. ذات مرة أتت إحداهن ومعها دفتر صغير، كانت تريد أن أكتب اسمي، كأنني كنت نجمة من

هوليوود. كتبتُ ندى مافوبا. كان عمرها أربعة عشر عاماً ولها وجه قطة صغيرة وعينان لوزيتان واسعتان وشعرها مرفوع، تلبس سروالاً من الجينز واسعاً جداً مهترئاً عند الركبتين. جعلتها تكتب لي اسمها على ورقة من دفترها الصغير. «آنا».

كي آكل كنت أشتري شطائر بخسة الثمن. أحياناً كنت أذهب إلى المطاعم، في ويلشير، وهاليفاكس، ولاسينيغا، وأختفي قبل التحلية. ثمة رجال كانوا يدعونني. يلحقون بي في المراكز وأقودهم حتى إحدى الكافتيريات. يجلسون إلى مائدتي وأبتسم لهم وأنا عالمة بأنني لن أدفع شيئاً. وحين يكتشفون بأنني صماء، يخافون، أو يصبحون خبثاء. كنت آكل وأشرب قبل أن يدركوا ذلك. أصبح في الشارع، أعبر راكضة، وأتخذ الشوارع الوحيدة الاتجاه. ذات مرة، كان هناك شخص لم يحتمل. لف ودار بالسيارة إلى أن وجدني. كان شاباً طويلاً وجميلاً، حسن الملبس، لكنه كلب. ركض نحوي ولكمني لكمة جعلتني أنقلب على الأرض بنظارتي السوداء وحقيبتي المتدلية. لم يساعدني أحد على النهوض. لاريب أنهم فكروا: «هاهي عاهرة يتم تأديبها!».

قبل الليل كنت أستقل الحافلة نحو الدائرة السابعة. أمر أمام السائق دون أن أرمي بقطعتي النقدية. أحياناً لا يقولون شيئاً. وحين يغضبون أشير إليهم بإنني لا أسمع شيئاً وأجلب ربع الدولار. كان مأوى الليل عبارة عن مبنى كبير من الآجر بالقرب من ألاميدا. وهناك على الدوام صف من الناس بالانتظار، بشكل أساسي أناس مثلي، داكنو البشرة وشعورهم سوداء. في الساعة السادسة توزّع القهوة والشطائر. كان مهجع النساء في الخلف، وسط مربع من العشب الأصفر، تزينه نباتات اليوكا المعمرة. حين أغدو في سريري كنت أرى أوراق اليوكا خلفها السماء البنفسجية. ثمة غرفة حمام من الإسمنت مطلية بالرمادي تستحم النساء فيها جماعات. ولا واحدة كانت تنظر إلى الأخرى، أما أنا فكنت أختلس النظر إلى ظهورهن التعبة، أثدائهن، بشرتهن الصفراء، أو الرمادية، أو بلون الشوكولا،

إلى بطونهن المدروزة بالندوب البنفسجية، وسيقانهن المعروقة بالدوالي. بهذا الشكل لا أفكر بشيء، لا أوجد إلا من خلال النظرات. ثم أدخل تحت الماء الدافىء الذي يخِز فمي حيث ضربني الكلب.

لم أكن أنام، أو بالأحرى أنام وعيناي مفتوحتان.

الموسيقى هي التي أنقذتني.

كنت قد رأيت البيانو الأسود الجميل في بيفرلي. في كل مرة أمرُّ أمامه لا أرفع نظري عنه. وفي بعد ظهر ذلك اليوم، لم يكن هناك الكثير من الناس، والرجل الذي يحرس البيانو قد استبدل. كان شاباً صغيراً أشقر، يلبس نظارة، ذقنه صغيرة، يشبه جان فيلان. كان يقرأ كتاباً على كرسيه.

دنوت من البيانو. لمست الخشب الأسود ولوحة المفاتيح العاجية. نظرت إلى الحارس: تابع القراءة، دون أن ينتبه إلي. فكرت: ربما كان أصم هو أيضاً؟ جلست فوق المقعد وبدأت العزف. ظننت أنني نسيت، في البداية تعلقت أصابعي بالمفاتيح، كنت أبحث عن الأصوات، وفي رأسي كنت أدندن وأغمغم. ملت برأسي جانبياً كي ألتقط الأصوات، كما كانت تفعل سيمون حين كانت تعلمني. بعد ذلك وبسرعة بدأ يعود كل شيء. صارت أصابعي تتدحرج فوق المفاتيح، استعدت التوافقات، الألحان، وأعدت تشكيل القفلات. رحت أعزف بيلي، جيمي هندريكس، قطعاً موسيقية تخرج وتسقط. كنت أعزف كل ما يأتيني، دون ترتيب، دون توقف، أرتجل مثل زمن شيكاغو، مثل زمن بوت أوكاي، كنت أعود إلى الوراء، أستذكر، أنسى، وتندفع الأصوات خارجي، من فمي، من يدي، من أعماقي، ما عدت أرى شيئاً، كنت داخل صندوق البيانو، فاغرة الفم، وجوفي يدّوي، حلقي، حتى ساقيّ، كأنني أسير خارجاً تحت الشمس، كأنني أجري. أصبحت الآن أسمع الموسيقى، ليس بأذني، إنما بكامل جسدي، تلفني رعشة، تسري فوق جلدي، تؤلمني حتى الأعصاب، حتى عظامي. كانت الأصوات غير المسموعة تصعد داخل أصابعي،

تمتزج بدمي، بنَفَسي، بالعرق الذي يسيل فوق وجهي وفوق ظهري.

اقترب الشاب مني. ظلّ واقفاً، متراجعاً قليلاً ولم أتمكن من رؤية وجهه. لكني رأيت الكثير من الناس واقفين في البهو، عند مدخل المتجر. أطفال جالسون على الأرض، أزواج متعانقون، كهول ببدلاتهم الرياضية يرشفون مياههم الغازية، وفي إحدى اللحظات رأيت الفتاة التي طلبت مني الإمضاء، «آنا». وقفتْ داخل المتجر، جلست على درجة المنصة، كما فعلتُ في المرة الأولى التي سمعتُ فيها سارة في فندق كونكورد في نيس.

لهم، لها، كنت أعزف، استعدت موسيقاي، هدير طبول ريومور سيباستوبول، طبول تولبياك، طبول أوستيرليتز. صوت سيمون ينشد رحلة العودة نحو الساحل الأفريقي، صفارات إنذار الشرطة، ضربات العصا تضرب ألسيدور في شارع روبنسون في شيكاغو. أدركت أنني لم أكن أعزف لنفسي فقط الآن، كان ذلك من أجلهم جميعاً، من أجل الذين رافقوني، أناس تحت الأرض، سكان كهوف شارع جافلو، المهاجرون الذين كانوا معي على متن السفينة، فوق طريق فال دو آران، أبعد من هذا أيضاً من أجل سكان السويقة، ودوار تبريكه، الذين ينتظرون عند مصب النهر ويتطلعون بلا انقطاع إلى خط الأفق كأن شيئاً ما سوف يغير حياتهم. من أجلهم جميعاً. فجأة فكرت بالجنين الذي أودت به الحمى، ومن أجله أيضاً كنت أعزف، كي تعثر عليه موسيقاي في المكان السري حيث هو موجود.

كنت مستغرقة في الموسيقى، أسمعها تمر فوق بشرة وجهي مثل كفيف بوسعه الإحساس بفرقعة الشمس وهدير البحر البطيء. شعرت بالدموع تفيض من عيني. كانت هذه المرة الأولى التي أبكي فيها منذ زمن طويل، منذ أن تجمد يامبا الحاج مافوبا وحيداً في سريره، في إيفري كوركورون.

كان بوسعي العزف هكذا حتى نهاية العالم. شعرت بأيدي الحرس تدفعني برفق. مددت يدي مرة أخرى نحو المفاتيح، ولكن

فجأة، لم يعد هناك سوى الصمت. ببطء شديد، ومثل تطواف، حملني الحراس على طول البهو ومن كل جانب، كان الناس يصفقون بصمت. مشت الصبيّة آنا لوهلة إلى جانبي، لم تكن تصفق، لم تكن تتكلم، مدت يدها فقط نحوي، ووجهها كوجه قطة صغيرة كان جانبياً، رأيت للحظة عينيها المتطاولتين تلمعان كأنها تبكي. وضعني الحراس في شاحنة صغيرة بيضاء، وفي الخلف كان هناك رجل متقدم في السن يشبه السيد رشدي، أستاذ مكتبتي. ضمني إليه، كأنه يعرفني. كنت منهكة جداً حتى استسلمت، وضعت رأسي على كتفه، وأغلب الظن أنني غفوت.

أخيراً أصبحت في الظل، أجلس في مكان بارد، داخل غرفة صغيرة نظيفة، اتجاهها الشمالي محميّ. لم يكن هناك نافذة، فقط كوة لها قضبان في أعلى الجدار، لا تسمح سوى برؤية السماء والتي كانت زرقاء في ذلك الوقت. كان هناك بجانب السرير كرسي بلاستيكي وكومودينو تخفي حوضاً، وداخل دُرج كانت الحقيبة السوداء التي كانت معي حيث ركبت إلى سان برناردينو، تحوي كل أغراضي، أي بشكل أساسي، نظارتي السوداء المزرقة، وقبعتي البيرية التي شبكت فيها قرط الهلال الأخير.

كان البروفيسور يزورني كل صباح. لا أدري إن كان حقاً بروفيسوراً لكني سميته هكذا لذكرى رشدي اللطيف أستاذ مكتبتي قرب المتحف. كنت أسليه بطريقتي الخفيفة بالكلام، الإنكليزية والفرنسية والإسبانية. هو لا يتحدث، يطرح علي الأسئلة ويكتب علي أوراق كبيرة ينزعها من إضمامة الورق بحركة واحدة. يكتب بعصبية بحروف كبيرة مثل هذه: حالتك الذهنية؟ طبقك الحلو المفضل؟ لكنه يريد معرفة من أين أتيت، ما حصل لي، عائلتي، اسم الرجل الذي جعلني حبلى.

حين كان يطرح أسئلة عن عائلتي، أكتب له أسماء يقرؤها

بانتباه مثل لغز: ندى، سارة، آنا، ماجدة، مليكة. يظن أنني مكسيكية، أو هاييتية، أو ربما من غويانا.

جاءت شافيز اليوم للمرة الأولى. لا أدري حقاً كيف عثرت علي. ربما يتراسلون بالأضابير، أو ربما قرأت في صحيفة محلية مقالاً مع صورتي بعنوان مثير:

«هل تعرفونها؟».

لم تكن ترتدي زيها التمريضي، إنما تلبس بنطالاً واسعاً، وكنزة حوامل مزهرة. تضامناً معي على ما أتصور. تعانقنا مثل صديقتين قديمتين. جلستْ على الكرسي وأنا على السرير. تحدثنا وضحكنا كثيراً، بعد ذلك أخرجتني إلى الحديقة. هنا ليس سان برناردينو. كنا في ماونت زيون في بيفرلي. هناك أشجار نخيل، أوراق أشجار في كل مكان، عشب شديد الاخضرار ـ ومال أيضاً. لم يكن هناك سياج ولا حارس. بإمكاني السير والرحيل ببساطة. ربما لهذا السبب بقيت.

في كل صباح، كانت تأتي شافيز مع البروفيسور. لاشك أنها طلبت إجازة كي تتغيب عن عملها، أو ربما كنت أنا عملها. كنا نركب سيارة البروفيسور، ونلف في الشوارع على غير هدى. يطرح أسئلة، معه إضمامة أوراقه دائماً. كان يريد أن يفهم من أكون، ماذا فعلت، أين تعلمت العزف على البيانو. عدنا معاً إلى المركز التجاري أمام البيانو، لكن ذلك لم يوحِ لي بشيء. تغير الحارس، لم يعد ذلك الشاب الذي راق لي كثيراً، وبدا البيانو ضخماً، وحيداً وسط المتجر، مثل آلة جهنمية. حينئذٍ قدتهما إلى مكتبة كي أشتري مجلات أزياء. تصفحت كتباً لاعلى التعيين، فجأة، تعرفت على صورة البروفيسور فوق غلاف كتاب فلسفة. كان اسم الكتاب Hypnos & Thanotos أو شيء من هذا القبيل. وكُتِبَ تحت العنوان: إدوارد كلين. كنت سعيدة بمعرفة اسمه، وهو كان يبدو منزعجاً قليلاً، لكنه سعيد أيضاً. ابتسم

ابتسامة صغيرة، كأنه يقول: «آه، نعم، هذا أنا فعلاً ». فيما بعد أعطاني كتابه، مع إهداء: «إلى مجهولتي الأغلى!».

بعد ظهر أحد الأيام فُتح باب غرفتي في زيون وتعرفت على السيد ليروي.

مع هذا لم يدهشني ذلك. كنت قد بلغت حداً أرى فيه كل شيء عادياً على نحو غريب، وغير منطقي حتماً.

تفسيري للأمر، أعتقد بأنها ندى شافيز. فداخل كتابي «المعذبون في الأرض» نسيت نسخة من عقدي مع كانال. اتصلتْ بشيكاغو، وأتى السيد ليروي بالطائرة التالية. كان يحمل لي معه دعوة إلى مهرجان الجاز في نيس. سيكون فيه كل شيء، حتى صماء تعزف البيانو. بالاندفاع الصادق والأخرق نفسه، طلبت شافيز من الاستعلامات رقم جان فيلان. ستكون له بالتأكيد قصة كاملة مع أنجلينا، لأنه سيصل غداً. من المحتمل أن يكون عليه التخلي عن دراسة الطب الليتواني. الله شاهد علي أنني لم أطلب شيئاً من أحد.

18

أنا عائدة، باسمٍ آخر، ووجه آخر.

مضى وقت طويل وأنا أنتظر هذه اللحظة، إنه انتقامي. ربما دون أن أدرك، فعلت كل شيء كي يحدث. سيمون التي تعرف بهذا الخصوص كانت تقول دائماً: «لا يوجد شيء اسمه مصادفة».

في نيس استقبلتني منظمة المهرجان في الفندق الذي يقع على شاطئ البحر، حيث السيدة البرونزية تحاول دوماً الفرار من بين الجدران التي تسحقها. ثمة بيانو موجود بشكل دائم على المنصة وصوت يتمرن، ربما على موسيقى بيلي هوليداي. أنا أيضاً غنيت في الليل أغنيتي على المنصة. داخل هذا الجو الخانق الرهيب، تحت سماء رمادية بلون الرصاص، كنت أمشي كل يوم في شوارع نيس، كأن بوسعي التعرف على شيء ما. كان الشاطئ الحصوي يحتشد بالناس، والشوارع تسدها السيارات. في كل مكان بدت الحشود منهكة ولا عمل لها.

من المكان الذي مشيت فيه مع خوانيكو، ركبتُ الحافلة على طول الشلال الذي جففوه، حتى أعمدة الطريق العام، وبحثت عن مدخل المخيم. كان يجب أن أكون حقيقةً شخصاً آخر، لأنني ما إن اجتزت باب المخيم، بين الأسلاك الشائكة، حتى سدّ رجل طريقي بشاحنته. كانت نظرته قاسية وشريرة. حين لفظت اسم رامون أورسو، سخر مني. صرخ للآخرين شيئاً لم أفهمه، اسماً مشوهاً:

«روسو! روسو!»، فجاء رجل آخر، طويل وأنيق رغم أسماله، له شارب صغير، أشار لي بأن لا أحد هنا وأن الجميع رحلوا. وأعادني إلى مدخل المخيم.

حاولت الاتصال بجان كي أقول له أن يأتي حالاً، كي أحدثه عن الطفل الذي سننجبه عند عودتي. إنما بسبب فارق التوقيت، لم أتمكن من الحديث إلا مع المجيب الآلي. لم أعرف ماذا أقول، قلت إنني سأتذكر. شعرت بالغثيان وبوخز في جانبي. تذكرت حورية حين مشتْ في الجبل وجنينها في بطنها. لماذا لا يكون عندي الشجاعة نفسها بينما لم يعد هناك شيء في بطني؟ فجأة، صارت الموسيقى تخنقني. كنت أريد الصمت فقط، الشمس والصمت.

تركت رسالة لمنظمة المهرجان، قلت فيها إنني ألغي كل شيء. غادرت الفندق بعد الظهيرة، ركبت قطاراً ليلياً إلى سيربير، مدريد، الجزيرة. كان موسم عطلة، السيّاح في كل مكان والفنادق كلها ممتلئة. في الجزيرة، قضيت يومين في موقف سيارات ترابي، مليء بالسيارات المتوقفة وبالمقطورات. نمت على الأرض، ألفُ نفسي بغطاء، قاسمتني عائلة مغربية الماء ومشروب الفانتا والخبز. كان الأطفال يلعبون بين السيارات المتوقفة، ويرقصون على موسيقى مسجلاتهم. بين الحين والآخر، كان يمر في البعيد، في الجانب الآخر من السور الشائك حرس مسلحون برشاشات. كانت الشمس تتوهج وسط السماء البيضاء. لكن الليالي كانت لطيفة وباردة. كنا نتحدث بالإشارة، نروي القصص، نعد الساعات، ونعد الأيام على روزنامة. في البداية، راح الأطفال يهزؤون بي لأنني صماء، بعد ذلك اعتادوا. بالنسبة إليهم، كان الأمر لعبة، لاشيء أكثر.

في المساء الثالث ركبنا الحافلة. ما عدت أعرف كثيراً لماذا كنت هناك. كنت أتبع حركة الناس دون أن أشعر. لم أكن أبحث عن الذكريات ولا عن رعشة الحنين ولا عن الضفتين. ليس هناك عودة إلى أرض الوطن، فضلاً عن ذلك، ليس عندي وطن. ضفتي في الوقت

الحاضر، هي ضفة البحيرة الزرقاء الكبيرة تحت رياح كندا الباردة. كان الأمر شبيهاً إلى حد ما بخيط يمتد إلى داخل أعماقي ويشدني نحو مكان لاأعرفه.

سافرتُ بالحافلة نحو الجنوب، كان هناك سائحات ألمانيات يلبسن الشورتات، فرنسيات بالقبعات، أمريكيات بالعباءات، قطعت معهن جزءاً من الطريق، ثم رحلن باتجاه آخر. في مراكش ركبت حافلة نحو الجبل، وهن رحلن نحو البحر، إلى أغادير وإيساوريا وشاطئ تان تان.

في تيزين تيشكا، بينما كان سائق الحافلة يشرب الشاي، اشتريت من رجلٍ صحراوي صَدفة متحجرة ضخمة من أجل جان. وبما أن الصَدفة كانت ثقيلة جداً على حقيبتي، صنع البائع حقيبة ظهر بوساطة كيس قديم من ألياف نخيل الرافية. كان رجلاً طويلاً وقوياً، بشرته حمراء مثل هنود أمريكا، يلبس معطفاً كبيراً من نسيج غليظ. أراني خارطة بريدية أرسلها له أخوه من أمريكا من قرية في الغابة، في ولاية واشنطن.

هكذا وصلت إلى فومزغيد. في الجنوب، كان الطريق يتجه نحو تاتا، وفي الشمال نحو زاغورا. وفي الأمام بخط مستقيم، ليس هناك سوى طرق حفرتها الشاحنات ودروب للماعز والجمال. هناك الامتداد الوعر، آبار جافة، أكواخ طينية وحجرية شبيهة بأعشاش الدبابير.

هاأنذا أصل. لا يمكنني الذهاب أبعد من ذلك. كأنني على شاطئ البحر، أو على ضفة مصب نهر لانهاية له.

تركتُ حقيبتي والصَدفة المتحجرة في غرفة في القرية.

للمرة الأولى أردت أن أطرح على المرشد الذي استأجرته من الفندق السؤال الذي أحتفظ به في فمي منذ زمن طويل «هل سُرقت طفلة من هنا، منذ خمسة عشر سنة؟» لكنني لم أقل شيئاً. في جميع الأحوال كنت أعرف أنه ما من جواب. تحسنت أذني كثيراً منذ

عودتي. لكن هل سماع أصوات وكلمات لغة التخاطب كان كافياً كي أفهم؟

الناس هنا، الناس الذين أراهم وأهل القرى الذين لا أراهم، ينتمون إلى هذه الأرض، كما لم أنتمِ أنا إلى أي مكان أبداً. يتحاربون، يأتي بعضهم ليأخذ أرضاً لا تخصه، ويحفرون آباراً في مكان لا يكون لهم.

أهل هنا، أهل أساكا ونخيلة وألوغوم، أبناء عيسى وهلال ماذا يفعلون؟ يتقاتلون، يقع ضحايا وجرحى. تبكي النساء. هكذا، إنه الواقع، ما بيدنا حيلة؟

هنا، أنا واثقة من ذلك الآن. النور فوق رأسي شديد البياض، الشارع خال تماماً. يدفع النور الدمع إلى المآقي. والريح الحارقة تزلق الغبار على طول الجدران. كي أقاوم الريح والنور اشتريت عباءة زرقاء واسعة، مثل نساء البلد، ولففت نفسي بها تاركة شقاً صغيراً للعينين. داخل رحمي بدأت أشعر بالضربات الخفيفة للطفل الذي سيكون لي، والذي سيحيا. من أجله أيضاً وصلت إلى هنا، إلى آخر العالم.

تعب المرشد من اللحاق بي في ذهابي وإيابي على طول الشارع الخالي. جلس فوق حجر، في ظل جدار، يدخن سيجارة إنكليزية وهو يراقبني من بعيد. هو ليس من أبناء بني هلال ولا من أبناء عيسى، ولا كريويجا غازي. إنه طويل جداً، واضح جداً أنه قادم من المدينة، من زاغورا، أو من مراكش، أو ربما يكون من كازابلانكا بالذات. في البعيد، في آخر الشارع، أمام آخر بيت، هناك حيث تبدأ الصحراء، ثمة امرأة مسنة تلبس السواد، جالسة فوق مقعد قصير أمام الباب الفارغ لفنائها. وجهها لا يغطيه الحجاب، كان أسود متغضناً، شبيهاً بجلد قديم محروق. شاهدتني آتية، دون أن تخفض نظرها، نظرتها حادة قاطعة مثل سكين. تبدو قديمة وقاسية مثل حجر جان. هلالية حقيقية، من شعب هلال القمر.

جلستُ بالقرب من المرأة المسنة. إنها قصيرة جداً وشديدة النحول، بالكاد تصل إلى كتفي، مثل طفلة. الشارع خالٍ تلسعه شمس الصحراء. شفتاي جافتان ومشقوقتان، حين مررت بظاهر يدي للتو عليهما شاهدت دماً. لم تحدثني المرأة العجوز. لم تتحرك حين جلست. نظرت إلي فقط. في وجهها الجلدي الأسود، بدت عيناها البراقتان والمصقولتان صغيرتا السن جداً.

لست بحاجة للذهاب أبعد من ذلك. أعرف الآن أنني وصلت أخيراً إلى نهاية رحلتي. هنا، وليس في أي مكان آخر. الشارع الأبيض مثل الملح، الجدران الساكنة، وصيحة الغراب. هنا خُطفت منذ خمسة عشر عاماً. منذ زمن بعيد جداً، أحدٌ من قبيلة كريويجا خطفني، عدو لقبيلتي الهلالية، من أجل قصة مياه، قصة بئر، ثأر. حين تلمس البحر، تلمس الضفة الأخرى. هنا، حين أضع يدي على تراب الصحراء ألمس الأرض التي ولدت فيها، ألمس يد أمي.

جان سيصل غداً. استلمت برقيته في فندق كازا. أنا الآن حرة، كل شيء يمكن أن يبدأ. مثل جدي الشهير بلال، العبد الذي حرره النبي وأطلقه في العالم، خرجت أخيراً من زمن العائلة ودخلت زمن الحب.

قبل أن أرحل لمست يد المرأة المسنة، كانت ملساء وقاسية مثل حجر من عمق البحر، مرة واحدة، وبخفة، كي لا أنسى.

السمكة الذهبية

ولد «جان ماري غوستاف لوكليزيو» في العام 1940. يحمل الجنسيتين الفرنسية والموريشيوسية، وقد تميزت حياته بثقافات وأسفار متعددة انعكست بشكلٍ جوهري في إبداعه.

فَضَحَ دعارة الأطفال في تايلاند، وشارك الهنود الحمر حياتهم في المكسيك لمدة أربع سنوات، وواجه الأوساط الصهيونية في فرنسا بعد نشره رواية «النجمة الهائمة» التي تناولت مأساة اللاجئين الفلسطينيين، والمراحل الأولى من تشكّل المخيم الفلسطيني.

حصل على الكثير من الجوائز المحلية والعالمية، توّجها في العام 2008 بجائزة نوبل.

في رواية «السمكة الذهبية» يكتب لوكليزيو سيرة «ليلى»، الفتاة المغربية التي تنتمي إلى قبيلة بني هلال، والتي اختُطفت وهي لا تتجاوز السادسة من عمرها. وبعد أن ضُرِبَتْ إلى درجة الصمم، بيعت إلى لالا أسمى التي كانت بالنسبة لها بمثابة جدّة ومعلمة. بعد موت العجوز تغادر «ليلى» حي الملّاح، وتبدأ برحلتها الطويلة التي تجول فيها بعوالم مختلفة من المغرب إلى فرنسا إلى الولايات المتحدة الأمريكية، بتصميم ومزاج طيب، في رحلة تبحث فيها عن هويتها ودواخلها وجذورها الأفريقية. لتعود في النهاية إلى قبيلتها في الصحراء جنوب المغرب، حيث تتذكر المكان الذي اختُطفت منه، كي تجد حلاً لمأساة لبستْ جوهر حياتها.

في «السمكة الذهبية» بقي لوكليزيو وفياً لكتابته وروحه: روح تفلت من هذا العالم كي تجد ملجأها الوحيد في الفطرة الأولى.

9 789933 900786